

المقتطف

الجزء الأول من المجلد الثامن والثمانين

١ يناير سنة ١٩٣٦

٦ شوال سنة ١٣٥٤

هذا العدد من المقتطف يختلف عن كل عدد صدر
منذ ستين سنة الى يومنا هذا . فهو في موضوع
واحد ، ولكاتب واحد

أما الموضوع فأبو الطيب المتنبي

وأما الكاتب فالاستاذ محمود محمد شاكر

وقد رأى محرر « المقتطف » في العناية بالاحتفال
بانقضاء ألف سنة على وفاة المتنبي ، وفي طرافة الباحث
التي انطوت عليها رسالة الاستاذ شاكر ، ما يسوغ له أن
يجعل هذا العدد بمثابة كتاب يرفعه :

الى ابي الطيب المتنبي



ذَكَرْتُكَ بَيْنَ ثَابِيَا السُّطُورِ ،
وَأَضْمَرْتُ قَلْبِي بَيْنَ الْكَلِمِ
وَلَسْتُ أُبَوِّحُ بِمَا قَدْ كَتَمْتُ ،
وَلَوْ حَزَّ فِي النَّفْسِ حَدُّ الْأَلَمِ
تُسْمَرْقِي — مَا حَيْتُ — الْمُنَى ،
فَارْقَعُ مَا مَزَقْتُ بِالظُّلَمِ
فَكَمْ كَتَمَ اللَّيْلُ مِنْ سِرِّنَا ،
وَفِي اللَّيْلِ أَسْرَارُ مَنْ قَدْ كَتَمَ
• تَشَابَهَ — فِي كَتَمِ مَا نَسْتَسِرُّ —

سَوَادُ الدُّحَى ، وَسَوَادُ الْقَلَمِ
مُحَمَّدُ مُحَمَّدٌ مَبَاكِرُ



وتضرب أعناق الملوك ، وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركت في الدنيا دويًا كأنما تداول سمع المرء أعماله العسر

وعندما أراجع ديوان المتنبي الآن تمر بي أبيات من الشعر كأن رنينها إذ أقرؤها محمول الي
من مغاور متعاقلة في جوف الماضي . وأكثر هذه الايات من شعر الغزل والنسيب الذي كان
المتنبي يستهل به بعض قصائده . ولست أحفظ الآن من ذلك إلا نزرًا يسيرًا ، لان رجولة المتنبي
كانت هي التي فتنتني في صباي دون رفته ونسيبه ، وقد كنت اظن ان رجولته هذه يكون
مردها ، في الغالب ، الى خياله المتوئب وحده — الى ان قرأت اصول هذا الجزء من المقتطف وتجاربه ،
فاذا هي ، بحسب رأي الكاتب ، متصلة أوثق اتصال بأصله ونشأته وتربيته التي قامت عليها
جدته ، « أم أمه » وحوادث عصره وحياته ، واذا أقوى شعره إعراب بليغ ، وبيان
واضح عن ذلك كله

وكنت اطلب العلم في جامعة بيروت الامريكية فكان أستاذنا في الادب العربي (جبرضومط)
رحمة الله عليه ، مولماً بدراسة المتنبي وتدرسه ، ففضينا معه سنتين نحفظ من قصائد المتنبي ما يتخيره
لنا منها ، ونعمن في حل أبياتها وإعراب ألفاظها ، ويمن هو في تفسير معانيها وبيان ما تحمل في
تأياها من حكمة وفلسفة . وكان لا يفوته ان يلح احياناً الى ان حياة المتنبي لعل صلة وثيقة
بعصره . وكان معظمنا لا يعي من تاريخ الشرق العربي في ذلك العهد إلا اليسير ، فرب هذا
التلميح غير آبه

وأكبر الظن عندي الآن — وقد اطلمت على رسالة صديقي الاستاذ محمود محمود شاعر ،
وما جلاه فيها من دقائق هذه الصلة — ان استاذنا كان قد حاول ان يجتلي بعض هذا
الغامض ، فتبينت له اشياء لم ينشرها ، إما التزاماً للحذر العلمي قبل القطع برأي ، وإما مراعاة
للاحوال السياسية

وعلى ذلك ظل المتنبي — على علو مقامه في الادب العربي ، ونصوع معانيه ، وسمو حكيمه ،
وكمال رجولته — تكنته في ذهني غمامات من الغموض ، على كثرة شراح ديوانه ومفسريه

ولكن مشاغل الحياة ، وانصراف أساتذتنا — عند طلبنا العلم — عن ترسيخنا في معرفة أصول تاريخنا الشرقي العربي صرفتي عن دراسة المتنبي . فكنت فيما تلا من عهد الدراسة لأذكره الأً عندما أسكن الى ساعة من الراحة ، فأخرج شرح اليازجي ، وأقرأ بعض قصائده المشهورة ، صادفاً عما قد تطوي عليه أحياناً من مغلق المعنى ، او مهجور اللفظ ، او معقد التركيب ، مكتفياً بما فيها من قوة ورجولة ، تكاد تحسهما — بعد انقضاء عشرة قرون — تتفجران من معاطف هذا العربي كالينبوع ، وتطاران من عينيه كالشرر

فلما ذكر المذكورون بانقضاء ألف سنة على مصرع المتنبي في ٢٧ رمضان سنة ١٣٥٤ (وقد كان مصرعه في ٢٧ رمضان سنة ٣٥٤) قلت : هي فرصة فذة تتيح للمقتطف أن يشارك في إحياء ذكر عظيم من عظماء العرب ، ونابهة من نوابع اللسان العربي ، كسنته في الاشتراك في إحياء ذكرى العظماء من علماء الفرنجة ، وفلاسفتهم ، وكتابهم ، وزعمائهم . ولكن الفرق فيما يجب على المقتطف في الحالين واضح :

فتحن حين نحتفل بذكر عظيم من عظماء الفرنجة نجزيه بمجمل من سيرته وأثره ، لأن الغرض إنما هو التعريف بآثاره من الناحية الذهنية ، والاشادة بخلقه أو مثاله من الناحية الأدبية . ولكتنا — اذ كان المتنبي من عباقرة شعرائنا — لا ينبغي لنا أن نجزيه بمجمل أقوال الرواة والنقاد في حياته وشعره

فتحدثت في ذلك مع صديقي المحقق الاستاذ محمود محمد شاكر ورغبت اليه أن يكتب كلمة مسبهة بعض الأسهاب عن المتنبي . وأقر أنني كنت مقتنعاً — عند ما أليت اليه هذا الاقتراح — أن الكلمة لن تزيد عن عشرين ، أو ثلاثين من صفحات المقتطف ، فوعدي ان يبذل مالديه . ولكن البحث تشعب أمامه ، ومواطن الاستبطاء والمقابلة تعددت ، فلم يرض — وقد وجد مجال الغول ذاسمة — بالتهج المطروق . فبعد ان كتب عشرات من الصفحات مزقها ونبذها ، وعاد الى الكتابة على نهج آخر . فأصبح المقال عدداً كاملاً من المقتطف ، أو يزيد . وليس هذا العدد الكامل الا موجز سفر في المتنبي ينوي أن يجعله في أربعة مجلدات أو أكثر ولا أخفي عن القارىء أنني مقتبط بهذا كل الإغباط . ففي هذه الرسالة — على ايجازها بالقياس

الى ما كان يجب ان تكون — دلائل على تبخر الكاتب في تاريخ هذا العصر من حياة شرقنا العربي ، ومقدرته على تبيين الاشارات الخفية في شعر المتنبي الى حوادث ذلك العصر ، وبراعة عجيبة في استنباط حالات الشاعر النفسية من آيات شعره وربطها بحياته الخاصة ، والاحداث التي كانت في الامة العربية بوجه عام . وفي الغالب ان يكون عمل كهدا متعذراً اذا لم يوفق الكاتب الى دليل يهديه سواء السبيل في تيه الحوادث ومجاهل الآراء ، فضلاً عما يقتضيه من سعة نادرة في العلم ، وبراعة فذة في الاستنباط . وهذا الدليل الذي هدها هو رأي جديد في أصل المتنبي ونشأته : أشبه ما يكون بالنظرية العلمية في ميدان العلوم الطبيعية :

فالحقائق في علوم الطبيعة هي خصوم النظريات . والبحث عن الحقائق بالمجهر والمطياف وغيرها من ادوات العلم ، عمل لا ينقطع ولن ينقطع ما بقي الانسان على فطرته في حب الاستطلاع . ولا يخفى أن النظريات توضع لتفسير طائفة معروفة من الحقائق . فاذا انقضت عقود من السنين أو سنوات قلائل ، فالغالب أن تحجب هذه الحقائق الجديدة التي يكشف عنها بعد وضع النظرية مخالفة للنظرية في مجملها او لنواح منها ، فتعدل النظرية القديمة ، أو تطوى وتوضع نظرية جديدة . ويشترط في النظرية الجديدة أن تكون تفسيراً عاماً متنسقاً للحقائق الجديدة والقديمة معاً ، وأن يكون فيها من المرونة ما يجعلها تحتمل تفسير الحقائق التي تستجد ، والتمهيد للكشف عن أمور مجهولة

فالاستاذ شاكر وضع هذا الرأي اولاً فيما قيل عن أصل المتنبي ووالده وذهابه الى الكوفة لزيارة جدته ، وامتاع ذلك عليه ، فاستقامت الحوادث المتناقضة في الروايات المنقولة على أساس هذا الرأي الجديد . ثم لما طبقه على تفسيرة المتنبي في شعره ، وحوادث حياته الاخرى ، وخاطة حديث نبوته الى ان اتصل بسيف الدولة ، تساوقت واتصل الاول منها بالآخر . واستقام كذلك فهمها على منوال يرتضيه العقل ، ويؤيده ما كان من حوادث العصر . ولا يبعد أن تكون هذه النظرية تمهيداً للكشف عن أشياء في حياة المتنبي وتاريخ عصره على منوال ما تولده النظريات في العلوم الطبيعية ، كما قدمنا . ولعل الاستاذ محمود يحقق كل هذا تحقيقاً مفصلاً في سفره المرتقب إن شاء الله ولا يسعني في هذه السطور ان أفصل القواعد التي بنى عليها الاستاذ شاكر رأيه ، فهي

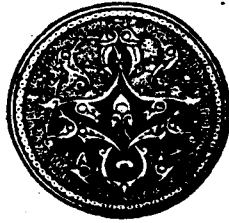
كثيرة مفرقة في جميع الفصول، وهذا البحث الطريف في حياة المتنبي وأدبه ليس الآوليد تطبيقها فقد استطاع ان يكشف من شعر المتنبي عن دقائق حياته ، وينفض الروايات المنقولة لنا عن أصله ونشأته وتنبؤه وجه ومصرعه ، ويصل بين حياة الرجل واحداث عصره . وبذلك انسقت حياة المتنبي ، واتصل اولها بآخرها ، وقلت الفجوات في تسلسلها ، واستقام فهمها على اساس معقول من الأدب والتاريخ

فالذي يقرأ هذا البحث ويعود الى مطالعة ديوان المتنبي ، متدبراً ، تكشف امامه معاني شعره ، وصلتها بنفس صاحبها من ناحية ، وبتاريخ عصره من ناحية اخرى فقد نقض الاستاذ شاكر الرواية المتداولة عن ان والد المتنبي كان سقاء بالكوفة ، ورسم صورة لحدائثه في مدارس الاشراف العلويين فيها ، وبين صلة المتنبي بالعلويين من نشأته الى وقت مصرعه ، وتأثير ذلك في حياته وشعره وآرائه السياسية ، ونفى ما اتهم به المتنبي من النبوة مستنداً على صحة ما يذهب اليه بما استنبطه من شعره ، وما استخرجه من دقائق الحوادث التاريخية المتصلة بمسألة النبوة ، واستطاع ان يصل الى السبب المعقول في تسمية ابي الطيب بالمتنبي

وقد درس حياته وهو في جوار سيف الدولة دراسة وافية من شعره وحوادث عصره ، فكشف عن الصلة بين سيف الدولة والمتنبي ، وأنها كانتا يعملان معاً على تحقيق الامل السياسي لردّ الحكومة الى العرب ، وزرعها من يد الاغاجم الذين كانوا قد استولوا على مقاليدها ، وبين أثر هذه الصلة السياسية في شعر ابي الطيب الذي قاله لسيف الدولة

وأثبت في ما أثبتته من تاريخ هذه الفترة ان ابا الطيب كان يحب « خولة » اخت سيف الدولة وما كان لهذا الحب من الاثر في سمو شعره ، وروعة يانه

فؤاد صرثوف



المقتطف

الجزء الأول من المجلد الثامن والثمانين

١ يناير سنة ١٩٣٦

٦ شوال سنة ١٣٥٤

هذا العدد من المقتطف يختاف عن كل عدد صدر
منذ ستين سنة الى يومنا هذا. فهو في موضوع
واحد، ولكتاب واحد

أما الموضوع فأبو الطيب التنبي

وأما الكاتب فالاستاذ محمود محمد شاكر

وقد رأى محرر « المقتطف » في العناية بالاحتفال
بانقضاء ألف سنة على وفاة التنبي، وفي طرافة المباحث
التي انطوت عليها رسالة الاستاذ شاكر، ما يسوغ له أن
يجمل هذا العدد بمثابة كتاب يرفقه :

إلى ابي الطيب التنبي



ذَكَرْتُكَ بَيْنَ تَنَايَا السُّطُورِ ،
وَأَضْمَرْتُ قَلْبِي بَيْنَ الْكَلِمِ
وَلَسْتُ أَبُوحُ بِمَا قَدْ كَتَمْتُ ،
وَلَوْ حَزَّ فِي النَّفْسِ حَدُّ الْأَلَمِ
تُضْمِرْتَنِي — مَا حَيْتُ — الْمُنَى ،
فَأَرْقَعُ مَا مَزَقْتَ بِالظُّلْمِ
فَكَمْ كَتَمَ اللَّيْلُ مِنْ سِرَّتِنَا ،
وَفِي اللَّيْلِ أَسْرَارُ مَنْ قَدْ كَتَمَ
تَشَابَهَ — فِي كَتْمِ مَا نَسْتَسِرُّ —
سَوَادُ الدُّحَى ، وَسَوَادُ الْقَلَمِ
مُحَمَّدٌ مُحَمَّدٌ مُتَاكِرٌ



أنا ابنُ من بَعَضُهُ يَفوقُ أبَا ال
 بِأَحْسَنِ وَالَّذِي جَمَلُ بَعْضٍ مِنْ نَجْدَلَهُ
 وَإِنَّمَا يَذْكَرُ (الجُدُودَ) لَهُمْ
 مِنْ نَفَرَوهُ وَأَقْدُوا حَيْدَلَهُ
 إِنَّ الكِذَابَ الَّذِي أُكَادُ بِهِ
 أَهْوَنُ عِنْدِي مِنَ الَّذِي نَقَلَهُ

« أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي »
 « أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الحيار الجعفي »
 « أحمد بن محمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفي »
 هو أبو الطيب الملقب بالمتنبي . ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ بمحلة كانت بها تسمى كندة ،
 وكان أبوه الحسين سقاءً يستقي الناس على جبل له بالكوفة ، وكان يلقب بعبّدان السقاء
 حدث علي بن الحسن التنوخي عن أبيه (المحسن بن علي التنوخي) قال :
 « اجتمع بعد موت المتنبي بسنين مع القاضي أبي الحسين بن أم شيان ^(١) الهاشمي
 وجرى ذكر المتنبي فقال : كنت اعرف أباه بالكوفة شيخاً يسمى عبّدان يستقي على بعير له ،
 وكان جعفيّاً صحيح النّسب »
 وحدث التنوخي أيضاً عن أبيه قال :
 « حدثني أبو الحسن محمد بن ^(٢) يحيى العلوي الزيدي قال : كان المتنبي وهو صبي ينزل
 في جواردي بالكوفة ، وكان يعرف أبوه بعبدان السقاء — يستقي لنا ولاهل المحلة ... »

(١) هو علي بن محمد بن صالح بن علي ينتهي نسبه الى عبد الله بن عباس بن عبد المطلب مات بشارع دار
 الرقيق ببغداد في يوم الثلاثاء ١٢ شعبان سنة ٤٢٠ هـ ، ويعرف بابن أم شيان
 (٢) هو « محمد بن عمر بن يحيى » ينتهي نسبه الى زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم . كان من اهل
 الكوفة ثم سكن بغداد وكان المتقدم على الطالبين في وقته والمنفرد في علو محله مع المال واليسار ، وكثرة
 الضياع والعقار . ولد سنة ٣١٥ وتوفي ببغداد في ١٠ ربيع الاول سنة ٣٩٠ ثم حل بعد ذلك اسنة او اقل
 الى الكوفة فدفن بها

وقال ابو الحسن العلوي ايضاً من حديث التوخي عنه : « كان عبدان والد المتبي يذكر أنه جعفي وكانت جدة المتبي همدانيةً صحيحة النسب لا اشكُ فيها ، وكانت جارتنا ، وكانت من صلحاء النساء الكوفيات ... »

ثم قال التوخي (علي بن الحسن) ، قال ابي :

« فاتفق محيي المتبي بعد سنين الى الاهواز منصرفاً من فارس فذكرته بأبي الحسن (يعني محمد بن يحيى العلوي الذي مرَّ آنفاً) فقال : رَبِّي وَصِدِّي وَجَارِي بِالْكُوفَةِ ، وَأَطْرَاهُ وَوَصْفُهُ ... وَسَأَلْتُ الْمَتْبِيَّ عَنْ نَسَبِهِ فَمَا اعْتَرَفَ لِي بِهِ ، وَقَالَ : اَنَا رَجُلٌ أَحْيَطُ الْقَبَائِلَ ، وَأَطْوِي الْبُؤَادِي وَحَدِي ، وَمَتَى انْتَسَبْتُ لَمْ أَمْنُ أَنْ يَأْخُذَنِي بَعْضُ الْعَرَبِ بِطَائِلَةٍ بَيْنَهَا وَيُنِ الْقَبِيلَةَ الَّتِي انْتَسَبُ إِلَيْهَا . . . وَمَا دَمْتُ غَيْرَ مُنْتَسِبٍ إِلَى أَحَدٍ فَأَنَا اسْمٌ عَلَى جَمِيعِهِمْ وَيَخَافُونَ لِسَانِي » هذا ما ذهب اليه رواتنا ممن وقع الينا كلامهم في نسب المتبي يزيد بعضهم ويسمى بعضٌ . . . وقبل ان نبدأ كلامنا عن نسبه ، نذكر لك طرفاً من امر (الكوفة) التي ولد بها أبو الطيب وفيها نشأ عسى ان تكون منه فائدةً فيما يستقبل من كلامنا

كان نصير الكوفة وأول امرها — على ما ذهب اليه اكثر العلماء — في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما بين سنة ١٧ إلى سنة ١٩ من الهجرة ، وذلك ان المسلمين لما فرغوا من وقعة رستم بالقادسية وعصفوا بالفرس ثم انحدروا ، كان مما ازلهم فيه سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه — مكانٌ من سواد العراق يقال له (سوق حَكَمَةَ) فَنَفِضَ الْمُسْلِمُونَ وَجْهَهُمُ الْمَرَضَ ، فَكَتَبَ سَعْدٌ إِلَى عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فَكَتَبَ إِلَيْهِ :

« إن العرب لا يصلحها من البلدان إلا ما أصلح الشاةَ والبعيرَ ، فعليك بالريف ، ولا تجمل يدي وبين المسلمين بحراً »

فلما ورد كتابُ عمر دَلَّ (ابن بُقَيْيَةَ — رَجُلٌ مِنْ سِوَادِ الْعِرَاقِ) سعداً على موضع الكوفة وكان يقال له (سورستان) ، فلما اقرَّ سعدُ الرَّأْيَ على اختيار الموضع أسهم بين المسلمين ، فأسهم لتزارة وأهل اليمن سهمين ، فمن خرج سهمه اولاً فله الجانب الشرقي (وهو خيرها) فخرج سهمُ اهل اليمن اولاً فصارت خططهم في الجانب الشرقي من الكوفة

ومما ورد في صفتها وحسنتها ما يروى عن مالك بن دينار قال : كان علي رضي الله عنه إذا أشرف على الكوفة قال :

يَا حَبِيبًا مَقَالَنَا بِالْكُوفَةِ أَرْضٌ سَوَاءٌ سَهْلَةٌ مَعْرُوفَةٌ

تَعْرِفُهَا حَيْثَمَا نَالْنَا الْعِلْمُ وَفَوْفَةٌ

وما قاله محمد بن عمير العطاردي في مجلس عبد الملك بن مروان
«الكوفة سُمّات عن الشام ووبائها، وارتفعت عن البصرة وحرها، فهي مريثة مريثة .
إذا أتتا السماء ذهبت مسيرة شهر على مثل رضراض الكافور، وإذا هبت الجنوب جاءتا
ريح السواد^(١) وورده وياسينه وأنر نجه . ما لنا عذب وعيشنا خصب .»
فهي كما ترى ارض ذات طبيعة حميئة ، حبّبت الى كثير من المسلمين البقاء بها فأثروها على
غيرها ، حتى كانت الفتنة الكبرى بين عليّ ومعاوية رضي الله عنهما ، فأخذها امير المؤمنين
علي قاعدة امره ، واجتمع فيها اشياءه وغابوا عليها ، فن يومئذ والكوفة معقل من معاقل
الشيعة والعلوية والزيدية الى يوم الناس هذا . يقول السيد محسن الامين الحسيني العالمي صاحب
كتاب (اعيان الشيعة)^(٢) « ثم إن الكوفة ضعفت بعد انتقال الخلافة منها إلى بغداد ثم خربت .
واليوم فيها كثير من العمران ، وجميع أهلها شيعة »

اما امر تخطيطها وعمرانها في القرن الاول والثاني أو في القرن الرابع الذي عاش فيه
ابو الطيب ، فلا نكاد نجد بين ايدينا شيئاً مما روي يدنا عليه ويقفنا عنده إلا ما روي عن
بشر بن عبد الوهاب القرشي من أنه ذكر قدر الكوفة فكانت ستة عشر ميلاً وثلاثي ميل ،
وذكر أن فيها خمسين الف دار للعرب من ربيعة ومضر ، وأربعة وعشرين الف دار لسائر
العرب ، (وستة آلاف دار لليمن) ، وذلك في سنة ٣١٤ وما قبلها
وقد رمى الينا المتني طرفاً آخر من تخطيط الكوفة لهد صباه إذ يقول وهو بالشام فيما
مدح به (علي بن ابراهيم التنوخي)

أمنسي السكون وحضرموتاً • (ووالدي) وكيندة والسبيما
يقول الواحدي « هذه اما كن بالكوفة سميت بأسماء قبائل كانوا ينزلون هذه المحال .
ولا شك ان (محلة كندة) التي ولد بها صاحبنا ابو الطيب كانت خطة من خطط الكوفة زلها
في الصدر الاول من نزل من بطون كندة فسُميت بهم ، وان سائر الكوفة — او الجانب
الشرقي منها على التحقيق — كان مقسماً مخططاً الى احياء كثيرة غير هذه التي ذكرها ابو الطيب
في شعره . ولكن مما تعجب له ان بشر بن عبد الوهاب يقول أن دور اهل اليمن (جميعاً في كل
احياء الجانب الشرقي) بالكوفة كانت في سنة ٣١٤ وما قبلها وعدتها (ستة آلاف دار) ،
ويقول صاحب (إيضاح المشكل لشعر المتني) ابو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الاصفهاني
ان (ابن النجار) حدثه ببغداد :

(١) السواد الريف (٢) هو كتاب جليل طبع الجزء الاول منه بدمشق في الاشهر الماضية وسيم
ان شاء الله في اثني عشر جزءاً أو يزيد

« أن مولد المتنبى كان بالكوفة في محلة تعرف (بكندة) بها ثلاثة آلاف بيت من بين رَوَاهُ ونَسَاجِ » وذلك سنة ٣٠٣ ، فليت شعري أكان جيل أهل اليمن النازلين بالجانب الشرقي من الكوفة — وهو خيز جوانبها — ما بين سقاء ونساج . هذا عجب أن يكون ذلك كذلك ، إذا كان النساجون والسقاؤون وحدهم قد شغلوا من دور أهل اليمن بالكوفة ، ثم بمحلة كندة وحدها ، ثلاثة آلاف دار ، فكيف شغل من بقي من أهل اليمن من أصحاب الصناعات ومن لف لفهم من التجار وأصحاب الارضين ، ثم ما يبقى من حي أهل اليمن لرجال اليمن وأشرفها وفرسانها وعلماؤها وشعرائها وأدبائها وهم أكثر

فهذه المبالغة وجه من وجوه إسقاط قول (ابن النجار) هذا ، وسترى ان المتنبى قد مني في حياته وبعد موته بضروب من العداوات قد جعلت تاريخ الرجل مزلة لا تثبت عليها قدم ولا يهتدي فيها إلا بصير مثبت . ولو نظرت إلى أقوال الاصفهاني صاحب (إيضاح المشكل) وما رواه في مقدمة كتابه رأيت من كان يتحامل على ابي الطيب ، ويذكره بالسوء في كل قوله ، وما أتى له بمحمدة إلا واتبعها بمذمة بالغة قارصة ، وهو قد ألف كتابه هذا لاصفر ابناء (عضد الدولة) — الذي مدحه المتنبى ، وكان آخر من مدح — بهاء الدولة خاشاذ بن عضد الدولة ، وكان التحاسد واقفاً بين ابناء عضد الدولة حتى إن المتنبى حين ذكر اخويه (وهما اكبر من بهاء الدولة) في مدح ابيهما قال ودعا لها

فماشا عيشة القمرين بحياً بضوئهما ولا يتحاسدان

فكأنى بالمتنبى قد ادرك ذلك منهما ، وألم بطرف من تحاسدها ، وقد خابت دعوة صاحبنا فإن شرف الدولة شيرزيب بن عضد الدولة حارب اخاه صمصام الدولة وظفر به بعد حروب وحبسه . فلعل بهاء الدولة هذا كان ممن يحقد على المتنبى إذ لم يمدحه او يذكره في شعره (مع صغره إذ ذاك) ، فكتب الاصفهاني كتابه تقرباً وزلفى اليه . ومما يؤيد ذلك ان كتاب الاصفهاني في نقد كلام ابن جني ، وهو صاحب المتنبى ومريده ومن الضالعين معه . وسيأتي طرف من غرائب ما ذكره الاصفهاني في ثنانيا القول يؤيد رأينا في ان الرجل كان يلفق بالهوى الجائر ، وما كان يؤلف بالتاريخ ^(١)

(١) هذا طرف من القول ، وبقيت اطراف ترجع الى العداوة بين بني بويه وسيف الدولة ، وما جرت هذه من الخصومة بين أهل العصر ، والادباء خاصة ، وقد اشتدت المنافسة أخيراً بين بهاء الدولة وسيف الدولة وتورط الادباء فيها فسكتوا وألغوا يريدون بما الفوا التقرب الى واحد من الخصمين . وايضاً فان بويه كانوا يعرفون يقيناً أن المتنبى لم يكن خالص المدح لهم فقد شاب مدحه بالحسرة على لقاءهم في بعض قصائمه وما كان ذلك ليخفي عليهم . . . وهناك كثير من القول أغفلناه هنا ، وربما اتى بعضه عرضاً في آخر ما تكتبه من مدح المتنبى بني بويه ان شاء الله

والآن وقد فرغنا من القول عن محبة كندة التي ولد بها المتنبى ، وما وقع في أمرها من المبالغة نظير في نسب الرّجل ، لترى كيف بالغوا أيضاً في الإساءة إليه ، ومحقر مولده ، والخط من أصله ونشأته لاغراض خافية قد أحاطت بصاحبنا ، أضرت به في حياته وأفسدت تاريخه بعد وفاته . رأيت قبل في أول ما روينا لك من أقوال الرّواة أنهم أرادوا ان يثبتوا بما رووا ان الحسين والد المتنبى هو عبدان السّقا كان يستي الماء على بعير له بالكوفة . ورواوي القصة كلها هو علي بن الحسن التّوخي عن ابيه المحسن التّوخي ، ونحن نقدّم فنشكّ في رواية المحسن التّوخي لاسباب نذكر طرفاً منها هنا ثم يأتي بعد اسباب أخرى ثبت ما نقوله ان شاء الله القاضي ابو علي المحسن بن علي التّوخي ولد سنة ٣٢٧ وتقد القضاء سنة ٣٤٩ . فكان من اصحاب الوزير ابي محمد المهلبى ، وكان المتنبى حين دخل بغداد في طريقه إلى عضد الدولة بشيراز قد ترفع عن ان يمدح الوزير المهلبى ، فأغرى المهلبى به الشعراء وغيرهم كابى علي الحاتمى صاحب الرسالة العجبية المعروفة بالحامية ذكر فيها سرقات المتنبى ، وزعم انها قد وقعت كما قيدها بينه وبين المتنبى ، فلا عجب ان يكون المحسن التّوخي من اعداء ابي الطيب لصاته القرية بالوزير فقد بلغ به ان كان من ندمائه ، ولا عجب ايضاً ان يسند التّوخي روايته (او كذبه) إلى بعض شيوخه فيفتضح . ذلك انه زعم كما قدمنا لك ان القاضي ابن ام شيان حدثه فقال « كنت اعرف اباة بالكوفة شيخاً يقال له عبدان . . . الخ » والقاضي ابن ام شيان وإن لم نعلم تاريخ مولده فان في ما اثبتة البغدادي الخطيب من تاريخ وفاته مقمماً وغنى

فوالد المتنبى — كما ذهب اليه كثير من المحدثين ، وكما تبين لنا من بعض الوجوه — قد مات والمتنبى صغير ، فاذا تجاوزنا وقتنا وقلنا ان اباة مات وهو في الثانية والعشرين من سنه اي سنة ٣٢٥ او بعد ذلك بقليل فعجب ان يكون القاضي بن ام شيان كان قد رآه إذ يقتضي ذلك ان يكون القاضي قد عمّر وحطّم المائة فإنه قد مات سنة ٤٢٠ ، فلو انه رأى (عبدان السّقا) وهو ابن عشر سنين لآثفت سنه على المائة ، ولو كان ذلك كذلك لما فات البغدادي ان يشير اليه فقد يكون هذا القاضي من اعلى شيوخ عصره إسناداً ، وعلو الإسناد عند المتقدمين امر لا ينصرف عن تقيده ، كما ان المعمرين من الرجال مذكورون حتى إنهم ليذكرون الرجل في كتبهم ، وماله من فضل الأطول عمره . فانا مطمئن إلى ان هذه الكلمة موضوعة على لسان القاضي الفاضل الذي وصفه البغدادي فقال « كان صدوقاً »

هذا التّوخي يقول انه سأل المتنبى عن نسبه فما (اعترف له) به وكان إذ ذاك شاباً في السابعة والعشرين ، وكان المتنبى قد تيّف على (١) الحسين ، فما نظن ان القاضي كان يجرؤ ان

(١) لقيه التّوخي بالاهواز منصرفاً من فارس من عند عضد الدولة قبيل وفاته سنة ٣٥٤

يسأل المتنبى عن ذلك ، لبُعْد ما بينها ولتعالى المتنبى وترْفُعه حتى على الخفاء والوزراء ، وأيضاً لما يعلم من صلة القاضي بالوزير المهلبى وتحفته بخدمته (كما قال عن نفسه) فمن يترفع عن الوزير ابى محمد المهلبى وهو من هوأ في سياسة عصره ودساتره ، لا يتبدن مع صاحبنا القاضي التوخي- هذا ولئن كان قد سأل المتنبى حقاً كما يقول فما يكن جواب المتنبى عن ذلك هذا الكلام الملقق الضعيف الذي يَبْضَعُ من رأي صاحبه ويستفسد من عقله « انا رجل اطوي البوادي وحدي وأحيط القبائل » فلم يكن المتنبى ممن يطوي البوادي وحده اذ ذلك بعد ان سار اسمه سير الشمس ما بين مشرقها ومغربها . والمتنبى الذي لم يخف ان يخرج غير محروس يوم قُتِلَ وقد اوعده ، وأرصدوا له ومحقق هو ذلك لا يقول « ومتى انتسبت لآمن ان يأخذني بعض العرب بطائفة بينها وبين القبيلة التي انتسب اليها » وهل اذل من قوله « وما دمت غير منتسب الى احدى فانا اسلم على جميعهم ويخافون لساني » أهذا يقوله من اوعد الملوك وجاهرهم بالعداوة في عصر كانت تذهب فيه الارواح مع كلمات الوشاية والدسيس والمكر السيء ؟
كلاً يا ابا علي

وقد بالغ صاحبنا التوخي في روايته عن المتنبى حين سأله عن ابى الحسن محمد بن يحيى العلوي بما يدل على انه كان يريد ان يولد كلاماً ، فأطال فيما روى ليومئذ السامع بطول قوله ان المتنبى حراً كته الذكرى فأفاض فقال عن ابى الحسن العلوي « تربى ... وصديقي ... وجاري بالكوفة . . . وأطراه ووصفه » . ونسي التوخي انه قد وضع فيما وضع كلمة أفسدت عليه ما اراد وهي قوله « تربى » وترب الرجل ولِدته هو الذي ولد معه والمتنبى ولد سنة ٣٠٣ وأبو الحسن العلوي كما قدمنا ولد سنة ٣١٥ والرجل لا يقول للذي يئنه ويئنه ما يزيد على عشرة أعوام (تربى) فما ظنك بأبي الطيب

وأخرى فمن جهل هذا التوخي بأساليب الوضع المتقدمة — التي جرى عليها شيوخ الوضّاعين وأحكوا أمرها حتى خفيت على الحفصي البصير من العلماء والادباء — أنه جمع بين النقاظ في الكلام الواحد الذي يراد به إثبات ما لا يكون ، أو كَوْن ما لم يثبت ، فمن ذلك أنه روى أن أبا الرجل كان سقاءً يستقي على بعيره ثم حدث عن الرجل نفسه انه قال « متى انتسبت لم آمن أن يأخذني بعض العرب بطائفة بينها وبين القبيلة التي انتسب اليها » . وهذا أمر من الامر ، فإن العرب لذلك العهد كانت قد نسبت الترات القديمة ، وألقت بالسخائم المتوارثة وانصرفت إلى ما جد من الاحداث في دولتهم وفرّق شعابهم وجعل بأسهم بينهم تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، حتى لعبت بهم الاعاجم فخطمتهم الايام . فإذا كانت العرب قد نسبت ما قدم أو ذكرته قليلاً قليلاً فما خوف المتنبى مما لا يخاف منه ؟ وما خوفه وهو آمن في المدن بين

الكوفة وحلب وانطاكية ودمشق والفسطاط؟ أو كان المتنبى وحده من أهل عصره هو الذي يخشى ذلك؟ ألم يكن في عصره مناهة ممن يطوي البوادي وحده؟ كلا، وإن رجلاً قد سقطت بآبائه السواقط إلى السقاة وغيرها من حقيرة المهن لا تبتنى عنده طائفة، وإن بُغيت فما يكون لمدرکہا عنده نخر. (و ابن السقاء هذا) ما عرض في شعره كداه إلى قبيلة فهجاها أو عرض بها أو لمزها بشيء، حتى يخشى ظهور كيد يكاد به، ولئن فعل لقالوا له كما قال الاول

وكن كيف شئت، وقل ما تشاء، وأرعذ يمينا وأرق شمالا
نجبا بك عرضك منجى الذبا ب حسته مقاذرة أن ينالا

وما عرض كعرض سقاء وابن سقاء ينجو به ناج من طالب ناره أو مدرك ترة

وهلا أدرك هذا المترفع المتعالي على الملوك والأمراء — عنيت المتنبى — بنسبه رجلاً

آخر غير هذا السقاء — الذي هو أبوه — فوقف عليه بنسبته!! ما كان يضير هذا الرجل —

لو انه كان قد سئل عن نسبه كما يوم التوخي — أن يرتفع بنسبه شيئاً إلى رجل من الناس

معلوم غير منكور ولا محقر؟! إن الرواة قد اختلفوا — كما رأيت في صدر مقالنا — في اسم

جده (أبي آيه) ولم يجمعوا على شيء، واخطأ بعضهم في اسم آيه فسماه (محمدًا)، واقتصر

جل شرح ديوانه من الاوائل، ثم اكثر النسخ المخطوطة — على اسم آيه وحسب ولم

يزيدوا، فهذا دليل على أن الكتمان إنما كان كتماناً للنسبة كلها لا كتماناً إلى قبيلة بينها يخشى

من الانتساب إليها أن يباحق من جرائمها أذى في ترة او مكروهاً في ضغينة قديمة أو محدثة،

وأى ناره يكون للعرب والقبائل عند من كان سقاء بالكوفة!

ثم إن التوخي يروي هذا الخبر، ويروي أيضاً أنه كان جعفيًا صحيح النسب. وما تصح

نسبة سقاء إلى جعفي بن سعد العشيرة إلا أن يذكر نسبه متصلًا إلى جعفي، لان سقاء يدعي

الانتساب إلى جعفي لا بد له من أن يقيم دعواه بالدليل والبرهان: وهما النسب المتصل المعروف

غير المنكر، ما من ذلك بُد، ولو كان ذلك، لوقع الينا نص واحدٌ يذكر فيه نسب المتنبى

إلى رجل من جعفي لا يختلف في أمر نسبه. فما ظنك من اختلف في جده الادنى والذي بمدته

ولم يتجاوزوا ذلك إلى متفق عليه من عمود النسب؟

أو لم يكن الذي حفز التوخي أن يسأل المتنبى عن نسبه فأخفاه عنه، ليحفره أن يسأل

ابن أم شيبان الهاشمي، أو أبا الحسن العلوي، كيف صحت نسبة الرجل إلى جعفي، وخاصة

بعد أن ججده المتنبى وكم عنه ما عرفه غيره؟ ولو كان فعل، لكان نسب الرجل مشهوراً عندنا

كما صارت مهنة آيه مشهورة منقولة

وبعد، ألم يكن بين العرب جميعاً من يعرف ان الرجل جعفي القبيلة غير (ابن أم شيبان

الهاشمي) و (أبي الحسن العلوي) و (أبي علي التوخي)؟ أو قد حرصوا ثلاثهم على أن لا يذيع نسب الرجل إلى جعفي؟ ولو كان ذلك. فما الذي حملهم على هذا الحرص؟ والتوخي نفسه لم يكن يعرف سبب حرص المتبي على كتمان نسبه إلا في السنة التي مات فيها (سنة ٣٥٤) !
 كانوا ثلاثهم لا يأمنون (أن يأخذ المتبي بمعض العرب بطائفة بينها وبين القبيلة التي ينتسب إليها)؟
 وكذلك شهد الرجل (التوخي) على نفسه في حديثه بالتخليط أو الوضع

ولا يفوتك أن المتبي في أول أمره كان بأنطاكية واللاذقية وكان التوخيون ينزلونهما من قديم، وقد نبتت بين صاحبنا وبين رجل من توخ هناك نابتة من المودة ثم نمت وربت واهترت فمدحهم ورتاعهم ودفع عنهم ورمى دونهم وأقام طويلاً بينهم مكرماً، وقد كان بين أصحاب أبي الطيب من التوخين وأبناء أعمامهم عداوة، فلما مات محمد بن اسحق التوخي وورثاه المتبي جرى في انطاكية الخبر بأن أبناء عمه قد شتموا بموته فلجأ هؤلاء الشامتون إلى أبي الطيب يسألونه أن ينفي الشتمة عنهم فكان مما قال في ذلك

(أبناء عمي) كل ذنب لأمريء إلا (السماية) بينهم مغمور
 طار الوشاة على سناء وداهم وكذا الذباب على الطعام يطير
 ثم عادوا فسألوه أن يزيد فكان مما قاله على لسانهم
 رثي ابن أينا غير ذي رحيم له فباعنا عنه ونحن الأقارب
 وعرض أنا شامتون بموته وإلا فزارت عارضيه القواضب
 (أليس عجيباً أن بين بني أبي لنجل - يهودي - تدب العقارب)

وهذه العداوة التي كانت بين التوخين مما يحجزنا عن الثقة بأقوال أحد من توخ (كأبي علي التوخي) ممن يذكر من أمر أبي الطيب شيئاً، وعلينا أن لا نطمئن إلى قوله حتى تقطعنا الحجة بأنه كان ممن لا يميلون إلى هوى، ولا يصغون أفئدتهم إلى بغضة، فما ظنك بأبي علي التوخي وهو قد اجتمعت الدلائل — كما رأيت — على وهن روايته، واختلاط حديثه، وبيان هواه

وليس عجيباً أن يكون التوخي ممن يحمل لأبي الطيب في صدره شحناً لصلته المعروفة بأبناء عمومه، فتحمله هذه الشحنا على وصف الرجل بكل نقيصة أو النيل منه بكل سبيل. واعلم أن علياً التوخي (والد المحسن هذا) كان ممن وُلد بأنطاكية وشب بها ثم رحل عنها، فلعله رحل عن انطاكية لحدث وقع بين أهله وبين أقاربهم، وبقيت في صدره وصدرا بنائه حزازات موروثه وأحقاد لبني عمه هناك، ولا عجب، فقد كانت هذه الفترة من العصر العباسي من رجلاً يغلي بالأحقاد بين الأخوة وبني الأعمام حتى قتل الرجل منهم أباه وعمه وأخاه، وهتك

عرضه ، واستباح حرماته ، وخاصة من رقي درجات الامارة ، أو أدرك سبياً من السلطان كأصحابنا التوخيي ، (وهم نسل ملوك توخ الاقدمين)
 هذا ، ولو سلمنا للتوخي رحمة الله بصحة روايته عن أبي الحسن العلوي ، وان الذي قاله عن المتني هو من لفظ أبي الحسن جملة ليس بموضوع ولا مبتدع من عند نفسه — فنحن في أقوال العلويين المعاصرين عن أبي الطيب سبباً للتوقف دون التسليم لهم هكذا ، لا يجادل^(١) ...
 ففي ديوان أبي الطيب معنى من المعاني ، وإخاله سراً من الاسرار ، لعله أن يكون يوماً مفتاحاً تنسى له الابواب المغلقة في نسب الرجل ، ومعرفة أصله الذي يصله بنسب غير مجهول ولا موضوع ، فليتنا أن نستوفي هنا بعض الرأي الذي نذهب اليه ونقيده على مكثراً
 نشأ صاحبنا بالكوفة ، وهي إذ ذاك دار العلويين ، ومقل الاثمة منهم والتابيين من رجالهم وشجعانهم ، فكان حقيقاً بمثلهم ينال بالشعر ويؤمل منه أن يمدح من تُرجى عنده الفواضل من كبار العلويين وأجوادهم ، وهم أهل بلده الذين في ظاههم نشأ ، وبين ربوعهم نما ، ومن علومهم^(٢) سهل واغترف ، واستقى وأفاض (على الناس من غيرهم) مما استقى وما اغترف
 فعجباً لابي الطيب ، أما عجب ، أن لا يكون مدح من العلويين إلا رجاين ما امتدَّ به العمر وقد يتن أبو الطيب في إحدى قصيدته ، وينت الرواية في الاخرى سبب ذلك المدح...
 قال العكبري : وكان محمد بن عبيد الله — العلوي المعروف بالمشطَب — هذا الممدوح قد واقع قوماً من العرب بظاهر الكوفة ، وهو شابٌ دون العشرين سنة فقتل منهم جماعة ، وجرح في وجهه فكسته الضربة حسناً فهذا ما سمعته من جماعة من مشيخة بلدنا

فدحه المتني بقصيدته^(٣) التي أولها

أهلاً بدار سبائك أعيدُها أبعدُ ما بان عنك خردُها

فذكر فيها أن ناقته حملته الى (ابن عبيد الله) هذا الممدوح

(١) وقبل فلا تنس — ما كتبنا لك — أنت العصر الذي كان أبو الطيب أحد رجاله ، كان من بين العصور العربية عصر أخيب النفس ، فاسد الطوية ، قد طفت فيه الدسائس ولعبت به الالهواء واستحرت الاحقاد بين الرجل وأخيه ، والوالد وبنيه ، والوحيد وعشيرته التي تؤوبه ، وفصل هذا المعنى ، وخذ به واعرضه في اثناء كلامنا فما في كل موضع يمكن الاشارة ، ولا عند كل مفرق من القول يجب التعليق والتفصيل ، وما يفوز القارئ حين يفوز الا بما يغطن اليه مما يغفل عنه غيره ويتجاوزوه سواء

(٢) اعلم كما ستري بعد ان المتني أهل في كتاب للعلويين

(٣) الرأي عندنا أن المتني قل هذه القصيدة بعد مرجعه الى الكوفة من مقامه بالبادية سنة او اقل وقبل خروجه الى بادية كنب واللاذنية حيث سجن في دعوى الزور — كما بزعمون ، وقد كانت سنة حين قلها على الارجح عندنا خمس عشرة سنة أي سنة ٣١٨ هـ واعلم اننا انما نجهد في تأريخ ما لم يؤرخ من تصانيد المتني — وقد وجدنا في ذلك المشقة وما فوتها — لترجم للرجل على بيته وهدي وسجد فائدة ذلك في كثير مما يمر بك ان شاء الله

إلى فتى يُصدرُ الرماحَ وقد أنهاها في القلوب مُوردها
لهُ أبادِرُ إليَّ (سالفةً) أعدُّ منها ولا أعدُّها

ثم طفق بمدحه إلى أن قال

وكم وكم نعمةً مجلِّسةً ربَّيتها كان منك مولدها
وكم وكم حاجةً سمحت بها أقرب مني إليَّ موعدها
ومكرُ مات مشت على قدم السبرِّ إلى منزلي تردُّها
أقرَّ جلدي بها عليَّ فلا أقدرُ حتى المات أجدها
فعدُّ بها لا عدمتها أبداً خيرُ صلوات الكرم أعودها

والمتنبي كما ستعلم بعد كان — أول أمره وهو صبي — «يختلف إلى كُتَّاب فيه أولاد أشرف

الكوفة» من العلويين فكان (محمد بن عبيد الله العلوي) هذا كان من ولدات أبي الطيب أو أسنانه^(١) الذين كانوا معه في المكتب، وأخذت بيدها المودةَ ثم، ولعله كان يُفضل على المتنبي ويتعمدهُ ويكرمه فلذلك قال «لهُ أبادِرُ إليَّ سالفةً». فأكدت هذه المودة القديمة سبب المدح حين عاد من رحلته في البادية يتسقطُ اللغنةُ وينتجع الرزق. وأرجح الظن أن المتنبي حين عاد إلى الكوفة، عاد إليه صاحبه العلوي بالافضال والتمهد، فلما أصيب بالجراحة في حربه مدحه المتنبي لصداقته ومودته، ولما أسدى إليه من معروف، وما أخذ عنده من صنائع

أما آخر الرجاين العلويين ممن مدح، فهو أبو القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوي لم

مدحه المتنبي ابتداءً، كما مدح غيره. وفي ما تزويه لك من خبره عجب

كان الأمير أبو محمد الحسن بن عبيد الله طفج وهو بالرملة لم يزل يرسل أبا الطيب وهو بطبرية سنة ٣٣٦، ويعزم عليه في القدوم عليه فلما كثر ذلك منه أجابه ومدحه وأقام عنده مُدبَّنةً، فلم يزل أبو محمد (الحسن بن عبيد الله بن طفج) — يسألُ أبا الطيب أن يخصَّ أبا القاسم (طاهراً) العلوي بقصيدة من شعره (وأنه قد اشتهى ذلك) !! وأبو الطيب يقول: «ما قصدتُ إلا الأمير (ولا امدح سواه) !!» فقال له أبو محمد: «عزمت عليك أن أسألك

قصيدة تظنُّها فيَّ فأجملها فيه» (تأمل هذا) وضمن له عنده مئآت من الدنانير، فأجاب

قال محمد بن القاسم الصوفي: «فسرتُ أنا والمطايي برسالة طاهر إلى أبي الطيب، فركب معنا حتى دخلنا عليه، وعنده جماعة من الأشراف، فلما أقبل أبو الطيب نزل طاهر عن سريره، والتقاء مسلماً عليه، ثم أخذ يده فأجلسه في المرتبة التي كان فيها، وجلس هو بين يديه. فتحدت معه طويلاً ثم انشده أبو الطيب نفاخاً عليه للوقت خِماماً نقيسةً»

(١) يقول فلان سن فلان أي مثله في سنه والجمع أسنان

قال علي بن السام الكاتب : « كنت حاضراً هذا المجلس ، فأرأيتُ ولا سمحتُ ان شاعراً
جالس المدوح بين يديه مستمعاً لمديحه غير ابني الطيب ، فاني رأيت هذا الأمير قد اجلسه في
مجلسه ، وجلس بين يديه ، فأنشده

اعيدوا صباحي فم، عند الكواعبِ وردُّ وارقادي فم ولحظ الجائب^(١)
وفي هذه القصيدة التي يمدح بها رجلاً علويًا سامي القدر يقولُ

« كثيرُ حياة المرء - مثل قليلها - يزول ، وباقى عمره مثل ذاهبِ
اليك ، .. فاني لستُ ممن إذا أتقِ عِضاضِ الافاعي نامَ فوق العقاربِ
اتاني وعيدُ (الادعاء) وانهم اعدوا لي السودان في كفر عاقبِ
ولو صدقوا في جدِّهم لحذرتهم فهل فيَّ وحدي قولهم غير كاذبِ
اليِّ لعمرى قصد كلِّ عجيبةٍ كاني عجيبٌ في عيون العجائبِ
بأي بلادٍ لم اجرَّ ذوابتي ؟ ! وأيُّ مكانٍ لم تطأه ركائبي ؟ !

ونفسُ الرجلُ في القصيدة يدلُّ على انه كان قد لتي كيداً في سنته تلك من هؤلاء القومِ
الادعاء (وهم الذين يدعون الشرف بنسبتهم الى علي رضي الله عنه) . وبين مما ورد في شعر
ابي الطيب انه حين ازمع الرحيل من طبرية سنة ٣٣٦ ارصد له هؤلاء العلويون (الادعاء) قوماً
من السودان عبيدهم في طريقه بكفر عاقب^(٢) ليقتلوه فلم يظفروا بما أمَّلوا ، واحفظ ذلك أبا
الطيب ، فلما دخل الرملة كان - على عادته كما سترى ذلك - ثائراً لا يفتأ يذكر ، ما يختلج
في ضميره لا براعي ولا بحاجي ولا بهيب ، ومن آثار هذه الحفيظة قوله في هذه القصيدة أيضاً
« إذا (عاصوي) لم يكن مثل طاهرٍ فما هو إلا حُجَّةٌ للنواصبِ »^(٣)

ثم أجرى هذا الامر مجرى المثل كعادته فقال

إذا لم تكن نفس النسيب كأصله فماذا الذي تُغني كرام المناصب !!
وما قربت أشباه قوم أباعد ولا بعدت أشباه قوم أقارب

والبيت الاخير هو حجته في نفي العلوية عنهم وإثبات أنهم ادعاء لا يتمون إلى الشرف بسبب

(١) لا بد لنا هنا من التنبيه الى خطأ بليغ وقع فيه أحد كبار ادبائنا في كتابه عن المتنبي اذ زعم ان المتنبي
قال هاتين القصيدتين (في ابن طنج والعلوي) بعد فراق سيف الدولة وتدل اتصاله بكافور ، والصحيح
انما تلتا سنة ٣٣٦ وهو بالرملة ومن ثم في تلك السنة رحل الى انطاكية قصداً أبا العشائر الحمداني الذي وصل
اسبابه بسيف الدولة سنة ٣٣٧ وسترى ذلك في موضعه من مقالنا . هذا على ان أسلوب الرجل في هاتين
القصيدتين ونفسه في الشعر ، غيره فيما قاله بعد فراقه لسيف الدولة ، وذلك بين لمن تدبر ادنى تدبر

(٢) كفر عاقب : قرية على بحيرة طبرية من أعمال الأردن

(٣) النواصب هم الخوارج الذين نصبوا العداوة لأمير المؤمنين علي كرم الله وجهه واحدهم ناصي

ولاصلة . فلو كانوا علويين — لاجرم — لتشابهت الاخلاق في الكرم والسمو ، وكانوا كهذا العلوي الذي يمدحه (طاهر بن الحسين)

ليس هذا فحسب ، فإن أبا الطيب يقول للأمير أبي محمد ابن طنج في مديحه
 كريمٌ نفضتُ الناسَ لَمَّا بَلَغَهُ كأنهمُ ما جفَّ من زادِ قادمِـ
 وكاد سروري لا يفي بندا، سمي على تركيه في عمري المتقادمِـ
 وفارقتُ شرَّ الارضِ أهلاً وتربةً بها (عاصوي) جدُّه غير هاشمِـ
 (وشرُّ الارضِ) هي طبرية التي كان بها قبل مقدمه إلى الرملة

أو ما ترى بعد ان في تجنب المتني مدح العلويين ورجاهم وأثمتهم في اول امره وهو بالكوفة، إلا واحداً كان رفيق صباه وأحد اسنانه، ومن خير المفضلين عليه والمتعديبه في محنته وفقره — ثم في طلب الامير منه ان يمدح طاهراً العلوي فيمتنع ويستصفي عليه حتى يكسر عليه الامير ويقول «أنا اشتهي ذلك» فيقول أبو الطيب «ما قصدت إلا الامير ولا أمدح سواه» فلا يزال به يحثال عليه حتى يستخرج من وعده — ثم في اكرام العلوي له هذا الاكرام البالغ بنزوله له وإجلاسه في مرتبه وعلى سريره، ولا يتورع المتني إذ ذاك ان يذكر بعض العلويين بالمذمة والتعريض وتفي النسبة الكريمة عنهم — ألا ترى ان هناك سراً من الحفيظة ينسبُ وبين العلويين الذين نشأ بينهم وفي ديارهم، ودرس في مكنبهم، بين أولادهم | هذا وسيأتي طرف من ذلك ^(١) بعد، فترى ان أبا الطيب حين خرج في اول أمره باللاذقية كان الذي عذبه وسجنه رجلاً هاشميّ علويّ هو (ابن عليّ الهاشمي) وكان بكرتكين فحبل في عنق صاحبا ورجليه خشبتين من الصفصاف فقال له

زعم المقيم بكرتكين بأنه من آل هاشم بن عبد مناف
 فأجبت: مذ صرت من ابنائهم صارت قيودهم من الصفصاف
 بسخر منه، ومما أخذه به!

أفلو شككنا — من اجل هذا — في صحة ما يقوله العلويون عن أبي الطيب، وتوقفنا دون الاخذ بأقوالهم في ترجمة الرجل — نكون قد اتينا امرأ كبيراً لا يقرئنا احد عليه؟ لا ادري رأيت قبل ان الذي قال ان والد المتني هو عبدان السقا — اما هو أبو علي الحسن التوخي وهو من شيوخ العراق واصحاب الوزير المهلب فزد على هذا ايضاً ان المتني حين دخل العراق بمد فراق كافور، أعرض عن المهلب، ولم يمدحه، ولم يبال به فأغرى به الشعراء وغيرهم من الكتاب والادباء . وكان شعراء العراق خاصة يخافون أن ينال ابو الطيب في العراق ما نال

(١) سيأتيك في خبر نبوته أيضاً بعد انهم زعموا ان أبا الطيب ادعى أنه علوي حسني ثم ادعى النبوة ثم عاد يدعي أنه علوي وسترى بطلان ذلك ان شاء الله وتأويله عندنا على الرأي والنظر لا الرواية

في الشام فيذهب بأرزاقهم من المدح ، ويصف بذكرهم عند الملوك والامراء كما فعل بن هم أعلى منهم طبقة من شعراء الشام كابي فراس الحمداني ، والسري والرفاء ، وابي العباس الناهي ، وابي الفرج البتفاء وخلق كثير من الشعراء . وقد هجم على ابي الطيب ووقع في عرضه شعراء العراق حين اغراهم الوزير المهدي به حتى قالوا فيه

أي فضل لشاعر يطالب الفضل من الناس بكرة وعشياً
عاش حيناً يبيع بالكوفة الماءً وحيناً يبيع ماء الحجاً

فزعوا انه هو هو الذي كان سقاء لا أباه ، وهاج هذا القول الحسن بن لنكك شاعر البصرة وكان كما كان الخالديان (حاسداً له طاعناً عليه هاجياً إيتاه ، زاعماً ان أباه كان يسقي الماء بالكوفة) فقال ابن لنكك شتمته حين رأى وقية شعراء بغداد في الرجل

قولوا لاهل زمان لا خلاق لهم ضلوا عن الرشيد من جهل به وعموا
اعطيت المتنبي فوق منته فزوجوه برغم امهاتكم
لكن (بغداد) جاد الفيت ساكها نعلم في قفا السقاء تردحم
وقال ايضاً

« متنبيكم ابن سقاء كوفاني

ونضح — بعد ذلك — إننا ابن لنكك بما فيه

فذكر المتنبي بالسوء وزعمهم بأن أباه كان سقاء من (مصنوعات) العراق وتجارته التي كان المهدي (وزيراً) لها إذ ذاك على ما ترجح ، فكم اتجر صاحبنا المهدي بالا كاذب في أيام وزار كما روت التواريخ عنه وعن أيام اصحابه . والآ فكيف (يصح في الاذهان) ان يقف ابن السقة هذا المتنبي كما زعموا في كل المواطن موقف المتعالي المتكبر الذي لا يرى احداً فوقه ولا احده مثه حتى سيف الدولة ابن حمدان ولي نعمته ، وصاحبه ، ومكرمه على حين مساءة من الزمن يا عجيباً !! ألم يكن في مجلس سيف الدولة من يعرف ذلك يوم غضب عليه ، وترك الشعراء يقعون فيه ، ويتصدى له ابو فراس وهو ينشد فيجبهه ويقطعه عن الانشاد . يقول المتنبي في هذا المجلد

سيعلم الجمع ممن ضم مجاسنا بأنني خير من تسعى به قدم
أنا الذي نظرا لاعمى الى ادبي وأسمعت كلاني من به صم

فانظر كيف فضل نفسه على من ضم مجلس سيف الدولة وفيهم سيف الدولة نفسه ، يزد ابو فراس — وهو قريع المتنبي في الشمر وعدوه لمنزله عند سيف الدولة — على ان له فيما قال : « ومن انت يادعي كندة » !! وفي قوله « دعي كندة » نظر . فما نظن الرادعي لكندة واصحابنا يزعمون انه كان يخفى نسبه ، وكان اولى بأبي فراس ، وواقع في الم

وأوضح له في تيمه وتماليه على الامراء والملوك وكبار الشعراء كاب فراس نفسه - ان يقول له إذ ذاك «من أنت يا ابن سقاء كوفاني» .. لو انه كان علم ما علمه (التوخّي واصحابه وشعراء العراق وشاعر البصرة الحسن بن لنكث) الذين كانوا بالعراق على صلة (ببلاط) الوزير المهدي وزير معز الدولة احمد بن بويه (الديلمي) عدو بني حمدان وفي رأسهم سيف الدولة (السدوي العربي) أتى شعراء الشام الذين ذهب برزقهم وذكورهم ، ولم يمتنعهم من ذمته لهم في شعره ، كانوا لا يتقصون خبر الرجل وقد استفحل أمره بينهم فيملون انه كان (ابن سقاء) فيمزونه بذلك ويستخفون به ، او يعثون به ويتنادرون عليه ؟! وهذا ابن السقاء يتحداهم ويتحدى سيف الدولة نفسه ، وأبو فراس قريمه وعدوه في المجلس إذ يقول

كَمْ تَطَابَعُونَ لَنَا عِيًّا فِيمَجْزِكُمْ وَيَكْرَهُ اللَّهُ مَا تَأْتُونَ وَالكَرَمُ
مَا أَبَدَ الْعَيْبَ وَالنَّقْصَانَ مِنْ شَرَفِي أَنَا الثَّرِيًّا، وَذَانِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ
أَتَمُّهُمْ لِيَطْلُبُونَ لَهُ عِيًّا فِيمَجْزِمُ الطَّلِبَ وَيَكُونُ مَتَالِمًا فِي الْعِرَاقِ بَعْدُ أَنْ الرَّجُلُ ابْنُ سِقَاءٍ
كَانَ يَسْقِي النَّاسَ عَلَى بَعِيرٍ لَهُ بِالْكُوفَةِ !!

أقرأ ديوان الرجل كله ، مجده تياها يتسامى بنفسه على كل مدوح ، ويتعالى على كل أهل عصره ، ولا يفتأ يوسع الشعراء من سخريته وهو قد قطع أرزاقهم ، وألوى بهم وذكورهم ، وكلامه كلام الواثق الذي لا يدخله الشك ، ولا يروعه الكذب ، ولا يردّه الافتراء ، فلو كان في نسب الرجل (اذا ذلك) مطمئن لطاعن ، او في أصله نعمة لمتهم لتردد في قوله تردد الحيران ولاجنب الفخر حيث يكثر الحسد والمهمة والتافيق والدس عند الامراء ومن اليهم من رجال الدولة . ولو كان في نسب الرجل شيء ، لسمعت عن كل موضع من نخره في شعره نادرة يتأقها الادباء وغمزة قد غمزه بها انداده وأعداؤه من الشعراء . لم يسمع هؤلاء إلى قوله في نخره لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسى فخرت لا بمجدودي وبهم نخر كل من نطق الضاد وعوذ الجاني وغوث الطريد فهذا من اكبر الفخر فما من قوم يفخر بهم (كل من نطق الضاد) غير أبناء علي رضي الله عنه وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقول يرني جدته وقد ماتت بالكوفة ، وكان صاحبنا إذ ذاك قريبا من الكوفة حيث نشأ وعرف

«وإني لمن قوم كان تقوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظما»

والعجب أن لا يصلنا عن هذا وغيره خبر واحد يطعن فيه الرجل بأنه ابن سقاء وما يكون لابن سقاء أن يقول مثل هذا ، ويكون كل ما وصانا من خبر آية وإنما وصل في خبر دخوله بغداد في آخر عمره ، ومن رجال بينهم وبين الوزير المهدي أصرة مودقة وتادام ، أو شعراء أسداهم هذا الوزير المهدي وأغرامهم بالرجل ، حتى وقعوا في عرضه ، وولفوا في شرف نسبه ، وجودة قريضه ويانه

قَوًّا أَسْفَا أَلَا أَكِبًّا مَقْبَلًا
لرأسِكِ والصدرَ اللذَّاءَ مُلِثًا حَزَمًا
وَأَلَا أَلَا قِي رُوْحَكِ الطَّيِّبِ الَّذِي
كَأَنَّ ذِكْرَ الْمَسْكَ كَانَ لَهُ جِسْمًا
وَلَوْ لَمْ تَكُونِي بِنْتُ أَكْرَمٍ وَالِدِي
لَكَانَ أَبَاكَ الضَّخْمَ كَوْنُكَ لِي أُمًّا

هما ، ولا غيرها ، . . . ابوه الذي كان سقاء — زعموا — يسقي على بعير له بالكوفة ، وكان جفياً صحيح النسب . . . وجدته ، وكانت همدانية صحيحة النسب (لا يُشكُّ فيها) ، وكانت من صلحاء النساء الكوفيات . هما ولا غيرها . . . ، أصله وفرعه ، وقدمه وحديثه ، وعشيرته وأهله ، وعصبته وقومه ، والقائمون بأمره في أول حداته لا عم ولا خال !!
أما أمه فقد جهدت أن اجدها خيراً واحداً ، أو ذكراً في كلام ، فما وصلت ، أما ما يزعم بعض الكتاب والادباء من أنه أراد أمه بقوله وهو في السجن وقد كتب به إلى الوالي يدي أيها الأمير الأريب لا شيء إلا لاني غريب
او (لام) — لها اذا ذكرتني — دم قلب بدمع عين يذوب
فليس عندنا بشيء فانه كان يسمي جدته (امه) وقد جاء ذلك في قصيدته التي رثاها بها فقال
ولو لم تكوني بنت اكرم والدي لكان اباك الضخم كوزك لي (أمًا)
ومن قرأ قصيدته هذه وتدبرها وقع في قلبه اليقين أنه لم تعطفه عاطفة إلى احد من اهله (ولا نستثنى اباها السقاء !!) إلا أن تكون هذه الجدة الكريمة التي حملته صغيراً وثكلته شاباً بفراقه لها ، ثم ماتت به سروراً حين جاءها كتابه وهو متوجه إلى العراق (ولم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك !!) او كما قالوا . . . وفي قصيدته هذه اشارة دقيقة بايغة مقدرة ، يشير بها إلى ان امه قد ماتت وهو صغير فكفاته جدته المعجوز رحما الله وذلك في قوله
« طابت لها حظاً ففانت وفاتي (وقدرضيتني- لورضيت بها- قسا^(١))

(١) اقدم بالكسر انصب ، وقد في التراجيح من اصحابنا ولم يغرروا في قوله (لورضيت) فعلاز (لو) في هذا البيت انما تعيد الالف والحذرة وما وجد من وجوه التثنية ولايت موضع آخر من مقالنا هذا تتولى فيه شرحه . فقد افسده التراجيح

فقد بر الشطر الاخير فضل تدبر تجد المعنى الذي اردناه من ان امه ماتت وهو صغير فكان
 مما (فوسيم) لجدته ان محضنه فرضيت بذلك رضى خالصاً وأجته حباً عظيماً يقول في الدلالة عليه
 « لك الله من مفجوعة (بحبيها قتيلاً شوق غير ملحقها وصا)

وفي تسميته جدته (أمّا) بعض الغنى في الحجة المرجحة لقولنا هذا
 شهد التنوخي او ابو الحسن العلوي — او من تشاء — لجدّة المتنبى أنها كانت من « صلحاء
 النساء الكوفيات » ولعلّ هذا امرٌ لا ريب فيه — وان لم يكن قد وقع لنا الخبر بذلك — فإنها هي
 التي تولت تنشئة المتنبى من صغره — ولقد تعلم وقد شهد له اكثر اهل عصره حتى أعداؤه —
 انه كان كما قال علي بن حمزة البصري (راوية المتنبى — كما ساء اهل المغرب)^(١)

« بلوت من أبي الطيب ثلاث ثلاث محمودة ، وتلك أنه ما كذب ولا زنى ولا لاط » وقال
 ابن فورجه « لم يكن فيه ما يشينه ويسقطه الا بخله وشرهه على المال »

وقد كان أثر جدته ينعاً في اول شعره كما سترى ، وقد ذكر المتنبى خلقه في ايات له
 منها قوله : وترى المروّة والفتوة والابوة في كل ما يحترضها
 هنّ الثلاث الماناني لدني في خلوني لا الخوف من تبعاتها

فلا شك أن أكثر ذلك من أثر جدته ، وزكاة نفسها ، وصلاح قلبها . وقد وصفها المتنبى
 فجمع ما شاء ودل عليها ، وأبانغ ، صادقاً فيما قال

فواأسفاً إلا أكبّ مقبلاً لرأسك والصدر اللذا مثلًا حزماً
 وألا ألقى روحك الطيب الذي كأن ذكي المسك كان له حياً

ويبدو لنا ان هذه العجوز الحازمة التي بينت للمتنبى أمره ومهدت له طريقه ، كانت مع
 حزنها وهدايا وبصيرتها ، رقيقة القلب تكاد تتخلع من نفسها اذا أعطت عواطفها قيادها ومع
 ذلك فقد كانت تحزم أمرها وتقسو على نفسها حتى يخيل لمن لم يخبرها أنها لا تعطي المقادة
 شيء الا للامقل والتدبير المحكم ، وفي الذي رووا من خبر وفاتها دليل بين على ذلك فإنها
 كتبت تشكو الى ولدها وحفيدها شوقها ولوعها وطول غيبته عنها فلما توجه الى العراق (من
 الشام) « ولم يمكنه دخول الكوفة على حاله تلك !! » انحدر الى بغداد وكتب اليها كتاباً يسألها
 موافاته ببغداد فلما أخذت كتابه (قبّلته وحمّت لوقتها وغلبها الفرح فقتلها) رحمة الله عليها .
 وقد ورث المتنبى عنها هذا فقد كان منع ما يبدو من شدته وصولته ورجولته ، مهالكاً لا يستسك
 فيما عس عاطفته ويلمّ بقلبه ، وفي رثاء جدته بلاغ لك ان تدبرته ، وسترى ذلك ايضاً في آخر
 ما نكتبه عن أمره مع سيف الدولة ، وعن أمره مع النساء او مع المرأة التي أحبها فهلكت وأهلكته

(١) كان من أئمة العربية ، مات في رمضان سنة ٣٧٥ بصلية ، ولما دخل المتنبى بغداد كان بها علي بن
 حمزة فنزل المتنبى في داره ، وقرأ عليه شعره ، وقد تركنا بقية قوله في المتنبى لموضعه من المقال ان شاء الله

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي
وبنفسى نخرت لا بمجدودي ...
وبهم نخر كل من نطق الضا
دَ وعودُ الجاني ، وغوثُ الطريد

ولإني لمن قوم كأن نفوسهم
بها اتف أن تسكن اللحم والمظنا

ندع الآن امر جدته الى حينه — ان شاء الله — في كتابنا عن المتنبي ، ونبدأ برأي لم
نجد له ما يؤيده من نصوص التاريخ ، ولكن
روى الاصفهاني ان المتنبي ، وهو ابن السقاء !! ، « اختاف الى كتاب فيه اولاد اشرف
الكوفة ، فكان يتعلم دروس (العلوية) ^(١) شعراً ولغةً واعراباً ، فنشأ في خير حاضرة »
وتأويل هذا ، ان العلويين — وهم (الاشراف) — كما يتضح من هذا النص كانت لهم
مكاتب خاصة يتلقى فيها اولادهم مبادئ العلوم ، ولاشك ان العلويين كانت — ولا يزال —
لهم مدارس خاصة بهم تقوم اصولها في التعليم على اصل اعتقادهم ، وقد مرّ بي في قراءتي كثير
من ذلك لا اذكر موضعه الآن وانما اذكر ان الشريف الرضي كانت له مدرسة سماها (دارالعلم) .
وحسن وإن لم نك نعلم نظام هذه المدارس العلوية الا انه يتبادر الى الفهم ان هذه الكتابيب
والمدارس كان لا يدخلها الا ابناء العلويين ، ونص الاصفهاني يقول بذلك ، فدخول (احد
ابن عبدان السقاء) — الذي هو المتنبي — بين ابناء العلويين في كتاب لهم غريب عجيب ، فيجب
هنا ان نقم من هذا الشاهد ان بين جدة المتنبي وبين العلويين سبباً موصولاً قوياً هو الذي شرح
صدورهم وارضاهم ان يدخلوا بين ابنائهم غلاماً كان ابوه سقاء في بلدهم
هذه واحدة من اعلaque ابي الطيب وجدهته بالعلويين ، ثم ان ابا الطيب فاروق جدته ورحل
لغير سبب معلوم الى البادية ثم عاد الى الكوفة شاعراً قوياً الا اذا لسان فلم يمدح الا « محمد بن عبيدالله
المشطب العلوي » — الذي قدمنا ذكره وذكر السبب في مدحه — ولم يمدح احداً من العلويين

(١) صواب هذه العبارة « وكان يتعلم دروس العلوية ، وحنق العربية شعراً ولغة واعراباً »

قاطبة على كثرتهم ، وثرائهم . وعلو مرتبتهم ، وخصوص عريبتهم (٢) في عصر اختلطت فيه الامور
وصارت الشوكة الى الاعاجم

فلما خرج صاحبنا الى الشام ذكروا فيها ذكروا من (امر الفضول الذي بُرِّبَ به يعنون النبوة)
انه ادعى العلوية مرتين - اي ادعى انه علوي صليبه وكان الذي قبض عليه هناك وعذبه وسجنه
(ابن علي الهاشمي) العلوي ، وكان إذ ذاك باللاذقية سنة نيف وعشرين وثلاثمائة . واللاذقية يومئذ
داراً من ديار العلويين يربض فيها رؤوس من الدعاة العلويين

ولما كان أبو الطيب بطبرية سنة ٣٣٦ وأراد الخروج إلى الرملة أرصد له العلويون قوماً من
عيدهم السودان ليقتلوه ، ولكنه فاتهم بحيلته ودهائه ، ودخل الرملة بمدح الايرابا محمد
الحسن بن عبد الله بن طنج فكان مما قال في قصيدته

وفارقت شرَّ الارض أهلاً وزبناً بها (علوي) جده غير هاشم

ثم كان ماروينا لك من امتاعه عن مدح العلوي (أبي القاسم طاهر بن الحسين) ولم يمدحه
إلا بعد إلحاح الامير وتدنيه في السؤال منه وكان مما قاله أبو الطيب في هذا المدح

أناي وعيد (الادعاء) وأنهم أعدوا لي السودان في كفر عاقب
ولو صدقوا في جدِّهم حذرهم فهل في وحدي قوهم غير كاذب ؟

ثم انتزع من ذلك أمثالا في النسبة إلى العلوية المكرمة فقال

« إذا لم تكن نفس السيب كأصله فإذا الذي تنني كرام المناصب

وما قربت أشباه قوم أباعد ولا بصدت أشباه قوم أقارب

إذا (علوي) لم يكن مثل طاهر فما هو إلا حجة للتواصب »

فلما دعت جدته إلى العراق أن يزورها قصدتها ، والنص الذي ورد في ذلك هو هذا
« فتوجه نحو العراق ولم يمكنه دخول الكوفة (على حالته تلك) فاحدر إلى بغداد وكانت جدته
(قد بنست منه) فكتب اليها كتاباً يسألها المسير اليه . . . » وهو نص غريب كما ترى وليت
شعري وشعرك ما الذي أرادوا بقولهم (لم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك) ، وهو قد أتاها
قاصداً دخولها ، ورؤية جدته التي تحبه ويحبها ، ويقطع صاحبنا الارض من أقصى الشام إلى
أسفل العراق ودخول الكوفة همته ، ثم يمنع من دخولها لغير سببٍ مذكور أو معقول ، إذن فلا
مناص من القول بأنه قد منع من دخول الكوفة وهذا هو الوجه الآخر لتأويل هذا النص الغريب
فإن صحَّ أيضاً ما أسنده التنوخي (وذلك ما أوردناه في أول كلامنا) إلى أبي الحسن
وابن أم شيبان (العلويين الكوفيين) . وان ذلك من كلامهما كثرت الادلة التي توجه الحدس

(٢) والمتني كما تعلم كان من اكثر أهل عصره تمجيداً للعريية وتمصّباً لها

والظنّ الى وجهه به يَزيدُه وذلك ان بين المتنبي والعلويين سبباً مجهولاً حملهم أوّل أوّل الى اكرامه بدحوته بين ابناءهم في كسّابهم بالكوفة . ثم حملهم بعد على النية المعقودة لثقت به في الشام، ثم منعه من دخول الكوفة ليرى جدته العجوز التي ارسات اليه تشكو شوقها وطول غيبته عنها . ويزيدك في هذا يقيناً وعيه اعتياداً رثاء المتنبي لجدته ففيه لطافت من الاشارة نكتفي بذكر البيّن منها هنا ثم نعود اليها بعد قليل . يقول المتنبي :

« هيني (أخذت الثأرفيك من العدى) فكيف بأخذ الثأرفيك من الحمى »

ثم يقول :

« لئن لَدَّ يوم (الشامتين) بيومها لقد ولدت مني لأفهم رغماً »

فقد أثبت ابو الطيب أن لجدته ثم له اعداء كان همُّه كله أو اكثره ان يأخذ منهم (ثأرها) وثأره ، وان هؤلاء الاعداء قد شتموا بموتها يوم ماتت ، فهذه الجدة الصالحة العجوز قد أخذت لنفسها اعداء يرضون انفسهم بالشهامة ، وهؤلاء الاعداء — ولا بد — كانوا من الكوفة والاراجح أنهم كانوا من العلويين لما رأيت قبل من الصلة او العداوة القائمة بينهم وبين ابي الطيب المتنبي وأما لا أرى بأساً من ترجيح الظن بأن المتنبي كان من ابناء العلويين فان هذا يفسر كل غموض في حياة الرجل ، وفيما روي عن نسبه من المفقات ، وحسي هنا ان أمر بك مرأ على مواضع بينها لترى رأيك — وفقك الله — فيما اردنا من القول به فان رأيت حجتنا ساقطة فانسقطها ولا تؤاخذنا بما ظلمنا ، فان رجحت ما نقول به . . . فان تدعو الناس لآبائهم أقسط عند الله ووضع القضية عندنا هو هذا :

تزوج رجل من العلويين ولا جرم ان يكون من كبارهم — بنت جدة المتنبي فحمت منه، وولدت احمد بن الحسين (وهذا الحسين غير عبدان السقاء) ، ولا امر ما أيد هذا الرجل على طلاق امرأته وفراقتها، وحمه العلويون على ذلك ، ففارتها وطبقها ، فرجعت الى أمها بجنيها او طفلاً ، وحزنت حزناً أهلكها فاستها الموت وذهب بها، وبقي الطفل فكفته جدته وتمهده وقامت بأمره ، وذلته على الطريق بعد ان صرحت له بحقيقة أمره ، وصحیح نسبه ، وكان من حزمها ان حذرت الفتى عواقب التصريح بأمر نسبه وأخذت عليه الموائيق والعهود ، بحبها له ووجه لها ، وأنه ان فتل كان في ذلك هلاكها وهلاكه فبقي على ذلك متلهلاً حتى كان من أمره ما كان من ادعائه العلوية بالشام فقبض عليه فاضطر الى الاخلاص والتسليم وحرص على ان يطبع امر جدته بعد ان علم حزمها وصواب رأيها ، واخلاصها له المشورة ومحضا له النصيحة وهذا الوضع لقضية المتنبي هو الذي يفسر لك طول تكتم المتنبي على نسبه واخفائه جهده من اصحاب اللسنة المتقلبة بين الرجال ، ويفسر ايضاً مخرج قصة (ايه السقاء) وحرصهم على

حبكها ، والتقديم لها بلطيف القول ، وحسن العبارة كما رأيت في اول كلامنا (ارجع الى نقدنا لكلام التوخي) ، ويأتيك بالدليل اليين في امر دخوله كتاب اشراف العلويين بالكوفة وتعلمه دروس العلوية ويبين ايضاً عن السبب الذي من اجله سكت المتني عن مدح العلويين وعظائمهم وأصحاب الجاه والسلطان منهم وهو بالكوفة ، ثم تأتبه على مدح ابي القاسم العلوي صاحب الامير ابن طنج حين كان بالرملة ، ثم ما كان قبل من ارساد العلويين له عيدهم لقتله بكفر عاقب وكفاك هذا فانا سنبي بقية كلامنا عن المتني من اول امره على هذا الاس ما يقرب منه وبحسبك هنا ان تفسرك بعض المعاني في رثاء جدته على هذا الاصل

« ورد على ابي الطيب كتاب من جدته لامة تشكو شوقها اليه وطول غيبته عنها ، فتوجه نحو العراق ولم يمكنه دخول الكوفة على حاله تلك — فاحذر الى بغداد ، وكانت جدته قد يشت منه فكتب اليها كتاباً يسألها المسير اليه فقبلت كتابه وحممت لوقتها سروراً به ، وغلب الفرح على قلبها فقتلها »

وتأويل هذه العبارة كلها : — انه حين ورد عليه كتاب جدته ازعم الرجل من الشام الى الكوفة لياقي بها جدته فبلغ الخبر مشيخة العلويين فذهب بعضهم الى جدته ، وأبان لها سوء رأيها ونهوها ان يكون لقاء ولدها من ههنا ، وأخبروها انهم قد اجموا رأيهم على منعه من دخول الكوفة بعد ما كان من امره وهو بالشام من اظهاره العلوية ، ورغبته في تحقيق نسبته الى العلويين . فلما فحتم الخبر ب ورود صاحبهم (المتني) على طرف الكوفة خرجوا اليه وأنذروه ان يكون ذلك من ارادته بمد فضوله في الشام ، وأمره بالانحدار الى بغداد ، ورجعوا الى جدته فأياسوها من لقائه بها . فلما استقرت بالمتني بغداد وزاد شوقه الى جدته وبكى من خيفته عليها ، وحمه ذلك على الكتابة اليها — بعد ان لم يجد عن ذلك محيصاً في نفسه فكتب اليها كتاباً يسألها المسير اليه ببغداد ، ففرحت المجوز فرح اليأس من امر ثم اتته البشرية بالظفر من وجه آخر ، فاستد ذلك عليها واستبدت العواطف المتعاجة المتضادة بذلك البيان المهدم الضيف فانقض بعضه على بعض ، فماتت رحمة الله عليها وأتابها بما صبرت

فلما ماتت المسكينة ثارت نفس الرجل ثورة اليأس ، وخاف ان يستعلن لاهلويين بالعداوة وهو ببغداد أن يقتلوه من أجل ذلك ، فأضر ما في نفسه وأشار الى هذه المعاني من طرف خفي . ويحسن ان نذكر هنا ان المتني خرج آخر مرة من الكوفة مرغماً على ذلك الخروج ، وهذا امر طبيعي إذا صح القول الذي نقول به ، فانظر الآن ماذا يقول الرجل في رثائه جدته بكيت عليها خيفة في حياتها وذاق كلالنا نكل صاحبه قدما وقد شرح الشراح هذا البيت وأداروا معانيه ولكنه بقي في شرحهم لا معنى له ، كقولهم : وكنت ابكي

عليها في حياتها خوف فقدها ، وفرت الايام بيني وبينها فذاق كلانا ثكل (فقد) صاحبه قبل الموت» فالعطف في الذي قالوا به « وفرت الايام » لا معنى له هنا ولا فائدة منه. وتفسير البيت هو هذا لما أبأسوها من لقائي ، وقد منعتني عن دخول الكوفة — علمت يقيناً أنها ستحمل ثقلها يهدأ فبكيت خيفة عليها من اثر الحزن فيها ، وما يبكي أن لا ألقاها وكيف ابكي لذلك (وقد ذاق كلانا ثكل صاحبه قديماً) بالفراق الذي حرمنا عليه ! ولو كنت باكياً لبكيت للفراق الذي كان بيننا بمنزلة الموت ، فمدتني هي قدمي ، وعددتها قدمانت (وهذا تأويل قوله .. وذاق كلانا . . .) أي ثكلتني وثكلتها

ثم يقول بعد آيات

طلبت لها حظاً ففانت وفاتني وقد رضيت بي - لو رضيت بها - قسماً (١)
فأصبحت أستسقي النعام لقبرها وقد كنت أستسقي الوغى والقنا الصباً

ومعنى البيتين عندنا — كانت المجوز رضي الله عنها قد رغبت الي أن اكتم امر نسبتي العلوية الي ان يشاء الله ، ولكنني خالفتها ، وآثرت فراقها لعملي أصيب بعيداً عن الكوفة ما لم ادرك بها فخرجت اطلب لها (حظاً) اي فضلاً وخيراً في رد شرف انتهتا الي العلويين ، ولكن شاء ربك ان تقوتني بها الاحداث فتوت ، ويفوتني ايضاً بعد موتها ذلك الحظ لما أعلم من انها كانت هي السبب في امتاعهم عن الفتك بي ان حاولت امرأ ، فواحسرتاه ! لم خالفها وخرجت اطلب لها هذا الحظ وقد رضيت بي قسماً وحظاً ونصيياً وجملت ظفرها بي عدلاً لما فاتها من الحظ الذي كنت اطابه لها ، فياليتني (٢) رضيت بها كما رضيت بي وجعلتها عدلاً لما فاتني من هذا الحظ ، وعلى هذا الاصل يكون معنى البيت الثاني واضحاً يتنا فهو يقول : كنت اريد القتال والحرب لاشفي بالدم المهرق غايلها ، واردها عليها حياتها في شرف نسبتنا الي العلوية فالان وقد ماتت وفانت لاحيلة لي الا ان اسأل الله ان يرده قبرها بما يدرك عليها من ماء النعام. ثم قوله:

« هيبني اخذت التارفيك من العدى فكيف بأخذ التارفيك من الحمى »

« لئن لدد يوم الشامتين يومها لقد ولدت مني لانهم وغمراً »

وقد مضى بعض القول في هذين البيتين ، ولكن بقي ان نقول ان هؤلاء الاعداء والشامتين كانوا من اشراف الكوفة لما رأيت اولاً اذ لا يعقل ان يكون غير ذلك ، لا يعقل مثلاً ان يكون أولئك الاعداء والشامتون من طبقة السقائين والنساجين ومن اليهم ، ولو كان ذلك كذلك لما

(١) تفسير البيت عند الشراح هو هذا : فارتها لا اطلب لها حظاً من الرزق ففانتني هي وفاتني هذا الحظ وقد كانت راضية ان اكون قدما لها من الدنيا لورضيها قدما لي (والقدم النصيب) وقد كنت اطلب من الرياح ان تسقي رده الاعداء فلما ماتت تركت الحرب وحداً عليها وصرت اطلب من السحاب ان يسقي قبرها — او كما قولوا !! فانظر هذا التفسير ، واترأ تفسيرنا (٢) اعلم ان (لو) في بيت المتنبي معناها التمني والاسف والحسرة

حفل المتبي بذكرهم ولا التعريض بهم وان يجعل نفسه رغباً لانوفهم . وهو من هو في الكبرياء والتسامي والغلو في الترفع والمظمة

وعلى عادته ان في القصيدة باشارة عجيبة . هي من باب التفات القاب الى ما يليج فيه من الرأبي المضر . . . يقول

فوا أسفاً الاً اكبّ مقبلاً لرأسك والصدر اللذامنا حزماً
والألاقي روحك الطيب الذي كان ذكي المسك كان له جيباً

ثم استيقظت في قابه تلك الثورة العجيبة التي اصبحت طابع شعر الرجل كله ، فاقه لـ من معاني الحنان والرفقة الى معاني القسوة والعتو فقال

ولو لم تكوني بنتاً اكرم والدي لكان ابك الضخم كركبي لي أمماً
لئن لذت يوم الشامتين بيومها لقد ولدت مني لانفهم رغباً

ذكرته روح جدته بالثأر القديم الذي نسيه في قوله قبل ذلك « هيني اخذت الثأر فيك من العدي » فصرخ صرخته هذه فكاني به يقول : ابدوك وتقوك ، فما يضير قبيهم روجاً طيباً ، ونفساً زكية !! ولا تأسي ولا تحزني ، فانك قد ولدتي ، وكفالك شرفاً ان تكربي لي أمماً ، فاني لم رغب انوفهم وحمهم على خضة الحسف حتى يمتطوا الممادة وهم صاغرون فعلى هذا فسر قوله

واني لمن قوم كان نقوسهم بها اتق ان تسكن اللحم والظما
كذا انا يا دنيا اذا شئت فاذهبي ويا نفس زيدي في كرايمهم قدماً
فلا عبرت بي ساءة لا تنزبي ولا عجة مهجة تيل الظما

وقوله :

ما بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي نخرت لا مجدودي
وبهم نخر كل من نطقي الضا د وعود الجاني وغوث الطريد
ونخر من نطق الضاد هم ابناء رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقوله ايضاً
ولكنني مستنصر بذبابه^(١) ومرتكب في كل حال به النشما
وجاعله يوم اللناء تحيتي والافاست (السيد البطال الله روماً)

ثم فسر على هذا الاصل قوله ايضاً وقد جعل قوم يستعظون ما انى به في رثاء جدته يستعظون ابياتاً نامت^(٢) بها لا محس دن - على ان ينأم - الاسدا
لو ان ثم قلوباً يعقلون بها انسام الذعر مما تحبها - الحسدا

(١) يعني سيفه (وذبابه) حده (٣) الثيم زئير الاسد

وتدبر قوله (لا تحسدن) !! ولو كان غير المتبي — هذا الموتور صاحب الثأر عند هؤلاء القوم — لقال (لا تعجن) او ما يقرب من ذلك ونحن لو شئنا ان تقل لك هنا ونفسر كل شيء يدل من قريب أو بعيد على ما نذهب إليه ، لكلفنا ذلك أن نشرح لك اكثر ديوان المتبي ولكن بقيت أشياء تنبئه اليها — لو أنت قرأت ديوان الرجل لوقعت على كثيرات من أمثالها وذلك كقوله بعد وفاة جدته ومرجهه إلى الشام ساطاب (حقي) بالقنا ومشايخ كأنهم من طول ما التزموا مراد فنوله (حقي) لا يقع هذا الموقع من شعر إلا من أحد رجاين رجل دعوى طويل الباع واللسان في الدعوى والكذب ، أو رجل صادق لا يكذب على نفسه ولا على الناس ، وليس المتبي بأولها ، إذن فقد كان له حقي يطأ به بالحرب وهو الذي ساء (حظاً في رثاء جدته ، وإتلا خفف الحق في الرثاء وجعله (حظاً) لما أشرنا إليه من قبل . ومثل هذا قوله لكافور فارم بي حيث شئت مني فإني أسد القلب آدمي الرواء وفؤادي من (الملوك) وإن كان لسانى يرى من الشعراء فلا عجب بعد في نخر المتبي وتماويه وتماظمه ، فكل مفر من بين واضح العيلة والمعنى على هذا الاصل ، وكان عجيباً عاجباً عند الناس أن تباع الحماقة بان سقاء أن يفخر . مثل هذا الفخر ويتعظم على الملوك مثل هذا التعاضم ، وذهبوا في تأويل ذلك مذاهم ولعل هذا — ان شاء الله هو المذهب الحق



أذاقني زمي بلوى شرقت بها
 لو ذاقها لبكى — ما عاش — واتحبا
 وان عمزت جعلت الحرب والدة
 والسهمري أخاً والمنشرفي أبا
 بكل أشعث يلقى الموت مبتسماً
 حتى كأن له في قلبه أرباباً
 فلموت أعذر لي ، والصبر أجل لي ،
 والبر أوسع ، والدنيا لمن غلبا

مات أمّ (أحمد بن الحسين) أبي الطيب المتنبّي — فيما زعمنا — فوقع الى حدته واختارته
 وآثرته على حظها من الدنيا فكففته . وألقت كل ذات قلبها وكبدها في تمهده ورعايته ، ثم في
 تربيته وتنشئته ، ثم في النصيحة له وتطريق وعر الدنيا عند قدميه . ومنحته في ذلك حنان الام
 الفاقد على ولدها اليتيم الملطّم ، وكانت العجوز كما وصفوها « من صلحاء النساء الكوفيات » ،
 وكما وصفها حبيها ولدها ثم حفيدها « حازمة ، طيبة الروح ، زكية النفس » غير أنّي العقل
 وكانت امرأة موتورة كما ذهبنا اليه فيما مضى بك ، لا تزال نجد في قلبها الامر الذي يقول
 لها : « ها أنا ذا فلا يفتنك حنانك عن الجد في تدير العزم وادارة الرأي على
 وجوهه في طلب النار الذي لك في أعدائك المنزلك بشر منزلة ما ترضاها نفس كنفسك في
 الطيب والزكاة » . وأطاعت العجوز أمرها بالاتصاف لنفسها ولحفيدها ، ولا حيلة لها الاّ تنشئة
 الصغير على غرار فذر يكفل لها إدراك ما تروم ، وكذلك فعلت . فكان المتنبّي في الزمن
 ثم في الشعراء خاصة شخصية عجيبة ، اذا أخذتها من بين التوت بك الى شمال ، وان ذهبت
 تطابها من وجه راغت من وجوه ، واستبهم أمره على الناس باستبهم الغرض الذي رمى اليه
 هذا الانسان . وكان كما قال ابن رشيقي « ملاّ الدنيا وشغل الناس » . . .

لا ندري كيف تمّ الرأي بينها وبين العلويين أن «يختلف - التقي أحمد - الى ككتاب فيه
 أولاد أشرف الكوفة» كما نقل الاصفهاني، ولعلهم أرادوا بذلك أن يرضوا العجوز، ويخففوا
 عنها ثقل همومها ، ويحملوها على المطاوعة لهم خشية أن تفجأهم بما لا يحبون من اظهار ما أرادوا

كتمانهِ وإخفاءهِ . دخل الفتي الكتاب، وقد قال التوخي في حديثه الذي أسنده الى أبي الحسن العلوي — يعني المتنبي — « ونشأ وهو محبٌ للعلم والادبِ فطلبه » ، ولا شك أن جدته الحازمة الصالحة كانت من ورائهم تستحنه على طاب العلم وتستفزه الى ذلك ليم لها — ان شاء الله — ما تؤمّل من الفرح بنبوغه وقهوقه على لِدَانِهِ وأَسَانِهِ من العلويين ، ويستطيع بعد أن يدرك لها « حظاً » ويطلب لنفسه « حَقّاً » هضم ، ومنع من دونه حتى أُلْتِي في أسوأ مجهلةٍ وبشرٍّ منزلةٍ ، في خفاءٍ من النسب ، وقلّةٍ من المالِ وبِعَدَمِ عن مساعي المجد ، وقد وجدت العجوزُ أرضاً صالحةً بطبيعتها لما تريد من أمرٍ بها فتأدب الفتي بالعلم الذي كان يتلقاه في كتاب أولاد أشرف الكوفة واجتهد في ذلك ، وبرع وفاق أصحابه وأخذته جدّته بأخلاقٍ صالحةٍ طيّبةٍ ، وحاسبتَه وحرصتْ على استطلاع خبره كلّه وألقت في قلبه وفكره وخياله طلب المجد بالعلم ، ثم زينت له الفتوةَ وعلو النفسِ وبعُدَ الهمةِ ، وعظّمَ المطلب ، وأدبته بالصدق والامانة وكتبان السير ، وعلته من حيلتها ودهائها وحذرها ، سعة الحيلة ، وخفاء الدهاء ، وتقديم الحذر ، وبعد أن أدرك الفتي من الفكر ما ييسر لها ما تريد أن تبوح له به ، طفقت تدبر له السير من هنا ومن هنا ، وتأخذ نفسها بالحذر والتكتم والاحتراس من ثورة الفتي إذا هي فجّسته بما تريد ، حتى بلغت ما أرادت . وهذه المعاني كلها دائرة في حياة المتنبي وشعره دوران الدم في عروقه فإذا أنت قرأت ديوانه من أوله إلى آخره فلن يفوتك أن تراها جميعاً أو ترى بعضها ما مثلاً غير خفيٍّ في كلِّ موضعٍ من شعره

ويؤيد قولنا هذا : أن الغلام — وهو صغيرٌ بالمكتب — كانت له وفرة من الشعر تسيل على أذنيه ، وكانت حسنةً جميلةً فقال له بعض أصحابه من الفتيان (العلويين) يا أحمد « ما أحسن هذه الوفرة » فكان جوابه أعجب جواب من صبيٍّ في مكتب

لا تحسن الوفرة حتى تری منشورة الضفرين يوم القتال
على فتيٍ معقلٍ صَعْدَةَ يَعْلُهَا من كل وافي السبال^(١)

فظنّ ما شئت بغلامٍ في مثل سنّه لا يزال في أول طابه للعلم يقول مثل هذا القول . ويحسن أن نطيل القول قليلاً في هذين البيتين ففيهما أصولٌ كثيرة من حياة الرجل ونفسيته فيما بعد فالاصل الاول هو هذا الالتفات الشيرزي الجميل من المعنى المحدود بفرض قائله إلى المعنى المترامي بخيال سامعه ، فإن أصحابه كانوا يعجبونه من حسن وفرة واسترسالها ولينها ، فتجاوز صاحبنا هذا بخياله من الصورة الحاضرة إلى الصورة التي يريد أن يراها شعنا غبراء يوم ينشر

(١) « الضفر » الحصلة المضمرة من الشعر كاندبرة ، وقوله « معقل صعدة » اي حامل رجمه الى الحرب « وبها » يسبقها من الدم مرة بعد مرة « والوافي السبال » هو الطويل اللحية

مضفورها يوم القتال بين الغبار النائر والدم المهرق وهذا إنباتٌ للاصل الشعري القائم في نفسه والاصل الثاني ، هو الرجولة والفتوة ، وبعد الهمة ، وعظم المطلب وانصرافه عن سفاسف الامور الى معاليها ، لا يعبأ بلذة لا يجدي خيراً ، ولا تؤني ثمراً ، وإنما يجد لذته فيما يأتيه بما يريد ولو كان فيه فيه شقاؤه وجهده ، وقد شرح صاحبنا هذا المعنى النفسي في شعره بمد فقال :

« سبحان خالق نفسي كيف لذتها فيما النفوس تراه غاية الألم

الدهرُ يعجب من حنلي نوابه وصبر نفسي على احداه الحطُم »

وهذا اصل رجولته وفتوته وقوته النفسية التي ظهرت واستعانت في كل شعره حتى صار بها فذاً أوحد

والاصل الثالث : هو الثورة الدائمة ، فأنت تراه من صفه هكذا لا يريد الا القتال والدم

والرابع : ان هذين البيتين من صغير كقائلها يضران وراءهما معنى آخر غير هذه المعاني

وهو انه منشأ على طلب النار من عدو فهو لا يزال ينقل الصورة من وضع الى وضع آخر

يرضي ما يدور في نفسه من المعاني المحددة بظفولته وما غذيت به من الآراء والاخلاق . وإن

شئت قد تبر السر العجيب في قوله « يعلها » اي يسقيها الدم مرة بدمرة لا يكتفي بواحدة ،

ويعجب من قوة الاصل الشعري في هذا الغلام ، ومن طغيان الحقد والتأرع على قلبه الصغير

والخامس : هو بيان الحفي عن عدو الذي يريد ان يحاربه وقد صرح بذلك في قوله « كل

وافي السبال » ، فانظر من اراد هذا الصغير بهذه الصيغة ، أترأه عنى كل كبير السن ذي لجة

طويلة ؟ أترى ذلك الكلا فاليين الهين انه اراد قوماً باعياهم كنى عنهم بهذه الصيغة ؟ ومن هؤلاء

الذين يريد هم بهذه الصفة ؟ أليس المعقول ان هذا الصغير اما يتجه خياله الى اقرب الناس اليه في

بلده ، ثم إلى الذين اوحت اليه جدته بأن يديها ويديهم سخيمة من العداوة ؟ ومن يكون هؤلاء

من اهل بلده الا مشيخة العلويين^(١) الذين اتزلوا الهوان به وبجده فيها ذهبنا اليه من الرأي فيما مضى

والسادس : ان هذه الثورة التي تابست به واخذت عليه مذاهبه في حياته انما هي من اثر

جدته اذ باحت له بسرها والقت اليه بمكنون صدرها ، وذلك لان الفتى الصغير لا يكاد يدرك

هذه المعاني كلها ، ويسينها حتى تظهر هكذا مسهة على لسانه الا ان يكون قد أخذ بها ، وهيء

لها ، وأعطى من نفس غيره قوة تخرجه من طبيعة الطفولة ، الى عادة الرجولة والفتوة

ولولا ان صاحبنا ابا الطيب قد « اسقط من شعره^(٢) الكثير ، وبقي ما تداوله الناس »

(١) وهذان البيتان من الادلة على ما ذهبنا اليه في تضيته مع العلويين في الذي سر بك ولم نذكرهما

هناك لنادى الاطالة

(٢) هذا القول يثبت على شعر صباه ولا شك ، ولا شك ايضا ان بعض شعره في فتوته وكهولته قد

سقط او اسقط ولكنه قليل جداً لا يكاد ينفذ شيئاً

كما حدثنا أبو الاسم الاصفهاني عن أبي الفتح بن جني لوجدنا فيما اسقطه كثيراً من امثال هذا القول الذي يدل على نفسية الصبي التي كبرت معه، وكانت هي (المتبي) الشاعر الفرد الذي لا يكاد يخفى شعره على اقل الناس بصراً بالشمس وأبيات اخرى قالها وهو بالمكتب ايضاً

الى اي بنات في زي محرم؟ وحتى متى في شقوة؟ والى كم !!

وإلا تمت تحت السيوف مكره تمت وتناس الذل غير مكرم

قنب وانما بالله وثبة ماجد يرى الموت في الهيجا، جنى النحل في الغم

وهي وان كانت مما قال في صغره إلا انها امثل من الايات الاولى في الدلالة على المعاني التي ذكرناها والاصول التي استنبطناها فتدبرها على ما قدمنا لك تجد الشاعر الكبير في الشاعر الصغير الا في موضع واحد قل في شعره بعد الكبر وذلك هو تقديم الثقة بالله، على الثقة بسيفه ونفسه، وهذا الموضع ولا شك من اثر جدته التي كانت « من صلحاء النساء الكوفيات » وهو يؤيد رأينا في ان العجوز كانت تمنحه نفسها وتمحضه نصحتها وتريه على ما ارادت، لم تكلف ان تركز في تأديبه وتثيقه الى المكتب او الى الزمن واحداً، وهو المعلم الاكبر والاستاذ البارع

هذا، وما نشك في ان الفتى كان وهو بالمكتب اكثر اصحابه تحصيلاً للعلم واقبالاً عليه وانصرافاً اليه، وذلك لما ذكروا من قوة ذاكرته التي كادت تكون احدى الحوارق، ثم لما اخذته به جدته من الادب والرأي، وما زينت له من طلب المجد، ثم ما سبها في نفس الصغير من اصل طبيعته التي تسرع به الى السمو. ولهذا كان الفتى محمداً بين آرايه منظوراً اليه بعين. فالحسد الصغير الذي مني به وهو في المكتب، وما يروج في صدره من حقد وثورة — وبنفس لمن اريد له ان يشأهم وينضمهم — كل ذلك كان هو الاصل فيما تعجب منه المتعجبون من كثرة ذكر هذا الشاعر للحسد والحساد والوشاية والوشاة وما الى ذلك مما يلم به، وقد الم صاحبنا بهذا الذي اردناه في قوله وهو بأنطاكية فيما بعد

ابدو فيسجد من بالسوء يذكرني فلا اعاتبه صفحا وإخوانا

(وهكذا كنت في اهلي وفي وطني) ان النفيس غريب حيثما كانا

(محسد الفضل مكذوب على اثره) ألقى الكمي وياقاني اذا حانا

فهو من يوم كان في وطنه الكوفة الى سنة ٣٢١ حين رحل الى الشام كان باقى الغنت من

(١) (زي محرم) كناية عن فقره لقله ثيابا التي تسره، والمحرم من الحاج لا يلبس الا زارين غير مخيطين

الحسد والحساد ، وما تكذبوا به من باطليهم ، وما القوا عليه من عيوبهم ، فلما استمر مريره وبرع وفاق الشعراء ، وأكل ارزاقهم الى رزقه — اجاب عليه الحساد والوشاة ، فدرسوا له وأذاقوه من بأسهم ، فبقي الى آخر عمره يذكر ذلك في شعره ، ويتخيله في صغير امره وكبيره قلنا ان الفتى كان احذق اسنانه وأسرعهم الى التحصيل ، وأحفظهم للعلم ، وظاهر شعره الذي قاله في اول امره وصباه ، انه لم يتصر درسه على « دروس العلوية وحذق العربية شعراً ولفه واعراباً » بل كان كما كان الى يوم وفاته متبعاً للكتب يقرأها ويحفظها ويحفظها ، من كتب الشعر والادب والدين والفلسفة والكلام وغيرها من علوم عصره وسناني على طرف من شعره في سياق الدليل على ذلك . وقد روى بعض الرواة — هو صاحبنا الاصفهاني — ان المنبي وقع في صغره الى واحد يكنى ابا الفضل بالكوفة فهو سه وأضله كما ضلّ « هكذا قالوا ولا شك ان ابا الطيب قد لقي هذا الرجل وهو بالمكتب لم يبرحه بعد . والقصيدة التي في ديوانه ، والتي قدموا لها بقولهم « وقال وهو بالمكتب يمدح انساناً ، وأراد ان يستكشفه عن مذهبه » هي في ذكر هذا الرجل الذي ذكره الرواة ، وأولها

« كفتي - اراني - ويك لومك - ألوما هم اقام على فؤاد انجما »

ويقول فيها وقد ذكر اسم الرجل

« كصفات اوحدنا (ابي الفضل) الذي بهرت فانطق واصفيه وأخفا »

ومن قرأ القصيدة كلها الفاها كلها ، فافها يدت واحد من الشعر ، ولفظها وكلامها ومعانيها غث كلّه ، وما ندرى ما الذي جعل ابا الطيب يحرص على ابقائها في ديوانه ، وقد اسقط الكثير من شعر صباه على ما ذكر تلميذه ابن جنبي ؟ وقد أعجم صاحبنا القصيدة كلها وأن فيها بكل ساقطة من الفلسفة وما اليها ، وبالغ حين مدح الرجل بما ينقل الكلام من معنى المدح الى معنى الهجاء ، حتى أخل ذلك بعريتها إخلالاً يتنا لم يقع مثله في ساقط شعره وسفسافه . والظن عندنا أنه لقي ابا الفضل هذا ، وكان يدعى الفلسفة ، ويتججح بذكرها ، ويظن بنفسه العلم بها ، ويعرض نفسه لقراءة درس فيها ، وكان في ذلك أضحوكة يعجب منها ويتفكه بها ، وكانت صورته في ذلك كله تستقصي الضحك وتستخرج منه ، فقال له أبو الطيب هذه القصيدة تدراً به وعبثاً وسخرية . ولا حاجة بنا الى تفصيل ذلك بذكر الايات التي تدل على ما أردناه فإن قليلاً من التدبر — فيما جمع فيها أبو الطيب من السخف والمضحكات والمناقضات والمباينات — دليل كاف وواف . ويتبين إذن أن المنبي ما أثبت هذه القصيدة في ديوانه إلا لانه كان يذكر بها شخصية كانت تستخرج من قلبه الحزين أقصى الضحك ، وغاية الاسترابة والمعجب للاصفهاني صاحب « إيضاح المشكل » الذي مر في اول كلامنا ذكره — أن

يزعم أن معنوها كأبي الفضل هذا التكررة قد هوّس أبا الطيب وأضاه كاضلّ، فمن كان في بديهة المتنبي، وذكائه وتوقده لا يلعب به رجلٌ مغمور غير مذكور كهذا الذي ذكروه. وظاهر أمر الاصفهاني أو من قال له ذلك، أنه وقع اليه خبر أبي الطيب وتدره بأبي الفضل، هذا الدعويّ على الفلاسفة، فقلب الخبر من معنى الهزل إلى معنى الجرد ونسب إلى المتنبي الاخذ عنه، والافتداء بسخفه وهديانه. فلولا جاءوا بشيخ مذكور من شيوخ الفلاسفة وادّعوا ذلك فيما ادّعوا على الرجل !!

ونحن لا تنفي عن أبي الطيب التأثير بالفلاسفة وغيرها مما يداخنها أو تداخيه على مذهب الاوائل، وكيف يكون ذلك؟ والدنيا يومئذٍ موجّ متلاطمٌ بالجدك والحصام، والعلماء يومئذٍ كثيرون، وأصحاب المذاهب النورية متوافرون، وأصحاب الجدل مغرمون بإقامة الشبهة وردّها بالحجة والبرهان العقلي، والكتب الخنيفة كثيرة لم تذهب بعد، وهي كتبٌ نشأ منها بعد علم الكلام الذي اختلطت به الفلاسفة وصارت اصلاً من اصوله، والمساجد لذلك العهد كانت عامرة بالصخب الذي لا يجدي ولا ينفع في اصول الدين وعقائده. فلسنا نشك بعد ان هذا الفتى المتوقد — الذي قال عنه كثير ممن رأوه انه كان واسع العلم والمعرفة — قد اختلط وسمع وبحت ونظر وجادل واخذ بأطراف ما سمع وقرأ وحفظ، حتى بان ذلك في شعره الاول بياناً لا خفاء فيه، وقلّ بعد ان استحسنت قوته وغلب عليه الاصل الشعري الذي استولى على اكثر موهبته وقدرته. ونسوق اليك هنا طرفاً من ذلك فيه غنى ان شاء الله. يقول

« وضاعت الارض حتى كان هارهم اذا رأى (غير شيء) ظنه رجلاً »

يريد « لاشيء » فأبدل، وهذه من ألفاظ المتكلمة، والخيال خيالهم

« يترشفن من في رشفات هن فيه (حلاوة التوحيد) »

وهذا من ألفاظ المتصوفة

كتمت حبك حتى منك تكرمه ثم استوى فيه اسراري واعلاني

كانه زاد حتى فاض عن جسدي فصار سقمي به في (جسم كئيب)

والبيت الثاني، واللفظ الاخير خاصة دليل على تأثره بالمعاني الفلسفية والصوفية وهذه هي التي

اخرجت له هذا الخيال السخيف — وقوله

فتى الف جزء رأيه في زمانه اقل جزئي بعضه الرأي أجمع

فهذه قسمة حسابية!! والجزء والجزئي، من الفاظ المتكلمين والفلاسفة، وقلمنا يأتي احدهما

في الشعر مستحسنًا وقوله

فصبح متى ينطق نجد كل لفظه (اصول البراعات التي تفرغ)

وهذا مدح فاسفي ليس بشعره، وانظر الى جمعه البراعة وهي من التراث التي تلدها الفسفة، وقوله
 لما وجدت دواء دائمي عندها هانت عليّ (صفات جالينوسا)
 بشره (تصور غاية) في آية تنزي الظنن (وتفسد التقيديسا)

فقوله (صفات جالينوسا) يريد ما يصفه جالينوس الامراض من الدواء، وهو دليل على
 نظره في كتب الطب، ثم قوله (تصوير غاية) من اساليب المتفسفة، وقوله (تفسد التقيديسا)
 يريد «تفسد القياس» وهو مما يرد في كتب الكلام. ومن تتبع سائر شعره في صباه، وجد
 فيه آثاراً كثيرة تدل على ما قرأ أبو الطيب، واسمع من كتب الفقه والحديث والتفسير والجنيل
 والمنطق والمثل والنحل والتاريخ وسير الاوائل والابيا الماخين وغير ذلك، مما كان من علوم اهل
 عصره، وقد احاط بكثير من ذلك واسترعبه، ونظر فيه، نظر المتفكر المتدبر، ولولا ذلك لما ولع
 بذكره في شعره، ولما دار على لسانه على غير ارادة، فيما نظن

وقد كان في هذا القسم من شعره ياجأ الى الاساليب الفسفية في استخراج المعاني وتوليدھا
 وكان يكثر من التسميم الفاسفي، والتوجيه المنطقي وغيره من الوان كلام المتفسفة والمتكلمة
 والمترندقة ايضاً حتى فسدت معاني شعره، فلذلك كان أكثر ما نجد من ساقطه ومرذوله—مما عابه عليه
 النقاد، وخاصة به المتعصبون عليه—هو من هذا القسم الذي قاله في صباه الى اطراف سنة ٣٢٨
 على وجه التقريب لا التحقيق

وهذا العهد من حياة المتنبى لم ترد عنه رواية مؤتمنة مستفيضة، وانما علمنا فيه الاستبطاء
 من قبيل شعره الذي قيل في صباه، واستخراج الاصول النفسية منه، ثم مسيرها بعد وتدرجها
 معه حتى باغت مبلتها في كبر شعره الذي «ملا الدنيا وشغل الناس»
 عندنا ان المتنبى بقي في المكتب الى سنة ٣١٧ تقريباً وكانت سنه اربعة عشر، ولكنه
 كان بتوقده وذكائه في درجة من اناف على العشرين، وقد ذكر التوخي انه قال الشعر صيماً،
 وذكر غيره انه كان آية في الذكاء والفتنة، وقال غيرها انه من دهاة عصر—اي كان
 كذلك فيما بعد—وكان مما ورثه عن جدته هذا الاحساس المرهف الدقيق الذي يهتز في
 قوته وكبريائه لا في ضعفه وذله. واجتماع الذكاء والحس المرهف هما آلة كل شاعر، وقد
 ظفر المتنبى من كليهما بنصيب الاسد المصور، ولذلك كان شعره اروع شعر في العربية وكثير
 غيرها، وكان محبباً الى اهل عصره متداولاً سائراً بينهم لانه كان يأخذ بها من شعور الناس
 وآلامهم واحداثهم ويبنى بما يأخذ يوت شعره، وروائع بلاغاته
 وهب الله هذا الذكي المرهف الحسّ جدة حازمة كانت—فيما ذهبنا اليه—توفد في

قلبه نيران الثورة ، وتورثها بالحنْد على قوم بعينهم ، وتدر به على كرائم الخائِق كالصدق والامانة والوفاء وحب المجد والتطاع إلى العياش ، والجرأة المستنفرة التي لا تهيب ، يحد منها الحذر الذي لا يهاون ، والدعاء الذي لا يتورط في موارد التآف . وشرع الفتى يطلب العلم ويستزيد منه ويشتد في الطآب مصمماً معزماً أمراً في نفسه أن يبلغه أو يهلك دونه ، ثم افتتحت لعينه الدنيا برذائلها وفضائلها وحكمتها وترهاتها ، وجدها وهزلها ، فاضطربت نفسه وطفقت تلمس الاشياء هنا وتتم لتستقر على ما ترضى به وتأنس اليه

وكانت الكوفة — التي نشأ بها وشب وترعرع وتقتسى — لذلك العهد ، بلداً من بلاد الإسلام قدرتها القرامطة بجيوشها مرات وفعات بأهلها الافاعيل ، وكانت الدولة العربية في شغل عن الكوفة بانقسامها شيعاً يأكل بعضهم بعضاً ، وظهرت شوكة الاعاجم وكانوا أصحاب حيلة ودهاء فأوقعوا بين المسلمين ، وبين عرب البادية حتى صارت الدولة العربية المترامية الاطراف في ثورة دائمة لا تقتر ، ولا تقطع الحروب في ناجية إلا اتقدت نيرانها في أخرى . وانقسمت دويلات ، ولم يبق للخليفة إلا الاسم الكريم بحمله مرغماً ويضمه مرغماً لا لإرادة له . ولا شك أن إحساس أبي الطيب قد ألم بذلك كله وفصله ونقده ، وعرف الداء الذي كمن في بدن العربية واستل قوتها وقتل روحها ، فازداد إلى ثرثرته ثورة وإلى حنقه حقداً

وكانت أخلاق الامة قد اتضعت وفشلت بما تداخلها من أخلاط الامم الذين لا أصل لهم يرجعون اليه ، ولا خلق عندهم يستندون به ، وفسدت العامة من أهل المدن فساداً كبيراً ، واضطربت في أيدي الناس حبال الاخلاق ، وصاروا لا يقيسون الناس إلا بمقياس الظاهر ، ولا يزنونهم إلا بميزان المال . فبطلت موازين الرجال التي يوزنون بها من العقل والحكمة والعلم والرؤسولة وكرم العنصر . فكان نظير الفتى إلى هذا مما ألقى الخطب على النار التي في صدره ، فبغضت اليه سفاسف الاخلاق وتعلق بمعالها ، وزين في قلبه أن يكن هو النائر الذي يرد هؤلاء الاعمال والهيج إلى مردة ، وبأوي بهم إلى مأوى ، ويقوم عليهم قيام الراعي حتى يخلصوا من الشر ، ويستسكوا بالعروة الوثقى ، ويفيئوا إلى الحق الكريم الذي لا يخس الناس حشمتهم ، ولا يذلهم ، ولا يذلهم ، بل يعدل بينهم بالقسط ويرفهم عن الدنيا ، ويجعلهم قوة مستحكمة ترد عدوان العادي وبني الباني ، ليصلوا بذلك إلى المجد والسلطان

اصطدم هذا الخيال الذي اراد ان يحققه بحقيقة ما هو فيه من الفقر والخفاء ، والبعد عن ميساعي المجد ، وانتاع نفسه عن اعطاء الطاعة للاخلاق التي كان يصل بها اهل ذلك العصر إلى ما يريدون من المكر السبيء والدسيس وما اليها من حيل الخيئين . وقد روى الرواة ان ابا الطيب قال : « اذكر وقد وردت في صباي من الكوفة الى بغداد ، فأخذت بحجاب منديلي خسة دراهم

وخرجت امشي في اسواق بغداد ، فررت بصاحب دكان يبيع الفاكهة ، فاستحسنها ، ونويت ان اشترىها بالدرهم التي معي ، فتقدمت اليه وقلت :

— بكم تبيع هذه الخمسة بطايعخ ؟

فقال بغير اكرات : — اذهب فليس هذا من اكلك ، . . . فتماسكت معه وقلت

— يا هذا ، دع ما يفيض ، واقتصد الثمن

فقال — : ثمنها عشرة دراهم

فلشدة ما جهني به ، ما استطت ان اخاطبه في المساومة . فوقفت حائراً ، ودفعت له خمسة

دراهم فلم يقبل . . . واذا بشيخ من التجار قد خرج من الخان ذاهباً الى داره ، فوثب اليه صاحب

البطيخ من الدكان ، ودعا له وقال :

— يا مولاي ! هذا بطيخ باكور ، باجلارك احمله الى البيت ؟

فقال الشيخ : — وبحك ! بكم هذا ؟

قال : — بخمسة دراهم . . .

قال : — بل بدرهمين . . .

فباعه الخمسة بدرهمين وحملها الى داره ، وعاد الى دكانه مسروراً بما فعل

فقلت له : — يا هذا ! ما رأيت اعجب من جهلك ؟ استمت علي في هذا البطيخ ، وفعلت

فعلتك التي فعلت ، وكنت قد اعطيتك في ثمنه خمسة دراهم ، فبعته بدرهمين محمولاً . . .

فقال : — اسكت . هذا يملك مائة الف دينار

قال المتني : فعلت ان الناس لا يكرمون احداً اكرامهم من يعتقدون انه يملك مائة الف دينار

وأنا لا أزال على ما تراه حتى أسمع الناس يقولون إن أبا الطيب قد ملك مائة الف دينار «

فهذا وأمثاله من أعمال الحياة لذلك المهذ اصطدم قلبُ الفتى ، فاستقر على ان يجد ما يريد

مخرجاً ، غير العلم والعقل والنصيحة والاخذ بالآين والملاطفة ، وازداد بذلك للناس احتقاراً

ولاعمالهم بغضاً ، وحقر العطاء الذين لا يعظمون في أعين الناس إلا بالمال ، وجعل يدبر الرأي

حتى خاض إلى العزم — أن يطلب المال ، لا ليجمعه ويفرح به ، ولكن لينال به ما يريد مما

ينطوي عليه قلبه من حقد على قوم وما يدور فيه من معاني الاصلاح ، وما يعني من إيقاظ

الهمة العريية للاستيلاء على السطان المضيع ، والمجد المفقود

ومع هذا — . . . كان الذكاء ، والثورة ، والنظر ، والتجربة والاختلاط بالناس واختبار

أخلاقهم ، وتمجُّبه من فساد أقيستهم ، وبطلان مذاهبهم ، ثم اعتماده في نفسه على الثقة بها ،

واعتماده بمقدرته ، واستسقاطه لمن يحيط به من رجال الدولة الذين لم يصلوا إلى الحكم أو

السلطان أو القضاء إلا بالسوء والقيح، ثم طبيعته الشاعرة المرهفة التي (تلتقط صور) الأشياء ثم تتزع منها الاخيلة الشعرية، والحكم البليغة. كل ذلك أسرع بالفتى إلى ضرب من القول الساخر الذي لم تر العربية مثله في شعر شاعر. إلا أن سخريته التي انفرد بها لم تكن بعد في كبره إلا ضرباً من الحكمة والعبرة التي لا يفتن اليها إلا أفاذ العقول، ثم يدأون عليها بالابحاز العجيب فلا يبالغون في تصويرها بل يضعون لها اللفظ الذي يخرجها مخرج الحكمة ويزيدها روعة في السخر. وستمعرض لتفصيل ذلك بعد—وقد حفظ لنا المتنبي ضرباً من سخريته في صفه نداءً على ما استحكمت في شعره بعد وصار في شاعريته طبيعة متأصلة مستحكمة مر المتنبي برجلين قد قتلا جرذاً، وأبرزاه يعجبان الناس من كبره فقال

«لقد أصبح الجرذ المستعير أسير المنايا صريع العطب
رماه الكنانى والعامري وتلاه للوجه فعل العرب
كلا الرجلين اتأسى قتله،... فأيكما غل حراً السائب
وايكما كان من خلفيه؟ فإن به عضة في الذنوب»

قتل الرجلان — الكنانى والعامري — هذا الفأر الكبير، فأخرجاه ليعجبا الناس من كبره — وهذا سخف منهما إذ شغلا نفسيهما بعث لا معنى لثله عند المتنبي الذي يريد في نفسه قتل الملوك— فمن هنا قال «الجرذ المستعير» الذي قد اغار عليهم كما تغير الحيوش، ثم لما فرغ من جملة كذلك ذكر ان هذا الفأر قد وقع في (اسر المنايا) كما يقع العدو في الاسر حين رماه — الكنانى والعامري — بالسهم كما يرمى العدو، وبذلك يسخر من رجائين يجمان قايها على قتل، ثم لا يكون المقتول الا فأراً، ثم لا يكتفى صاحبنا بهذا بل يقول انهما اخذا يصارعانه كما يصارع العربي خصمه مستعيناً عليه بالقوة حتى يكبه على وجهه مقتولاً، وذلك قوله «تلاه للوجه فعل العرب»، ثم يقول بعد كلاً كما تولى قتله — وذلك لكبر الفأر وشده — ولكن من منكما الذي سرق حراً ثيابه وجيد سلاحه كما يسرق السارق في الحرب من اسلاب القتلى ويخفيها عن اصحابه من المقاتلة. ثم يعود فيقول، انكما كنتما تصارعانه بعد ان رميتاه بسهميكما وكان أحداً من خافه فمن منكما الذي كان من ورائه ليحتال على صرعه، وقد عرفت حيلته في صرع هذا الفأر العظيم فانه عضه في ذنبه، وهذه العضة بينة ثم. وأنت اذا عدت فقرأت الايات على ما تكلفنا شرحه رأيت بلاغة الرجل في السخرية ودقته في اختيار اللفظ، وابعاز الصورة التي يريد ان يتفكك بها. وهذا الضرب من الكلام من اكثر ضروب الكلام دوراناً في شعر المتنبي حتى باع من دقته في وضعه، وتقوذه في معرفته واتقانه، انه كان يقول القول في المدح وهو ابلغ المهجاء، كما فعل بكثير من مدوحيه—حاشا سيف الدولة—وفي اولهم كافور الاسود الحصى

وكانت هذه السخرية هي المنفذ لآلام إبي الطيب ، وما يضيق به صدره من الاحقاد والآراء ، ولعله كان في أصل طبيعته قريب الميل الى المرح والطرب في وقار — ولو لا ما كتف نفسه من المشقة للسيادة والمجد ، لكان من ابرع الناس نكتة بليغة ، واكثرهم نادرة عالية .

يدللك على هذا ان ابا الطيب كان قد نادى في حياته كثيراً من الامراء وكانوا يحبونه ، ولا يصلح للمنادمة رجل متمزنت بارد الطبع ثقيل الظل ، طويل الصمت جهم الوجه ، كائن . وما قاله « معاذ اللاذقي » لابى الطيب سنة ٣٢١ : « والله انك لشاب خطير تصاح لمنادمة ملك كبير » ومعنى هذا ان ابا الطيب كان ظريفاً خفيف الروح محبباً الى النفس مع وقار وتؤدة .

ومن تدبر سخريته في شعره كله وجد فيها هذا المعنى ، الا أنه لم يكن يهزل هزل السخفاء .

كان هذا الفتى يمشي في نواحي الكوفة بالامه واحقاده وفقره ، ويتنقل في حوانيت الوراقين يقرؤ ما يقع بين يديه من الكتب ، ويختلف الى مجالس الائمة يستمع العريية والفقه والجدل ، وينظر متعجباً الى الحوادث التي تقع بين ظهرائي قومه ، ويتسمع لما ترد به الانباء من اخبار الدولة المتزامية الاطراف ، يضحك ما يقع من الاحداث العجيبة التي ترفع وتضع ما بين عشية وضحاها ، ويكون فيها يرتفع الى الذروة اقوام — من العجب ان يصلوا الى كسب الرزق ، ثم هم يرتفعون فيها يرتفع بهم الى إمرة الامراء ، ومشيخة الكتابة ، وسياسة الدولة ، والقضاء بين الناس . فلا عجب بعد ان يكون هذا الفتى التائر الذي يشهد آثار الاحداث في امته ، كثير العجب مما يرى وما يسمع ، قابل الحفل بهذه الاصنام التي ترفعها الحوادث وتضعها ، عظيم العجب بنفسه وما أوتي من فطنة وذكره وعلم ولسان قوال لم ينل بها الا الفقر والمسكنة والحرمات

لم البالي التي اختت على جدي بركة الحال ، واعذرني ولا تلم
أرى اناساً ، ومحصولي على غمهم وذكر جود ، ومحصولي على الكلم

وقد بقي في الكوفة على ذلك — فيها نرى — الى اطراف سنة ٣١٧ ثم خرج الى البادية القريبة ، بادية الجزيرة المفضية الى نجد وفيها قبائل من كلب ، فالتقى بهم واخذ يتنقل بينهم ، ليسمع ما بقي من العريية المبرأة على السنة هؤلاء القوم الذين قلت بينهم الاعاجم ، ولم يظفر هناك بطائل الا ما مرن عليه من مشقة السفر واكتساب الصديق ، واختبار الخلق ثم عاد الى جدته بالكوفة يشاركها آلامها وشقاءها واحقادها ، ينال من فضل بعض اصحابه متفقاً — كمحمد بن عبيد الله العلوي الذي مر آتقاً — ولعل العلويين الذي نكبوا جدته كانوا يفضلون عايبها ليتقوا بذلك احداثها ان حدثتها نفسها بشيء وبقي المتنبى هناك بالكوفة منقطعاً عن مدح احد من العلويين او غيرهم من رجال الكوفة وعظماؤها . وقد جاء في حديث المتنبى الذي ذكرناه انه انحدر مرة من الكوفة الى بغداد وما نشك ان مخرجه هذا الى بغداد كان فيما بين سنة ٣١٩

الى اوائل سنة ٣٢٠ . ودخل صاحبنا بغداد يرى العجب العاجب من الاحداث التي كانت تقع بها ، وشغب الجند على الخلفاء ، وظهور الموالي من العجم والديلم والترك على مواليهم من الامراء والخلفاء ، وقضاءهم في شؤون الدولة ، وتصريفهم سياسة الأمة على الشبهوات المتنازعة ، والاهواء المتصارعة ، لا يرتدعون ولا يرعون . فنف كذالك عن بندج احد من هؤلاء الامراء والخلفاء واقف ان يتكسب بشعره من هؤلاء المحقرين لديه ، ورضي بالفقر واستمسك به ، وبدأت تدفع الدوافع في صدره المملوء احقاداً مؤثرة ، وبرزت لم ترو بعد من الدم . ففجع صدره بالنار المضطربة التي لا تهدأ ، تؤثرها افكاره ونظرانه التي لا تغتر ولا تكل . ففي سنة ٣٢٠ اعترم الخروج من الكوفة ، وان ابنت جدته عليه ذلك ، لما كانت تخشى من تدفعه الى موارد التلف بما يحمل في صدره . — وعقد قلبه على احداث حدث لعله ان يصيب من ورائه ما يبتغي وما يؤمل ، ويدرك به في قوم تاراً ، ويشفي به صدر جدته وصدره . ولعل هذه الايات التي نرويها لك كانت آخر ما قاله بالكوفة مما وصل الينا وما لم يصل من شعره ولعله عني بالحطاب فيها جدته — قال :

عجبي قيامي ما لذلك النصلِ بريثاً من الجرحي ، سليماً من القتلِ
ارى من فرندي قطعة من فرنده وجودة ضرب الهام في جودة الصقلِ
وخضرة ثوب العيش في الخضرة التي ارتك احمرار الموت في مدرج العملِ
امط عنك تشبيهي بما وكأنه (فما احدٌ فوقي ولا احدٌ مثلي)
وذرتني واياه وطرفي وذابلي نكن واحداً يلتقي الوري وانظرن فعلي

وقوله « عجبي قيامي » يعني ثورته وظهوره وخروجه ، وما نظن احداً كان يجب ذلك منه غير جدته ، مع خوفها عليه وخشيته ان يصيبه مكروه ممن يرتبص به من العلويين فيما — ذهبنا اليه — وفي الايات اثر بين من ثورة الصبا وغروره ، ولكنها تدل دلالة بيضاء على عزيمته هذا الفتى الابي الذي يريد ان يدرك تاراً ، ويحدث امراً

ولم يمض الا قليل بعد ذلك حتى خرج الفتى من الكوفة واتخذ طريقه — على ما وقع عندنا من الرأي — من الكوفة الى بغداد ، ثم خرج لوقته متخذاً طريقه في ديار ربيعة بين النهريين الى نصيبين ورأس عين وحران ومنبج ، وطفق ينتقل بين القبائل في جوف البوادي حتى انقضى به المسير الى الشام في سنة ٣٢١ فزل بدمشق وأعمالها وما يدانيها (اعني بطلبك ، وطرابلس وحمص) ثم كره الارض التي زلها ثم صعد سنته الى منبج وحلب واللاذقية وانطاكية ومدح بها من مدح ثم اعتقل بحمص ، لما قالوا به من ادعائه العلوية ثم النبوة ثم العلوية ثم استيب وأشهد عليه بالكذب فيما ادعى ثم تاب وأطلق . هذا موجز رحلته الاولى بالشام وتفصيلها غير ميسر بعد لموضها ونقصها . ولهذا الرحلة عندنا تفسير آخر سنعرضه بعد

سبَّح النَّصْلَ مِنِّي مِثْلَ مَضْرِبِهِ
 وَبِجَلِي خَبْرِي عَنِ صَمَّةِ الصَّمَمِ
 لَقَدْ تَصَبَّرْتُ حَتَّى لَأَنْتَ مُصْطَبِرٌ
 فَالآنَ اقْحَمُ حَتَّى لَأَنْتَ مُقْتَسِحِمٌ
 مِعَادُ كُلِّ رَفِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ غَدَاً
 وَمِنْ عَصَى مَنْ مَلُوكِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ
 فَانْجَابُوا، فَمَا قَصْدِي بِهَا لَهْمٌ،
 وَإِنْ تَوَلَّوْا، فَمَا أَرْضَى لَهَا بَهْمٌ

النبوة في حياة النبي هي أبرز الحوادث التي عرف بها الرجل ثم نُبِّئَ بها بعهد. وقد اختلف الناس في أمرها اختلافاً كبيراً، فعلياً هنا إن نذكر لك أول ذي بدء رواية الرواة في أمر نبوته، تامة كما رووها ثم نعقبها برأينا الذي ارتضيناه، وقضينا به، وقد جاءت الرواية بها عن التوخحي الذي مر ذكره في أول كلامنا عن نسب النبي، وجاءت أخرى عن أبي عبد الله معاذ بن إسماعيل اللاذقي الذي قال إنه لقي النبي باللاذقية وابيه بالنبوة، واخذ بيعته لاهله أيضاً!! كما سترى

روى التوخحي (علي بن الحسين) عن أبيه الحسين التوخحي عن القاضي أبي الحسن بن أم شيبان الهاشمي الكوفي قال:

١ — «وقد كان النبي لما خرج إلى كلب وأقام فيهم ادعى أنه علوي حسني ثم ادعى بعد ذلك النبوة، ثم عاد يدعى أنه علوي إلى أن أشهد عليه بالشام بالكذب في الدعوتين، وحبس دهرًا طويلاً وأشرف على القتل، ثم استيب، وأشهد عليه بالتوبة واطلق»

٢ — وحدث التوخحي أيضاً عن أيمرئاس بن الحسين قال: حدثني أبو علي بن أبي حماد قال: «سمعت خاتماً بحلب يحكون — وأبو الطيب النبي بها اذ ذاك — أنه تنبأ بيادية السماوة ونواحيها إلى أن خرج إليه لؤلؤ أمير حمص من قبل الاخشيدية فقاتله واقتره، وشرّد من كان اجتمع إليه من كلب وكلاب وغيرها من قبائل العرب، وحبسه في السجن حبساً طويلاً، فاعتل وكاد أن يتف حتى سئل في أمره فاستتابه، وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها بيطان

ما ادعاء ورجوعه الى الاسلام ، وانه نائب منه ولا يعاود مثله واطلقه ^(١)
ثم هذا حديث معاذ اللاذقي نقله على طوله

٣ — « قدم ابو الطيب اللاذقية في سنة نيف وعشرين وثلاثمائة ، وهو لا عذار له ، وله وفرة الى شحمتي اذنيه ، فاكرمه وعظّمته لما رأيت من فصاحته وحسن سمته . فلما تمكن الانس بيني وبينه وخلوت معه في المنزل اغتاماً لمشاهدته ، واقتباساً من ادبه قلت :

والله انك لشابٌ خطير ، تصاح لمنادمة ملك كبير

فقال : ويحك !! اتدري ما تقول ؟ انا نبي مرسل

فظننت أنه يهزل ، ثم تذكرت اني لم أسمع منه كلمة هزل قط منذ عرفته

فقلت له : ما تقول ؟ فقال : — انا نبي مرسل فقلت : الى من مرسل ؟ فقال : الى هذه

الأمة الضالة المضلّة . قلت : تفعل ماذا ؟ قال : أملاً الدنيا عدلاً كما مائت جوراً قلت :

بماذا ؟ قال : بأدراار الارزاق والثواب العاجل لمن اطاع وأتى ، وضرب الرقاب لمن عصا وأبى ،

فقلت له : ان هذا امرٌ عظيمٌ اخاف عليك منه وعذلته على ذلك ، فقال بديهته

ابا عبد الإله ، معياداً ، إنبي خفي عنك في الهيجا مقامي

ذكرت جسم مطدبي ، وأني اخطر فيه بالهوج الجسم

امثلي تأخذ التكبات منه ويجزع من ملاقاة الحمام ؟

ولو برز الزمان إلي شخصاً لحضب شعر مفرقه حسامي

وما بلغت مشيتها الايالي ولا سارت وفي يدها زماني

اذا امتلات عيون الخليل مني فويل في التيقظ والمنام

فقلت ذكرت أنك نبي مرسل الى هذه الأمة ، أفيوحي اليك ؟ قال : نعم ! قلت : فأتل

علي شيئاً مما أوحى اليك . فأتاني بكلام ما مرّ بمسمعي احسن منه . فقلت : وكم أوحى اليك

من هذا ؟ فقال : مئة عبرة واربع عشرة عبرة . قلت : وكم العبرة ؟ فأتاني بمقدار اكبر من

الأي في كتاب الله تعالى . قلت : في كم مدة أوحى اليك ؟ قال : جملة واحدة . قلت : اسمع في

هذه العبرات ان لك طاعة في السماء ، فما هي ؟ قال : احبس المدرار ، لقطع ارزاق العصاة

والفجار ، قلت تحبس في السماء مطرها ؟ قال : إي والذي فطرها ! اما هي معجزة ؟ قلت : بلى

والله ! قال : فإن حبست المطر عن مكان تنظر اليه ، ولا تشك فيه ، هل تؤمن بي ، وتصدقني

على ما أوتيت من ربي ؟ قلت : إي والله . قال : سأفعل ، ولا تسألني عن شيء بعدها ، حتى

أتيك بهذه المعجزة ، ولا تظهر شيئاً من هذا الامر حتى يظهر ، وانتظر ما وعده من غير ان

(١) لهذا الحديث تمة فيها ذكر قرآن ابي الطيب وغير ذلك سنعرض له فيما بعد

تسأله . ثم قال لي - بعد ايام - : أَنَحِبُّ ان تظُر المَجْزَةَ التي جَرى ذِكْرُها ؟ قلت : لِي وَاللَّهِ
فقال لي : اذا ارسلت اليك هذا العبد فاركب معه الي ولا تأخر ، ولا تخرج معك احداً . قلت : نعم
فلما كان بعد ايام تبيمت السماء في يوم من ايام الشتاء ، واذا عبده قد اقبل فقال : يقول
لك مولاي : اركب للموعد فبادرت الي الركوب معه ، وقلت : اين ركب مولاك ؟ قال : الي
الصحراء . واشتد وقع المطر فقال : بادر بنا حتى نستتر من هذا المطر مع مولاي ، فإنه ينتظرنا
بأعلى تل لا يصيبه فيه مطر . قلت : وكيف عمل ؟ قال : اقبل الي السماء أول ما بدا السحاب
الاسود ، وهو يتكلم بما لا افهم ثم اخذ السوط فدار به في موضع ستنظر اليه ... واذا هو على تل
يمد عن البلد نصف فرسخ ، فأثبت اليه ، فإذا هو على التل لم يصبه من ذلك المطر شيء ، وقد
خضت في الماء الي ركة الفرس ، والمطر في اشد ما يكون . ونظرت الي نحو مئتي ذراع في
مثلها من ذلك التل ما فيه قطرة مطر . فسلمت عليه فرد علي السلام . فقلت : ابسط يديك . . .

اشهد انك رسول الله . فبسط يده فبايعته بيعة الاقرار بنبوته ثم قال

اي محل ارتقي اي عظيم اتيتي

وكل ما خلق الله وما لم يخلق

مختفراً في همتي كشعرة في مفرتي

واخذت بيته لاهلي ، ثم صح بعد ذلك ان البيعة عمّت كل مدينة الشام . . . وذلك بأصغر

حيلة تعلمها من بعض العرب وهي « صدحة المطر » بصرفه بها عن اي مكان احب بعد ان

يحوي بعضاً وينث في الصدحة التي لهم

قال ابو عبد الله : وقد رأيت كثيراً منهم بالسكون وحضرموت والسكاسك من اليمن يفعلون

هذا ولا يتعاطفونه ، حتى ان احدهم يصدق عن غنمه وابله وعن القرية فلا يصيبها شيء من

المطر ، وهو ضرب من السحرة . وسألت المتنبى بعد ذلك : هل دخلت السكون ؟ قال : نعم !

أما سمعت قولي

مأيت القطر اعطشها ربوعاً والآ فاسقها السم النقيما

أمسني السكون وحضرموتاً ووالدي وكندة والسيما

فقلت من ثم استفاد ما جوزه على طغام اهل الشام (وانت منهم يا ابا عبد الله اذن)

ثم قال ابو عبد الله هذا : وما كان يحرق به في البادية ، انه كان مشاء قوياً على

السير يسيراً لا غاية بعده ، وكان عارفاً بالفلوات ، ومواقع المياه ، ومحال العرب بها . وكان

يسير من حلة الى حلة بالبادية ، وبينهما مسيرة اربعة ايام ، فيأتي ماء فينسل وجهه وبديه

ورجليه ، ثم يأتي اهل هذه الحلة فيخبرهم ما حدث في تلك الحلة التي فارقها ويوم ان

الارض تطوى له . وسئل في تلك الايام عن النبي صلى الله عليه وسلم : فقال : اخبر بنبوتي حيث قال : « لا نبي بعدي » وأنا اسمي في السماء (لا)

ولما اشهر امره ، وشاع ذكره ، وخرج بأرض (سَلَمِيَّة) من عمل حصص في بني عدي (وظهر منه ما خيف عاقبته)^(١) قبض عليه ابن علي الهاشمي في قرية يقال لها (كوتكين) وأمر التجار ان يجعل في رجايه وعنقه قرمتين من خشب الصفصاف فقال المتني :

زعم المقيم بكوتكين بأنه من آل هاشم بن عبد مناف
فأجته مذ صرت من ابنائهم صارت قيودهم من الصفصاف

اتتهى حديث معاذ بن اسماعيل اللاذقي (ابي عبد الله الصديقي) الذي كان اول من صدق نبوة ابي الطيب وآمن به وأخذ بيعته لاهله !!
وما دنا قد اطلنا بذكر هذا الحديث فلا بأس عليك ان شاء الله - ان نقلنا لك مارواه ابو العلاء المعري ايضاً قال :

« وحدثني الثقة عنه حديثاً معناه انه لما حصل في بني عديّ وحاول ان يخرج فيهم قالوا - وقد تبينوا دعواه : ها هنا ناقة صعبة ، فان قدرت على ركوبها اقررنا انك مرسل ، وانه مضى الى تلك الناقة وهي رائحة في الابل فتحيل حتى وثب على ظهرها فنفرت ساعة وتكرت برهة ، ثم سكن نفارها ومشت مشي السمحة ، وانه ورد بها الحلة وهو راكب عليها فمجبوا له كل العجب وصار ذلك من دلائله عندهم

• وحديث ايضاً انه كان في ديوان اللاذقية ، وان بعض الكتاب انقلبت على يده سكن الاقلام فخرحته جرحاً مفرطاً ، وأن ابا الطيب قتل عليها من ريقه وشد عليها غير منتظر لوقته . وقال للمجروح : لا تحاها في يومك ، وعد له اياماً وليالي ، وان ذلك الكاتب قبل منه فبرى الجرح فصاروا يعتقدون في ابي الطيب اعظم اعتقاد ويقولون : (هو كحجي الاموات)

وحدث رجل كان ابو الطيب قد استخفى عنده في اللاذقية او في غيرها من السواحل : انه اراد الانتقال من موضع الى موضع ، فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ، ولقيهما كلبٌ الح عليهما في النباح ، ثم انصرف . فقال ابو الطيب لذلك الرجل وهو عائد : انك ستجد ذلك الكلب قد مات ، فلما عاد الرجل الى الامر على ما ذكر . . . ولا يمتنع ان يكون اعد له شيئاً من المطاعم مسموماً ، وألقاه له وهو يخفي عن صاحبه ما فعل . . . والخير يبق سُم الكلاب »

هذا حديث نبوته ونبوءاته ومعجزاته عند اكثر الرواة ، اما قرآنه فقد اجمعوا انه لم يبق

(١) في بعض الكتب هذه الزيادة

الأما زويه لك قال ابو علي بن ابي حامد — الذي مرّ آنفاً — :
 وكان (يعني ابا الطيب) قد تلا على البوادي كلاماً ذكر انه قرآنٌ أنزل عليه ، وكانوا
 يحكون له سوراً كثيرةً ، نسخت منها سورة ضاعت ، وبقي أولها في حفطي وهي :
 « والنجم السيار ، والفلك الدوار ، والليل والنهار ، إن الكافر لني أخطار ، امض على سنك ،
 واقف أثر من كان قبلك من المرسلين ، فإن الله قانع زيع من الحد في دينه (الدين) وصل عن
 سبيه (السبيل) » قال : وهي طويلة لم يبق منها في حفطي غير هذا
 وأنا لا أحب أن أتجاوز هذه النصوص إلى ما سواها ، إلا وقد نظرت فيها وبصّرت
 الفارىء بالتوائها وضعفها ووهنها ، وبآتيه ما استبطناهُ وقد قرر في نفسه ردُّ هذه المقالة التي نبز
 بها أبو الطيب ، وبذلك يقوم ردنا مقام البيّنة على ما أردناه — أصبنا أو أخطأنا
 لن نعود تارة أخرى إلى ما قدّمنا من ذكر التتوخي ثم روايته عن أبي الحسن العلوي
 وابن أم شيان الهاشمي ، ففي أول كلامنا نجدُ بعض الأدلة على وهن رواية التتوخي ، واستسقاطنا
 إياها ، ولا غنى لك عن العودة إلى تذكره عند هذا الحديث عن نبوة المتنبى
 يتسنا لك فيما مرّ ما بين أبي الطيب وبين العلويين ، وأن صاحبنا كان له عندهم ثارٌ قديمٌ هو
 الذي أراد أن يدركه فيهم ، وينال « حقه » منهم ، ورجح عندنا الاستنباط أن يكون أبو
 الطيب « علويّاً » منسوباً في نسبه وشرفه وجاهه ، وأنه كان يريد أن يظهر نسبه إلى العلويين
 ولكن عارضته دون ما أراد أهوالٌ وأحداثٌ ، فإذا جمعت هذا الرأي هنا ونظرت في النص
 الذي وقع لنا من التتوخي عن ابن أم شيان الهاشمي — وهو علوي كبير — ملكك الشكُّ وغلب
 عليك فيما روى فإنه لم ينس أن يذكر لنا فيها قال — لو صدق التتوخي في روايته عنه — أن
 أبا الطيب ادعى العلوية مرتين

أما حديث معاذ بن اسماعيل اللاذقي فنقد سنده لا يتيسر لنا لأن صاحبنا هذا اللاذقي مجهولٌ لم
 تقع له على ذكر ، ولكن مما لاشك فيه أن اللاذقية التي نسب إليها كانت لوقت أبي الطيب موطناً
 لفئة من العلويين ، ومحطاً لكثير من كبار الدعاة العلويين الذين أحدثوا أحداثاً عظيمة في
 التاريخ العربي كله . فلا بأس من أن تجعل هذا ذكراً مذكوراً وانت تبصر في اصل الرواية ،
 على وهنها وتضاربها وتهاك معانيها التي يفسد بعضها بعضاً كما سترى بعد
 فالحديث الاول وهو حديث ابن أم شيان الهاشمي عجيبٌ لا يفرغ من العجب من اختصاره
 وتداخله فهو رتب امر ظهور المتنبى على درجات ثلاث الاولى ادعاؤه العلوية ، والثانية النبوة ،
 والثالثة العلوية ايضاً . فاما ان يدعى العلوية ، ثم يعود فيدعي النبوة فهو قول لا بأس به ، ولكن
 العجب انه بعد هذا عقب على النبوة بلفظ التعقيب (ثم) فقال « ثم عاد يدعي أنه علوي » .

فالذي يدعي النبوة ويبيع بها كما يقول اللاذقي الصديق !! — لا يعقب على هذه الدعوى بالعلوية . فادعاء الرجل النبوة ثم انحطاطه منها إلى العلوية إكذاب لنفسه، وقرار منه بالخرقة على الناس والعبث بهم . ولا يكون ادعى النبوة ثم ينحط منها إلا بعد قتالٍ يرغم فيه على التسليم، ولا شك انه ان كان يعمل بصاحبنا ذلك ، لحبس لوقته قبل ان يتمكن من القيام بالدعوة الى نفسه مرة اخرى بين بني كلب فيدعي العلوية . ثم لو انه كان مطلقاً ، ورجع عن النبوة الى ادعاء العلوية ، لكان ذلك كافياً في تكذيبه وتحقيره عند من سئموا له بما ادعى من علويته بدءاً ، ونبوته بعد . فهذا وجه في ابطال هذا النص

أما حديث ابي علي بن ابي حامد — ولم نعرف الرجل — فهو حديث محكم لا يقع فيه هذا الاعتراض الذي قدمناه إذ اقتصر صاحبه على ذكر النبوة وحدها ، وما يأتيه التوهين إلا من قبل غرابته عما جرت عليه الاحكام في شأن من يدعون النبوة ، فيقول ابو علي ان لؤلؤاً امير حمص «استتابه ، وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها بيطان ما ادعاه ورجوعه الى الاسلام» اما ان يستتبه ويشهد عليه انه تائب فهذا لا بأس به وهو الحكم مع المتنبئين ، واما ان يكتب وثيقة عليه بيطان نبوته فهذا امر لامعنى له ، لان الوثيقة انما تكتب فيما يخاف من قبله معاودة الدعوى ، فتكون اقراراً مكتوباً مشهوداً عليه بالبطان من المدعي نفسه كدعوى المائكية في المروض، ودعوى العلوية « مثلاً » في النسب، فتكون الوثيقة حجة عليه اذا عاد ليُحاجَّ الناس فيما ادعاه بعد الاقرار بالكذب في الدعوى الاولى ، اما النبوة فالامر فيها على غير ذلك فان الرجل اذا ادعى النبوة ثم استتبع واشهد على نفسه بالكذب فيما ادعى ، ثم رجع بعد ذلك يدعيها مرة اخرى لم يكن يُنظر حتى يحاج الناس فيما يدعي ، ويقول لهم انكم لم تأخذوا علي وثيقة مكتوبة مشهوداً علي فيها بالكذب ، وانما يكون جزاؤه القتل من غير انظار ولا استتابة

فهذه الوثيقة التي ذكرها ابو علي — ان صح امرها — انما تكون قد اخذت عليه في دعوى العلوية لادعوى النبوة . فانت ترى ان نص ابن ام شيان فيه ذكر العلوية مرتين ، وان ذكر النبوة يكاد يكون مقحماً فيه ، و ترى ان نص ابي علي بن ابي حامد يرجح دعوى العلوية لادعوى النبوة ، فاذا قرنت هذا الى ما تمادينا في ذكره عن نسب المتنبئ وما اتينا به من الحجج في ترجيح نسبه الى العلويين ، لم تبعد عن الحكم بأن هذه الروايات انما يراد بها العلوية لا النبوة

اما ثالث الاحاديث — وهو حديث ابو عبد الله الصديق !! معاذ بن اسماعيل اللاذقي — فموجب كله وبطلانه يسر للتدبر ، ولولا ان كثيراً ممن كتب عن المتنبئ مرّاً به ولم يعرض له ، لتركناك بحكم بوضعه من سياقه ومدرجه دون ان نأخذ انفسنا بنقده . وانت اذا تدبرت الحوار

الذي زعمه ابو عبد الله هذا بينه وبين ابي الطيب ، لم تشك ساعة في ان الرجل كان يضع هذا الكلام وضماً ولا يرويهِ رواية . والعجب له !! — قد اتهم نفسه في مواضع من كلامه بقاء العقل وعمى البصيرة ، وسرعة التهور في التسليم

فهذا المسمى معاذاً كان ولا شك رجلاً مسلماً مدركاً يملك من العقل مقداراً يكفي — على الاقل — في الانصات له اذا حدثت ، والآن ليطل حديثه هذا من غير محاولة منا في ابطاله ... فان كان كذلك او اقل من ذلك قليلاً ، فما نظنه كان يصبر على الرجل حين ادعى النبوة كل هذا الصبر ، فيبادى في الحوار معه ثم يصف كلام فتى في السابعة عشر انه (ما مرَّ بسمعه احسن منه) ، فهذه اما ان تكون كلمة جاهل او كلمة وضاع يريد ان ينتقص من الرجل ، فهو يبيء لا تقاصه بامتداحه وتعظيمه . ثم كيف يعقل ان رجلاً مسلماً كان في عصر المتنبى ، ثم في مدينة كاللاذقية ويدل كلامه على بعض العلم ، يصدّق دعوى حبس المطر ويعدّها معجزة ، فضلاً عن تصديقه النبوة بعد موت محمد صلى الله عليه وسلم ! وأعجب من ذلك في الوضع الين انه يدعي هذا المسمى معاذاً انه اقر بنبوة المتنبى ثم بايعه لما رأى معجزة حبس المطر وأنه اخذ البيعة لاهله ايضاً على الايمان به ، فأى رجل مسلم غير جاهل ولا مفتون في ذلك العصر يتهور في الكفر بغير معجزة ولا بينة ، ومن عجيب سهو هذا اللاذقي في الوضع انه قال بعد ذلك تَوْأاً « يريد معجزة حبس المطر » « وذلك بأصغر حيلة تعلمها من بعض العرب » . فلو انه كان قد اتقن وضعه لزعم انه بقي على بيعة المتنبى والإقرار له بالرسالة الى ان رأى — بعد زمان — او سمع واستيقن ان الذي فعله المتنبى وزعمه معجزة له ، امرٌ مشهور عند بعض العرب يتعاطونه اذا كرههم المطر ثم يصف كما وصف انه « صدحة المطر » يصفونها به عن اي مكان يحبون بعد ان يحبون بعضاً وينفثون في الصدحة التي لهم الخ فكفر بنبوة المتنبى لذلك وتاب ورجع الى الاسلام . ثم من ضعف وضع هذا اللاذقي انه زعم انه كان قد رأى كثيراً من اهل السكون وحضرموت يفعلون صدحة المطر ولا يتعاطونها ، فسأل المتنبى : هل دخلت السكون ، قال : نعم ! وما دام اللاذقي هذا كان قد عرف هذه الصدحة ، فكيف آمن بنبوة صاحبه ولا دليل له على نبوته غيرها ، وهي مشهورة في اليمن معروفة معمول بها كما يقول

وأعجب من هذا انه يدعي ان دعوة المتنبى قد عمت كل مدينة بالشام وبوبيع له بها ، كيف يكون هذا ؟ والشام اذ ذاك منزل من منازل أئمة الدين والعلم ، وكان اكثر اهلها لا يتخلفون عن صلاة ، ولا يزال بين ظهرانيهم عالم يقرأ في مجلسه ، او واعظ يعظ في حلقة ، او خطيب يخطب من منبره ، ثم يؤمنون بدعوى رجل لا تؤيده معجزة بيانية ، ولا خارقة كونية ، وان زعمنا ان اللاذقي قد آمن بالمتنبى لصدحة المطر ، افتؤمن له كل مدينة بالشام وتبايعه لهذه الضلالة

او هذه الاكذوبة التي لا تمقل . ليكن اللاذقي رجلاً لا عقل له ، أفىكون اهل الشام كلهم هذا الرجل ؟!

ويقول اللاذقي للمتنبى يخوفه مما يقول به من النبوة «ان هذا امرٌ عظيم اخاف عليك منه» فيجيبه المتنبى بشعر لا ذكر للنبوة فيه ، وانما هو شعر رجل مقاتل يريد الحرب ، لا نبي يريد ان يؤمن الناس به ، ثم ان الذي قاله في الشعر يدل على غير ذلك فانه قال

ذكرت جسيمَ مطلي ، واني اخاطر فيه بالمهج الجسام

وليست النبوة مطلباً يطلب ويخاطر فيه بالنفس والنفيس ، انما النبوة امر من الله لمن اوحى اليه ان يصدع بما يؤمر به ، فيكون عمله هداية الناس بالدين او بالشدة كما يشاء الله ، فلا يكون ذلك مطلباً للنبي يريد ان يناله ، بل يكون امراً يجب ان يطيعه ويعمل به ، وكذلك الايات التي انشدها

أي محل أرقتي اي عظيم أتقي

فأقول فيها قريب من هذا . اما البيتان الاخيران فهما الدليل على تلفيق الرجل فالبيت الاول هذا «مأست القطر» اول قصيدة للمتنبى ، والبيت الثاني في آخر القصيدة ، ولا رابط بين البيتين حتى ينشدهما المتنبى معاً في الاستدلال على دخول السكون أو حضرموت ، وكان يكفيه البيت الثاني في الاستدلال لما اراد . ثم ان المتنبى بغير شك لم يدخل اليمن في حياته كلها من يوم ولد إلى يوم مات . أما الذي ذكر في الايات فهو كما قدمنا لك أساء خطط لاهل اليمن بالكوفة التي ولد بها أبو الطيب

وأيضاً فإن هذه القصيدة التي منها هذان البيتان في مدح علي بن ابراهيم التوخي وكان مدحه سنة ٣٢٣ بعد خروجه من السجن أو بعد رجوعه عن الكوفة إلى الشام سنة ٣٢٦ على ما حققناه (١) وهذا الذي ذكره اللاذقي في حديثه كان سنة ٣٢١ قبل أن يقبض عليه . فهذه كلها أدلة يذة على وضع القصة وتلفيقها ، وانها وضعت على الأرجح بعد وفاة المتنبى

ومن اكاذيب هذه الرواية أيضاً دعواهم أن المتنبى كان عارفاً بالفلوات ، ومواقع المياه ، ومحال العرب بها ، فذلك لا يتيسر إلا لمن ولد بهذه البلاد ونشأ بها ، والمتنبى دخل البلاد في السنة التي يروي فيها اللاذقي هذا الحديث وحبس في السنة نفسها ، فما كان له ان يعرف مجاهل البادية ومواقع مياهها ومحال اهلها كما زعم في قلة من الوقت . فانظر الآن ما تقول في هؤلاء الوضاعين ! أما معجزات المتنبى فلا تتكلم فيها لان بطلانها بين وفسادها مكشوف ، ولقد علمت هذه

(١) الرأي هو هذا الاخير كما ستري بعد في موضعه ، ولا يصح عندنا غيره

الاحاديث التي رويناها لك انهم كانوا يريدون أن يتهموا الرجل بما هو منه برائياً ، فأولى أن تكون المعجزات التي رواها أبو العلاء ضرباً من الكيد له وتأيداً لاتهمم الرجل بدعوى النبوة أما قرآنه فهو كما ترى ليس بقرآن ، وإنما هو « ضربٌ من الهذيان » ، والمعجب أن يبايع له اللاذقي ولا يحفظ من قرآنه شيئاً ثم يصفه فيقول « ما سرّاً بمسمى أحسن منه » ثم الاعجب أن تم بيعته كل مدينة بالشام كما قال ، ولا يبقى من قرآنه إلا هذه الحماقة الصغيرة التي رووها ، يزعم أبو علي بن أبي حامد أنها بقيت في حفظه ولا ندري لماذا أصيب المتنبى بهذا العجب !! في مسألة نسبه ، كانت نسبه الى جوني التي كان يخفيها خوفاً لا يعرفها إلا التوخي وابن ام شيبان ، وأبو الحسن العلوي ، وقرآنه لا يحفظه إلا أبو علي بن أبي حامد واللاذقي ثم لا يحفظان مما منه إلا قطعة بعينها مع ان اللاذقي قد ذكر تعدادها مئة عبرة وأربع عشرة عبرة ، واتفقا معاً على حفظ هذه القطعة ونسيان ما بقي من هذا العدد

وبعد فإن احداً لا يشك في ان الرجل (أبي الطيب) كان قد سجن لاسر ما ، ولكن حرص هؤلاء الذين روينا اقوالهم على ان يجعلوا حبه من أجل النبوة يجعلنا نرى انهم جعلوا مسألة النبوة غطاءً يسترون به حقيقة ما قام من اجله ابو الطيب فقبض عليه . وبين على مذهبنا في نسب المتنبى ان الرجل حبس من اجل دعوى العلوية التي ذكرها الرجل الطيب ابن ام شيبان واقحم عليها النبوة ليجعل دعواه في علويته كذباً ، فان الذي يدعي النبوة لا يتوزع عن ادعاء العلوية ، ثم ان هذا الرأي من ابن ام شيبان — ان صح عنه — يزيدنا يقيناً بان الرجل كان يعرف من امر نسب المتنبى شيئاً ويريد ان يخفيه وأن لا يظهر عليه احد من الناس ومسألة القبض على المتنبى لها عندنا سياق تاريخي آخر استبطناه ، ولكن يحسن بك ان تهنيء في نفسك مرة اخرى ما قلنا به من نسبة المتنبى الى العلوية ، وما افضنا فيه من القول في عدة مواضع ليسهل عليك ان تعيننا على تحقيق ترجمة الرجل . هذا ونحن والقارىء في هذا الموضوع سواء ، فمن تين له وجه او توجه له رأي ، فليكتب لنا به مشكوراً



كتابخانه و مركز اطلاع رساني
بنیاد و ايرتة المعارف اسلامي

دَعْوُكَ لَمَّا رَأَى الْبَلَاءَ
وَأَوْهَنَ رَجْلِي ثِقَلِ الْحَدِيدِ
وَقَدْ كَانَ مَشِيهُمَا فِي الْعَالِدِ
فَقَدْ صَارَ مَشِيهُمَا فِي الْقِيُودِ
وَكُنْتُ مِنَ النَّاسِ فِي مَحْفِلِ
فَهَا أَنَا فِي مَحْفِلٍ مِنْ قُرُودِ
فَلَا تَسْمَعَنَّ مِنَ الْكَاشِحِينَ
وَلَا تَعْبَأَنَّ (بِعَجَلِ الْهُودِ)
وَكُنْ فَارِقًا بَيْنَ دَعْوَى (أَرْدَتِ)
وَدَعْوَى (فَعَلَتْ) بِشَاوِرِ بَعِيدِ

قلنا ان المتني في اوخر سنة ٣٢٠ اعترزم الخروج من الكوفة ، وانه عقد قلبه على احداث حدث لعله ان يصيب من ورائه ما يتنغي وما يؤمل ، ويدرك به تاراً في قوم ، ليشتي به صدر جدته و صدره ، ثم انقد عزمه في الرحلة عن الكوفة الى بغداد ومن ثم اتخذ طريقه مصعداً الى ديار ربيعة بين النهريين الى الموصل ونصيبين ورأس العين وانحدر بعد الى الشام فقبض عليه هناك وكان مرور المتني برأس عين في اوائل سنة ٣٢١ على الارجح وفي تلك السنة حدث حادث كان من جرائه ان قتل ابو الاغر بن سعيد بن حمدان (ابن عم سيف الدولة) ، وذلك ان بني ثعلبة اجتمعوا الى بني اسد القاصدين الى ارض الموصل ومن معهم من طيء فصاروا يداً واحدة على بني مالك ومن معهم من ثعلب (وهم قوم بني حمدان) ، وقرب بعضهم من بعض للحرب . فركب ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان (اخو سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان) في اهله ورجاله ومعه ابو الاغر بن سعيد بن حمدان للصاح بينهم ، فتكلم ابو الاغر فطغنه رجل من حزب بني ثعلبة فقتله ، فحمل عليهم ناصر الدولة ومن معه فانهزموا ، وقتل منهم وملكيت بيوتهم ، واخذوا حريمهم وأموالهم ، ونجوا على ظهور خيلهم . وتبعهم ناصر الدولة الى الحديثة (بقرب الموصل) فلما وصلوا اليها لقبهم يانس غلام مؤنس وقد ولي الموصل وهو مصعد اليها ، فانضم اليه

بنو ثعلبة وبنو اسد وعادوا الى ديار ربيعة . وانقطع عند هذا التاريخ الذي بين ايدينا في كتب التاريخ ولكن بعض رواة ديوان المتنبي او شراجه يقولون ان المتنبي مر برأس عين في سنة احدى وعشرين وثلاثمائة وقد اوقع سيف الدولة بمرو بن حابس من بني اسد ، وبني ضبة وبني رياح من بني تميم فمدحه بقصيدته التي اولها

ذكر الصبا ومراتع الآرام جلبت حامي قبل يوم حامي

وذكر ما كان من امر سيف الدولة مع هؤلاء الذين ذكرناهم من قبائل العرب النازلين في ارض الموصل وما جاورها ، فينبئ ان لقاء سيف الدولة لهؤلاء الخارجين من بني اسد وبني ضبة وبني رياح كان على أثر قتالهم ابن عمه (ابا الاغر بن سعيد بن حدان) ، وان مدح المتنبي سيف الدولة قد احفظ عليه بني اسد وبني ضبة حتى كان من امرهم بعد مبعاه ما كان — على ما نذهب اليه — من أنهم قتلوه بالعراق كما سيأتي بعد

ويقول رواة الديوان أن أبا الطيب لم ينشد سيف الدولة هذه القصيدة ، ولا نظن أن ذلك يكون دليلاً على أنه لم يلق سيف الدولة في سنته تلك ، بل الأرجح عندنا أنه لقيه وحدته ، واتصل بينهما الود قليلاً قليلاً ، وفي القصيدة آيات تدل على أن سيف الدولة (وكان صغيراً في مثل سن المتنبي) افضل عليه بعض الافضال واكرمه واجبه . والعجب ان تكون هذه القصيدة وهي من اول قصائده في حياته ^(١) تدل على حب بلخ لسيف الدولة ، يقرب من حبه له بعد ، والذي تدل عليه مدائحه التي استفاضت بعد اتصاله به في سنة ٣٣٧ كقوله مثلاً

وتعذر الاحرار صبر ظهرها ^(٢)	إلا إليك علي ظهر حرام
(أنت الغريبة) في زمان أهله	ولدت مكارمهم لغير تمام
أكثرت من بذل النوال ولم تزل	علماً على الافضال والإينام
صغرت كل كبيرة ، وكبرت عن	لكأنته ، وعددت سن غلام
ورفلت في حلل الثناء ، وانما	عدم الثناء نهاية الاعدام
عيب عليك ترى بسيف في الوغى ،	ما يصنع الصصام بالصصام ؟
ان كان مثلك كان او هو كائن	فبرئت حينئذ من الاسلام

وهذا غلو عجيب ... وانت اذا رجعت إلى مدائح المتنبي الى ان اتصل بسيف الدولة في سنة ٣٣٧ لم تجد دلالة الحب والتعظيم بادية في مثل هذه المعاني ، وغيرها مما لم نذكره من القصيدة . ولعل المتنبي كان قد رأى من سيف الدولة في ذلك العهد مثلاً من امثلة المروءة والفتوة التي كان

(١) كانت سن المتنبي اذ ذاك ١٨ سنة (٢) يعني ظهر ناعته

يفقدها في رجال عصره ، وانت ترى ان المتني في صغره كما يتنالك اول كلالنا - كان يرى الرُّجولة والفتوة المثل الاعلى الذي يعلّق به طرفه . وذلك لما انطوى عليه قلبه من حب انجد وطلب الثار ، ولما في نفسه من الثورة على زمنه واهله ، ومن ظلموه وارادوا به شرّاً وذلّاً ومهانة وعجيب ايضاً ان لا يمدح المتني واحداً من الخلفاء وابنائهم وهم بالعراق ، ولا احداً من كبار العراقيين من الامراء ثم يعمد الى مدح بني حمدان وحدهم ، ولم تكن شوكتهم بعد قد بلغت مبلغ غيرهم من الامراء ، فذلك دليل على انه لم يمدحهم ليعطاء وحده ، بل مدحهم لامرٍ آخر لا تكادُ تبيّن إلا أطرافاً منه ، ولعلّ بني حمدان كانوا يعرفون من أمر المتني شيئاً ، وكانوا يصلون جدته في حال نكبتها ، فلذلك ذكر المتني أبوي سيف الدولة في القصيدة وطلب لقبريهما السقيا ، وقد كان له مندوحة عن ذكرهما ، وذلك قوله

صلى الإله عليك غير مودّع وسقى ترى أبوينك صوب غمام

وفي مدحه لبني حمدان أو سيف الدولة وإخوته وأبويه على التحقيق ما يرجح ذلك

قوم تفرست المنايا فيكم فرأت لكم في الحرب صبر كرام

تالله ما علم امرؤ لولاكم كيف السخا ، وكيف ضرب الهام

وعندنا أن هذه القصيدة قد أثبتت في صدر سيف الدولة محبة هذا الفتي العربي الطموح

الثائر الذي لا يستقر ، وكان توافقهما في السن^(١) والفتوة قد جمع بين قلبهما ، ولولا ما كان

في صدر المتني من الاماني التي لا تهدأ ولا تقتر ، لبقى معه ، ولولا ما كان فيه سيف الدولة من

مثل ذلك ، ومن أهنته الى حرب بني أسد وبني ضبة ، لغزم على صاحبه في الرفقة في الحيل

والترحال ، ولكن أراد الله شيئاً فكان

وخرج المتني من أرض بني حمدان ، ومن جوار سيف الدولة خاصة إلى عزيمته بالشام .

وبدأت الحوادث تأخذه أخذاً حتى رمت به في سجنه ، ولم يكن المتني لذلك العهد مغموراً

مجهولاً كما يذهب إليه أكثر الكتاب ، بل كانت قصائده قبل مدخله إلى الشام قد أثبتت عايه

عُيون الدولة العباسية وجواسيسها ، وأطراف العلويين الذين هضموه وظلموه ، ونظرات

العلويين الفاطميين أيضاً ، وكانت دعوة الفاطمية قد نفذت في بلدان العربية في تكلمها واستنارها ،

مع قوتها وحصافة القائمين بالدعوة اليها ، وما كان لهم من المذاهب في التدخل في شؤون

السياسة تدخلاً حكماً سرّياً ، يترفقون له ليصلوا إلى ضرب الخلافة العباسية والقضاء عليها ،

وإقامة الخلافة العلوية الفاطمية

وكان الذي أمسك العيون على المتني فيما نذهب اليه ، أنه قبل ان يلتقي سيف الدولة في المرة

(١) ولد المتني سنة ٣٠٣ وولد سيف الدولة في تلك السنة

الاولى سنة ٣٢١ وكان في طريقه بأرض العراق قال من الشعر ما وقع إلى هؤلاء ، فأفهمهم اليه
 فن ذلك ماروي من أن أبا سعيد الجيمري عدله على تركه لقاء الملوك وامتداحهم فقال له
 أبا سعيد جنب العتابا قرباً رأي أخطأ الصوابا
 فإنهم قد أكتروا الحجابا واستوقفوا لردنا البوابا
 وإن حد الصارم الفرضابا والذابلات السمر والعرابا
 ترفع فيما بيننا الحجابا

فقل هذا القول لا يذهب باطلاً عند أصحاب الامر في الدولة ، ومن يضعون عيونهم على
 سياسة العصر ودسائسه ، وقد كان عصراً مملوئاً بكل عجب من الدعوات الخفية ، والثورات
 السرية التي لا يخططها مطلع على تاريخ تلك الفترة من العصر العباسي . ويتسن من شعر المتبي
 الذي وقع في تريننا لديوانه في هذه الفترة أنه حين دخل العراق لتي بض الكيد على أثر ما عرف
 عنه من الثورة القائمة في صدره ، ودليل ذلك قوله

رماي خساس الناس من صائب استه . وآخر قطن من يديه الجنادل
 ومن جاهل بي ، وهو يجهل جهله ، ويجهل علمي أنه بي جاهل
 ويجهل أي — مالك الارض — مصر — وأي — على ظهر السماكين — راجل

ولم يكف صاحبنا بذلك بل خرج الى ذكر نفسه وصفها ، وعرض بما يضر من الخروج

ابتغاء لما يؤتى من الثار أولاً وما ساء (المجد والعلی) تالياً . فقال

تحقر عندي همتي كل مطلب . ويقصر في عيني المدى المتناول
 وما زلت طوداً لا تزول مناكبي الى أن بدت (للضم) في زلازل

يخيّل لي أن البلاء سامعي . وأي فيها ما تقول العواذل
 ومن يبع ما أبغي من المجد والعلی . تساوى الحايبي عنده والمقاتل
 (ألا ليست الحاجات الآ نفوسكم . وليس لنا الا السيوف وسائل)
 (غثاة عيشي أن تفت كرامتي . وليس بفت أن تفت الما كل)

ولا يلفتك ما نحن فيه عن أن تعود الى ما ذهبنا اليه في أمر نفسه ونكته الاولى وهو
 صغير ، لتعلم سر القول في قوله (الى أن بدت للضم في زلازل) فهو يردك الى ذكر المشكلة
 القائمة في نفسه والتي وصفناها لك على ما وقفنا اليه ، إذ أنه هذا الشرط قد ضمن لك معنى ما
 يريد من أنه كان مغلوباً على أمره ، محكوماً عايه بأمره كنه ظلم وضم فلما بلغ مبلغاً ، زلزل هذا الضيم
 وقد حاول من صدره مخرجاً على انه كان — كما وصف نفسه — رابط الجأش ثابت النفس

ثبوت الحيل على ما يعمل تحته من العوامل البركانية التي تبتغي مخرجاً بالانفجار
دَعَّ ذَا — ونعود الى شعره في الفترة التي نحن فيها من تاريخه ، فكان مما قاله في العراق
ايضاً قصيدته التي اولها « ضيف ألم برأسي غير محتشم » وتقل اليك طرفاً منها لتدبره على
ما رسمنا يقول

ليس التعلُّل بالآمال من أربي ولا القناعة بالاقلال من شيبي
ولا اظنُّ بنات الدهر تركني حتى تسدَّ عليها طُرُقها همي

سيصحبُ النصلَ مني مثلُ مضره
لقد تصبرتُ حتى لاتِ مصطبر
لا تُركنُ وجوه الحيل ساهمةً
بكلِّ منصلتم ما زال منتظري
تسي البلاد بروق الجوّ بارقي
ردي حياض الرّدى يافس وازكي
(ان لم أذكر على الارماح سائلةً
(ايمك الملك — والاسياف ظامئة
من لورآني ماء مات من ظمإ
ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً
فان اجابوا فما قصدي بها لهم

وينجلي خبري عن صمة الصم
(فالان أحجم حتى لات مقتحم)
والحرب اقوم من ساق على قدم
(حتى أدلت له من دولة الخدم)
وتكتني بالدم الجاري عن الديم
حياض خوف الرّدى للشاء والنعم
فلا دعيت ابن ام المجد والكرم
والطير جائئة — لحم على وضم)^(١)
ولو عرضت له في النوم لم يئم
(ومن عصي من ملوك العرب والعجم)
وان تولوا فما ارضى لها بهم

فهذا الذي اثبتنا لك من شعره في القصيدتين ، وما صرح به فيهما عن آماله وآرايه ، وعن
رأيه في الدولة العباسية التي ملك زمامها العجم والديلم والترك بمن كانوا من خدم الخلفاء ، وعن
رأيه في الخليفة الضعيف الذي لا يملك من أمر نفسه شيئاً ثم يعبد في نظر شعبه ملكاً مملوكاً
تعطى له المقادة ، وتصرف اليه الطاعة بالاذعان والتسليم ، وما يتجلى في كلماته من ارادة التغلّب
والثورة على الدولة عربها وعجمها ، كل ذلك ولا شك جلب على صاحبنا على صفه اهتمام القائمين
بأمر الدولة من الولاة والدعاة من العرب والعجم والترك والديلم ، وأصحاب الدعوة العلوية
والدعوة الفاطمية

(١) (لحم على وضم) جملة يكنى بها عن الضعيف الذي لا ناصر له كالرأفة التي لا حامي لها ، وهذه الكناية
فاعل قوله (ايمك الملك) ، والبيت الثاني بدل من قوله « لحم على وضم »

فلما كان اتصاله ببني حدان في سنة ٣٢١ ومدهحه لهم — دون غيرهم من الولاة والامراء أمثالهم ، والمنافسين لهم والحاقدين عليهم ، والمريدين الإيقاع بهم لما عرفوا به من الصراحة من الحكم ، والدهاء في السياسة ، والمصيبة للعريّة الصريحة ، وبنضهم لحكام الاعاجم الذين كانوا هم أصحاب الامر والنهني في الدولة كلها — ازداد اهتمام هؤلاء بالفتى العربي (المتبي) وردوا أنظارهم اليه ، وأدركوا أن هذا الناثر الشاعر البليغ سيكون له شأن أي شأن لو ترك غير مراقب ولا مأخوذ عليه السبيل التي يعني ، والامر الذي يهدد به ، فأجمعوا على الإيقاع به حتى لا يستفحل أمره ، ويتسع عليهم الخرق من قبلكه . فلا يملك له الرافع مرقعة

ورحل صاحبنا من (رأس عين) حيث مدح سيف الدولة متخذاً طريقه إلى الشام ماراً بجران ثم منج ثم أنطاكية واللاذقية وحماة وحمص وبعبك ، وتردد بين هذه المدن حتى قبض عليه . وكانت هذه البلاد نفسها منازل من منازل الدعاة العلويين الذين كانوا أصحاب سياسة ودهاء في دعوتهم إلى قلب الخلافة العباسية ، وإقامة الخلافة العلوية الخالصة ، وكانت الاعاجم في الشرق ، والموالي الذين بلغوا غاية السلطان في خدمة الخلافة العباسية يدأ مع العلويين على الدولة العباسية ، وكانت هذه البلاد أيضاً مجالاً للدعاة الفاطميين أصحاب الحشوش والسلطان بالمغرب ، وكان هؤلاء الدعاة يسعون جهد السعوي لضم العلويين إليهم واستمالة الولاة على اختلافهم إلى مناصرتهم ليم لهم دخول الشام دون معارضة بمد فتح مصر — وكانوا يعدون له العدة — ثم يقفوا وجهاً لوجه حبال الدولة العباسية بالعراق ، وكان قد تم لهم أمر عظيم في ما وراء دجلة والفرات ، وبذلك تسقط الدولة العباسية ، وتقوم على انقاضها الدولة العلوية الفاطمية

وكأني بالمتبي في طريقه يظهر في القبائل والمدن أمر نفسه ، ويذيع بينهم أنه علوي الأصل شريف النسب ، محتملاً لذلك بالدهاء ، مجتهداً في اتخاذ العَضد قبل أن يعلن أمره إعلاناً صريحاً لثلاث يواقعه العلويون وينزلوا به كيدهم الذي يكيدون له . دار دورته في البلاد التي ذكرناها وأمره إلى علو ما عرف من فصاحته وبلاغته ، وحسن سمته ، وجمال هديه ، وتوقد ذكائه ، وما يمتاز به من حسن المعاشرة ، ولطيف المتأدبة مع سعة العلم ، ودقة الفهم له ، وكان في القبائل البادية أظهر أمراً ، وأشد عضداً ، حتى كان آخر امره ببني عدي وبني كلب ، ففشا ذكره بينهم ، وبايعوه على العون له ، في الدعوة إلى رد الحكومة إلى العرب دون الاعاجم . وكان ظهوره في بني عدي هو الذي جلب عليه السجن والشقاء

ذلك أن بني عدي ^(١) هم قوم بني حدان ، فكان ظهوره هناك ، ولقاؤه قبل ذلك سيف

(١) هم بنو عدي بن اسامة بن مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن (تلقب) ، وينتهي إلى عدي

هذا نسب بني حدان

الدولة ومدحه بني حمدان عامة — سبياً في تيقظ ولاية (محمد بن طفج الاخشيد) وكان على دمشق ، ولم يكن ظهر امره بمصر بعد ، وكانت بين بني حمدان والاكشيديين الاتراك المتحصين للدولة العباسية ، عداوة جابها المنافسة ، وكان سيف الدولة مخصوصاً بها وحده دون بني حمدان لما ظهر من قوته على صفر سنه ، وجبه في توسع سلطان بني حمدان حتى يضم الشام وما يتبعها الى ولايته وولاية اخوته . فلا بد اذن للاخشيديين من مراقبة هذا الذي مدح بني حمدان ، وأحدث حدثاً في القبائل التي كانت لهم موالية ، خشية ان يكون موقداً من قبل سيف الدولة للقضاء على مطامع الاخشيديين في الاستيلاء على الشام ومصر

وأيضاً ، فان دعاة الفاطميين الذين كانوا بالشام نظروا الى ذلك ، وخافوا ان يكون موقداً من قبل سيف الدولة وبني حمدان ، وكان بنو حمدان قد استمعوا على الدعوة الفاطمية مع انهم كانوا من شيعة العلويين ، وامتناع بني حمدان على الدعوة الفاطمية كان هو السبب في مناهرتهم للخليفة العباسي ومحققهم بخدمته لما يعرفون من ان دعوة الفاطميين كانت قد ضمت اليها اكثر ولاية الاعاجم الذين كانوا يحكمون بلاد الخلافة ما وراء القرات وفي العراق نفسه . وكان هذا هو السبب ايضاً في العداوة المتقدمة بين بني بويه وبني حمدان فيما بعد وخاصة سيف الدولة ، فان بني بويه كانوا علويين فاطميين

فاجتمعت على المتنبى عيون الفاطميين ، وعيون العلويين ، وعيون الدولة القائمة في الشام فلما ظهر في بني عدي ارسلاوا في القبض عايه ، فطاردوه من بلد الى بلد ، وكان يستخفي منهم ، حتى وقع اخيراً في يد (ابن علي الهاشمي العلوي) في قرية يقال لها كوتكين^(١) ، فقبض عليه وأمر النجار بأن يجعل في رجايه وعنقه قرمتين من خشب الصفصاف فقال له المتنبى يتين قد ذكرناهما آنفاً وبقي المتنبى في السجن من اواخر سنة ٣٢١ او اوائل سنة ٣٢٢ الى سنة ٣٢٣ ثم اطلق وكان المتنبى في اول امره مستخيفاً بالسجن ، لما يأمل من بلوغ خبره الى سيف الدولة ، فان بني عدي قوم سيف الدولة — كما يتوهم — لن يتركوه في ايدي هؤلاء الا ان يحملوا خبره الى بني حمدان فيخف بنو حمدان لنتهم في دخول الشام . ولكن نية بني حمدان تأخرت طويلاً فان سيف الدولة لم يهدد اطراف الشام بمساكره الا بعد ذلك بزمن طويل ومما يدل على استخفافه بالسجن في اول امره ما رووا من ان ابا دلف بن كنداج — سجانه — اهدى اليه هدية وهو معتقل بمحص ، وكان قد بلغه انه ثلثه عند الوالي الذي اعتقله ، فكتب اليه أهون بطول الثواء والتلف والسجن والقيد يا ابا دلف (غير اختيار قبلت برك بني) والجوع يرضي الاسود بالحيف

(١) لعلها كانت قرية من (سلية) وهي قرية من أعمال حمص

كن ايها السجن كيف شئت فقد وطنت للموت نفس معترف
لو كان سكاني فيك منقصة لم يكن الدر ساكن الصدف
وفي هذه الايات تقف كبرياؤه كما هي لم يأخذ منها عذاب السجن وشقاؤه شيئاً . حتى انه
ليقول للذي ييره في سجنه (غير اختيار قبلت بك) ، ولو لا ما انا فيه من العذاب لرددت
عليك هديتك غير حافل بك ولا بها . ثم ينزع المثل على عادته (والجوع برضى الاسود بالحيف)
وهي سخرية جديدة مؤلمة

فلما طال عليه الامد في السجن لجأ الى الحيلة في الخروج منه ، فكتب الى ابن طنج
يستعطفه ويفقد ما رمي به من ارادة الخروج على السلطان فكان مما كتب

ييدي ايها الامير الارب لا لشيء الا لاني غريب
او لام لها اذا ذكرتني دم قلب بدمع عين يذوب
(ان اكن قبل ان رأيتك اخطأ ت فاني على يدك اتوب
عائب عابني لديك ومنه خلقت في ذوي العيوب العيوب)

الآن سمي الفاطميين والعلويين في ابقائه في السجن ، وما اشرنا اليه من خوف والي
السام من الحدث الذي احده ان يكون من قبل بني حمدان — لم يصغ اليه سمع الامير فبقي في
سجنه الى سنة ٣٢٣ . وقد رويت له القصيدة التي كانت السبب في اطلاقه وفيها اشارة إلى كل
هذا الذي ذكرنا لك ومحسن هنا ان نلم لك بعضها لتبين ما أرحناك من التاريخ

يقول المتنبى يصف الامير

ولو لم أخف غير اعدائه عليه لبشرته بالخلود
رمى (حلباً) بنواصي الخيول وسمر يرقن دماً في الصميد
ويض مسافرة ما يقسمن لا في الرقاب ولا في العمود
يقدن الفناء غداة اللقاء إلى كل جيش كثير العديد
فولسى بأشباعه (الحرشني) كشاء احسن بزأر الاسود
فن كالامير بن بنت الامير او من كآبائه في الجدود

والذي تنبها له هنا انه ذكر في هذه القصيدة (حلباً) و(الحرشني) وقد عينا بالبحث عن
الحادثة التاريخية التي نستطيع بها ان نبين السنة التي قيلت فيها ، ثم وفقنا الله الى تفسير ذلك
بالاستنباط . ففي جمادي الآخرة سنة ٣٢٢ سار الدُّمستق (قرقش) في خمسين الفاً من الروم
فنازل ملطية^(١) وحصرها مدة طويلة حتى هلك اكثر اهائها بالجوع ثم فتحها وهدم سورها وقصورها

(١) بلدة المذكورة مشهورة في ديار ريمة على حدود بلاد الروم في ذلك العهد

وضرب خيمتين على احدهما صايب ، وقال : من اراد النصرانية انحاز الى خيمة الصايب ليرد عليه اهله وماله ، ومن اراد الاسلام انحاز الى الخيمة الاخرى وله الامان على نفسه ، ويواجه مأمته ، فانحاز اكثر المسلمين الى الخيمة التي فيها الصايب طمعاً في اهلهم واموالهم ، وسير مع الباقيين بطريقاً يباغهم مأمهم، وفتحها بالامان . ثم ملكوا (سميساط) وخرّبوا الاعيان واكثروا القتل وفعّلوا الافاعيل الشنيعة (وصار اكثر البلاد في ايديهم) ، وسكت المؤرخون.... وظاهر أن والي الشام وهو اذ ذاك محمد بن طفج الاخشيد لم يكن ليصبر على ذلك ، فلما امتد الدمستق بجيوشه وقصد حلب ، خرج اليه هو او بعض من انقذه لقتاله فردّه عن التوغّل وانقلب الدمستق هارباً ولم يدخها . وقد جعلنا هذه الحادثة تاريخ القصيدة لانها توافق ما اثبتنا من تاريخ المتني ، ثم لما ذكر من امر حلب ، ثم لذكر هذا الحرشي . والحرشي ، هو ملك الروم لانهم ينسبون ملوك الروم الى جبل بيلادهم يقال (خرشنة) ، وتكون هذه القصيدة لذلك مما كتبه ابو الطيب الى محمد ابن طفج الاخشيد التركي في اواخر سنة ٣٢٢ او اوائل سنة ٣٢٣

واما قول المتني في هذه القصيدة يخاطب ابن طفج

وقيل عدوتُ على العالمين بين ولادي وبين القمُودِ
فمالكَ تقبلُ زورَ الكلامِ وقدرُ الشهادةِ قدرُ الشُّمُودِ
فلا تسمعنَّ من الكاشحين ولا تبأنَّ (بعجل اليهودِ)
وكن فارقاً بين دعوى (أردت) ودعوى (فعلت) بشأو بعيدِ

فقد ذكر في البيت الاول أنه وهو رضيع لم تتم له القوة على الاستمسك في قعدته ، كان قد اتهم بالخروج على السلطان ، وهذا لم يحدث ولا شك ، وإنما هو إشارة لما كتبتنا عنه في نسبه من النكبة التي حلت به وبجده من نفي النسب العلوي الشريف عنه ، ومراقبة العلويين لجده خوف أن يبدر منها ما لا يحبون ، فجعل صاحبنا تلك المراقبة لنفسه — إذ لم يفعلوا بها ذلك إلا من أجل نسبه هو إلى العلويين . والبيت الثاني استتارة لابن طفج إذ كان من أعداء العلويين في غير علانية ، وكان من أنصار العباسية فهو يقول له : مالي أراك تقبل في قول أعدائك وأعداء مواليك العباسيين ، وكان أولى بك أن ترن أقوالهم بما ترنهم به (فقدر الشهادة قدر الشهود) ، فلا تسمع لهؤلاء الذين يضررون العداوة (الكاشحين) . ثم وصل كلامه عن العلويين بذكر العلويين الفاطميين فقال (ولا تبأن بعجل اليهود) ، وعجل اليهود كناية عن أحد دعاة الفاطميين الذين كانوا هناك بالشام . وتأويل ذلك أن العباسيين وكثيراً غيرهم حتى من العلويين أنفسهم

(١) قد حار التبراج في تفسير الكلمة ، وتلبوها على وجوه كثيرة لا تصح ، وهذا هو الوجه عندنا وهو الصواب ان شاء الله

(كفي حمدان) كانوا لا يعترفون بنسبة الفاطميين ويزعمون أن جدّهم كان يهودياً، وأسلم يدخل على الإسلام فاسد العقائد نكابة. وأسدهم على ذلك أن الدعوة الفاطمية كانت دعوة سرّية لها أصول خاصة ودرجات مرتبة، من درجة اللذنة إلى درجة داعي الدعاة، ولكل درجة من الدرجات تعليم خاص، ومرتبة معروفة مقيّدة. فقول المتنبى (عجل اليهود) إشارة إلى ذلك ولا أنس هنا أن أعود بالفقار، إلى بيت من أبيات مضت في ذكر التنوخي وهو قول المتنبى يذكر التنوخين

« أليس عجيباً أن بين بني أبي لنجل يهودي تدبُّ العقارب »
وقد تبين لنا بعد البحث في تواريخ العلويين أن بعض الدعاة الفاطميين كان قد دخل اللاذقية (وهي من منازل تنوخ) وأدخل قسماً من التنوخين في الدعوة الفاطمية وبذلك افترق التنوخيون فرقتين، فرقة العلويين أو الشيعة وفرقة الفاطميين، وهذه الأخيرة هي التي خرج منها الدرور وهم تنوخيون. وفريق الدرور يهتمون من قديم عبادة (الجل)، وقد نفي ذلك كثير من الباحثين والله أعلم بحقيقة أمرهم، ولعل هذا هو السر في قول أبي الطيب (عجل اليهود) يشير بذلك إلى الفاطميين، وفي قوله (نجل يهودي) يريد داعي الفاطميين الذي قسم التنوخين، وضرب الاخوة بعضهم ببعض. وأما قوله:

وكن فارقاً بين دعوى (أردت) ودعوى (فعلت) بشأور بريد

فهو عندنا من الأدلة في أن الأمر الذي قبض على المتنبى من أجله لم يكن النبوة، وإنما هو الخروج على السلطان، وأنت إذا قابت الدعويين « دعوى (أردت) ، ودعوى (فعلت) » على معنى النبوة لم يتم لك تساوق المعاني على ذلك، وتم لك في معنى الخروج على السلطان هذا التساوق، إذ إن ارادة الخروج شيء، والفعل الذي يسمى به الرجل (خارجاً) شيء آخر... والظاهر عندنا أن السبب في اطلاق المتنبى من السجن لم يكن هذه الفصيحة وحدها، بل السبب البانيغ في هذا الرضى عنه فيما زجج أن بعض التنوخين العلويين (غير الفاطميين) كانوا قد سموا عند ابن طنج لاطلاق المتنبى، وذلك لصلتهم ببني حمدان واتفاقهم معهم في المذهب (العلوية)، وأظهروا لابن طنج موالاتهم فرضي منهم بهذا وأكرمهم باطلاقه^(١)، ولئن العلويين الكوفيين سموا من ناحية أخرى لدى الوالي أن لا يطلقه فأرضاهم بأن يأخذ عليه وثيقة تثبت بطلان دعواه في النسبة إلى الشجرة العلوية الشريفة المكرمة. والذي حمانا على أن

(١) ولا بأس أيضاً في أن نذكر أن (بني عدي) وهم قوم سيف الدولة النازلين بأرض الشام، كان لهم شأن في ذلك، وأرضاهم ابن طنج لما بحثى من انتقاضهم عليه إذا لم يبذل لهم الرضى في رجل قبض عليه عاملة في أرضهم وكان في جوارهم

نظن ذلك من امر التوخين ان المتنبي بعد خروجه من السجن مدح التوخين وأخلص لهم وزل عنهم ثم رجع الى الكوفة وبقي بها مدة ، فلما عاد في سنة ٣٢٦ رجع اليهم وبقي عندهم ومدحهم ايضاً وأجاد في مدحه لهم اجادة بينة ظاهرة ، وقد كان هذا الفتى وقيماً أوفياً كما وصف نفسه وكان يأسره الاحسان ويغلبه على امره كثيراً ، وقد ظهر هذا الخلق في روعة المثل الذي ضربه يوماً ما فيها بعد وهو قوله « ومن وجد الاحسان قيماً تقيداً »

وقد اكثر الكتاب من الاستشهاد بمحادث حبس المتنبي وما كان منه فيه ، وزعموا انه كان متكبراً احمق الرأي ضعيف الارادة ، فدعته كبرياؤه أول أول الى الاستخفاف بالسجن ، ثم رجع فذل وانقاد واستخذي في قصيدته الاخيرة ، وليس هذا لنا برأي ، فان الايات البائية التي ذكرناها لا تدل على ضعف وانما كان كما روينا لك مرهف الحس شاعر النفس ، فلما بلغ جدته خبر حبسه كتبت اليه ، وذكرته بما فعل وهو بدار غربة ، وعذلته على ما كان منه وشكت اليه ألماً ، وكشفت له عن ذي قلبها ، فرق وبكى وكتب الايات الاربعة على اثر ذلك وطبع عليها قلبه وحنانه ورقته ، لا ضعفه واستخذائه ، ويكفي في الدلالة على بطلان رأيهم انه جعل البيت الرابع مهاجمةً لجميع من ادعى عليه واراد حبسه ، وهجاءً بليغاً لهم ، وليس هذا من الحكمة ، ان كان ممن يستخذي ويضعف . وذلك حيث يقول :

« عائب طيني لديك ، ومنه خلقت في ذوي العيوب العيوب »

ثم لما كتب قصيدته الاخرى الدالية ذكر اياتاً يزعمون انها تدل على مذهبهم في تلبيس الرجل وهي قوله

أمالك رقي ومن شأنه	هابات اللجين وعق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجاء	والموت مني كجبل الوريد
دعوتك لما براني بالبلاء	وأوهن رجلي نقل الحديد
وقد كان مشيهاً في النعال	فقد صار مشيهاً في القيود

ونحن لا نرى في هذه الايات شيئاً لانه انما اراد — كما قلنا — ان يترفق لغرضه بالحيلة ، حتى يخاص من السجن ، اذ وجد ان لا جدوى عليه من الصبر على السجن الذي يضع الامل في تحقيق ما يريد من الاتقام من هؤلاء الذين فعلوا به ما فعلوا . والذي يدل لا يقسو في الصفات هذه القسوة التي ابرزها المتنبي في اياته بعد — إذ وصف من كانوا معه في السجن مهكماً ساخراً على عادته فقال

وكنت من الناس في محفلٍ فما انا في محفلٍ من قروء

ثم يخاطب ابن طنج مخاطبة التذنيباً على وجه التفريع واللوم فيقول « فإلك تقبل زور الكلام؟ » ثم ينهأ ناصحاً ومخذراً فيقول « فلا تسمع من الكاشحين » ثم يأمره على وجه التعليم والتنبيه بقوله « وكن فارقاً » فهذا مذهب تعاليمي في الامر، ينطوي على تبصير الامير—الذي يزعمونه يذل له — بوجه الصواب من الرأي في التفريق بين الدعويين، وتذكير له بأنه اخطأ خطأ كبيراً بتركه التحقق من اصل الدعوى التي اقيمت عليه وتطبيقها على ما كان منه حقيقةً، ولو كان فعل ذلك لبطل عند الامير ما يدعون عليه، وهذا كما ترى فيه معنى التجهيل للامير. ولا نظن ابن طنج كان يخطئ إدراك هذا البيان اليبين في شعر المتنبى، ومع ذلك فقد أعفاه من هفوة اللسان وأطلقه اكراماً للتوخين فيما ذهبنا اليه، وما كان من مدحه له في الفصيحة مدحاً لم يظفر بمثله من شاعرٍ مثل المتنبى الشاعر البليغ العربي الشريف

فهذا كما ترى سياقاً تاريخياً لا بأس به — إن رأيت ذلك — في أمر القبض على أبي الطيب ولا ذكر فيه للنبوة، ولا يمكن أن يكون قبض عليه لهذا الهرام الذي يزعمون، وستعلم بعد أن الخالغ حدثنا عن أبي الحسين الناشيء الشاعر أنه قال: « كنت بالكوفة في سنة ٣٢٥ وأنا ألمي شعري في المسجد الجامع بها، والناس يكتبونه عني، وكان المتنبى إذ ذاك يحضر معهم وهو لم يعرف ولم يلقب بالمتنبى » وهذا دليل على أن القبض عليه في سنة ٣٢١ لم يكن للنبوة إذ لو كان ذلك كذلك، لتعالمه الناس بالكوفة التي نشأ بها، ولأشار إلى ذلك الناشيء، وكلام الناشيء يدل على أن ذلك لقبٌ نُبِز به الرجل، ولم يكن بسبب هذه التكبئة التي أعيب بها في سنة ٣٢١، أو الحدث الذي أحدثه في تلك السنة

وهناك سياق آخر للتدليل على بطلان هذا الافتراء الذي رمي به الرجل، نستنبطه من الاسلوب الشعري أولاً، ومن الحالات النفسية القائمة في شعره ثانياً، ومن الاصول التاريخية في أمر المتنبى في ذلك العهد أخيراً، ورأينا أن نضمر ذلك ولا نطيل به حتى نظهره في كتابنا — إن شاء الله — عن المتنبى، وبالله التوفيق^(١)

أما هذا النبز الذي نبز به أبو الطيب وعرف به إلى اليوم، فليس مرجعه إلى هذا الخروج الذي كان منه في بني عدي، فقبض عليه، وأُتِيَ في السجن من جرائه، بل له عندنا مساق آخر هو أقرب إلى الصدق وأولى بالاعتبار

(١) اعزنا تركنا أيضاً في هذا الحديث عن رحلته وحبسه ما قل من شعر في مدح رجال لقيهم في طريقه لمبلاد التي نزلها، إذ ليس يغفر هنا اغفال ذلك حتى حين، وإثنا فعلنا لم يكن ليتسع هذا العدد من المقتطف لبازيد وما تؤمن من استيفاء ترجمة الرجل على الوجه الذي نرضيه، ونقر عيننا به

كان أبو الطيب من أول أمره متورعاً في خلقه لا يخرج من حدود الوقار، متمسكاً لا يابن للشهوات ولا يلتقي اليها مقاده، مترقماً عن سفاف الاخلاق، متمسكاً بمعالها، آخذاً نفسه بالجد الذي لا يفتّر، وكان لا يقرب التهم ولا يدينها، « فاكذب ولا زنا ولا لاط » ولا أتى أمراً منكراً يؤخذ عليه، أو يزن به، واستمر على ذلك حياته كلها، وخالف الادباء والشعراء من أهل عصره، فما شرب الخمر ولا حمل وزرها، ولولا اضطراره فيما نرى لما حضر مجاسها، وكان منصرفاً إلى العلم قارئاً له ومحققاً لدقائقه، طويل النظر والتدبر فيما يمر به من أحداث الزمان كثير الاهتمام بأمر الامة التي هو منها، لا يفوته مغزى ينتقده او خالق يستسقطه، وكان أهل العصر على خلاف له في ذلك وخاصة من انتسب الى الادب، واعتزى الى الشعر، فكان الادباء والشعراء أهل شراب ومعاورة وهو وهزل وباطل، لا يفرغون الى الجدل الأ بمقدار، ولا يتورعون عن دنية الأ مكرهين على الورع. فلا عجب إذا عدّه أهل صناعته من الادباء والشعراء غريباً بينهم

وكان المتنبي في اول شعره يكثر من ذكر الانبياء ويردد اسماءهم ويشبه نفسه بهم، ويقيس اخلاق ممدوحيه الى اخلاقهم فن ذلك قوله في نفسه

ما مقامى بأرض نخبه إلا (مقام المسيح بين اليهود)
وقوله في القصيدة نفسها

ان أكن مجباً فمجنّبٌ عجيب (لم يجد فوق نفسه من مزيد)
أنا ربُّ الدى وربُّ القوافي وسمام المدى وغيظ الحسود
أنا في أمة — تداركها الله (غريبٌ كصالح في ثمود)^(١)
وقوله

« أنا الذي بين الاله به ان أقدارَ والمرء حيثما جعله »
فشبه نفسه بالانبياء والرسل الذي ارسلهم الله ليكونوا شهداء على الناس
وقوله في رثاء التنوخي (محمد بن اسحق)

وكأنما (عيسى بن مريم) ذكره وكان (عازر) شخصه المقبور
وكان ايضاً كثير الانذار للملوك والامراء بعذاب بئس سيئاتهم من قبله كقوله
ميعاد كل رقيق الشفرتين غدأ ومن عصي من ملوك العرب والمعجم -
فان اجابوا فما قصدي بها لهم وان تولوا فما ارضى لها هم -

(١) بروي ابن جني أن المتنبي قال : لقت بالمتنبي بهذا البيت

فهذه امثلة مما تآثر في شعره من هذه المعاني ، وأنت إذا نقضت ديوانه وجدت في معانيه المعاني التي تنبى^٤ بالغيث كقوله في بدر بن عمار

لو كان علمك بالاله مقسماً في الناس ما بعث الاله رسولا

لو كان لفظك فيهم ما انزل السفرقان والتوراة والانجيل

ولا نطيل بذكر الشواهد في ذلك فهذا امر متعالم مشهور

وعندنا ان ابا الطيب لما عاد من الكوفة سنة ٣٢٦ واتصل سبيه بيد بن عمار ولزمه ،

وعلا عنده ، واصاب كرامة لم يصب مثلها من قبل ، تناوشه الشعراء إذ خافوه على ارزاقهم ،

وظفقوا ينتقصون الرجل ويطلبون له العيوب ، واغرامهم بذلك ما وجدوا من ترفعه عن مجالس

لهوم ، وانصرافه عن الهزل الذي يكونون فيه ، وظنوا به الكبر ، فاخذوا يذكرون شعره

ويقتادرون به ، فلما وقصوا على كثرة دوران اسماء الانبياء في هذا الشعر ، وتشبيهه نفسه بهم ،

وما هو فيه من التعفف والتورع : أرادوا له لقباً ينزونه به ، فلقبوه (المتنبى) يريدون التشبه

بالانبياء ، واخذوا يذكرونه بهذا الاسم . ويتداولونه بينهم . ثم استفاضت شهرته به لما اتصل

بأبي العشائر سنة ٣٣٦ وصار لا يُذكر الا به

وقد رأيت قبل ان القبض عليه كان سنة ٣٢٢ وان الناس قال ان ابا الطيب كان يحضر

مجلسه سنة ٣٢٥ بالكوفة « وهو بعد لم يعرف ، ولم يلق بالمتنبى » فتلقيه بالمتنبى كان بعد سنة

٣٢٥ ولا شك كما رأيت ، وبذلك ينتهي ان يكون قد حبس من أجل دعوى النبوة . فلما علا

امر المتنبى وظهر ، وحتي من حتمي من العلويين ومن اليهم احدثوا من هذا الريب (المتنبى) — الذي

قصد به التشبه بالانبياء في الخلق ، والوعيد والانذار ، وتشبيهه نفسه بهم في شعره — قصة مخترعة

عن نبوة زعموا ان الرجل ادعاها ، واعانهم على صوغها ما كان من امر حبسه حين اراد اظهار

نسبه الى الشجرة العلوية المكرمة . فكانت هذه القصص التي تقضها واظهرنا بطلانها



أَبْنِي أَيْنَا ، نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلِ
أَبْدَأُ غُرَابُ الْبَيْنِ فِيهَا يَنْعُقُ
نَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَعْشَرِ
جَمْعِهِمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا
وَالْمَرَّةُ يَأْمَلُ ، وَالْحَيَاةُ شَبِيهَةٌ ،
وَالشَّيْبُ أَوْقَرُ ، وَالشَّيْبَةُ أَزْقُ
وَلَقَدْ بَكَتُ عَلَى الشَّبَابِ ، وَلَمَّتْ
مَسْوَدَةً ، وَلَمَاءَ وَجْهِ رَوْنِقِ

خرج أبو الطيب رحمه الله من سجنه وشقائه وعذابه مستمر النفس ، مكتهل القلب . فقد جرب أحداث الزمان ، وما ابتلي به من التكبكات التي عرقته في سجنه ، وما كيد به من أعدائه ، فانطوى على ما به غير جازع ولا شاكٍ ولا مستسلم ، وابنم للدنيا وهو يضرر الفيظ عليها « ولكنه غيظ الأسير القد ^(١) » ، وكان يعمل في نفسه بما قال بعد

هُونٌ عَلَى بَصْرِ مَا شَقَّ مَنَظَرَهُ فَأَمَّا يَبْقَظَاتُ الْعَيْنِ كَالْحَلْمِ
وَلَا تَشْكُ إِلَى خَلْقِ قَنَسَمَتِهِ شَكْوَى الْجُرْحِ إِلَى الْغُرْبَانِ وَالرَّخْمِ
وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ لِلنَّاسِ تَسْتَرَهُ وَلَا يَفْرُكْ مِنْهُ نَفْرٌ مَبْتَسِمِ

وإن صحَّ ما رأينا في ترتيب شعره ، وما قلنا به من أن التوخين كانوا قد سعوا لدى ابن طنج في اطلاقه من سجنه ، فقد خرج صاحبنا من السجن ولحق بالتوخين باللاذقية وأقام عندهم وفي جوارهم ، وكانت صلته وثيقة بأبناء اسحق التوخي (محمد والحسين) فلما مات محمد رثاه ، وقد قدمنا طرفاً من ذكر ما ورد في رثائه لهذا الرجل . وبين في شعره الذي رثاه به ما كان يضر له من الحب ، وما يفي له به من حسن صنيعه عنده . وأخلص بعد موت (محمد) الوفاة والمودة لآخيه (الحسين بن اسحق) ، ولكن صاحبنا لم يسلم هناك من الاعداء — أعدائه من العلويين والفاطيين والعباسيين فقد قصَّد بعض شعرائهم قصيدة في هجاء الحسين بن اسحق ونحائها ابا الطيب ، فكتب الحسين الى أبي الطيب يعاتبه ، فرد عليه جواب كتابه بأبيات يقول فيها ، يعاتبه على تصديقه ما بلغه

(١) هو للتغني وأوله « وغيظ على الايام كالنار في الحشا » . والقد : القيد من الجلد

تطع الحاسدين وأنتِ مرّةً جملت فداءه — وممّ فدائي
 وهاجي نفسه من لا يميّزُ كلامي من كلامهم الهراء
 وإن من العجائب أن تراني فتعدّل بي اقل من الهباء
 وتكر موتهم وأنا سهيلٌ طلعت بموت اولاد الزناء

ونحن نرى ان المتنبي اقام قليلاً في جوار الحسين ثم وافاه كتاب من جدته ، وقد كان
 بلنّها خبر انطلاقه من السجن ، تشبه شوقها ، وتشكو له بشها وحزنها وتعزم عليه في الرحلة اليها ،
 وتذكر له ما كان من امرها مع العلويين بالكوفة ، وانها ارضتهم ، واخذت على نفسها العهد ان
 يقلع ولدها عما تهوّر فيه من ايراده اظهار نسبه ، وينت له مغبّة ما ينوي من ذلك ، ووعظته
 بما اصابه من قبل في سجنه ، واحرجته في الحضور اليها ، فلم يجد قلب أبي الطيب بدءاً من
 الطاعة ، وكنتم عزمه عن الحسين بن اسحق التوخي ، ولكن عزمه لم يخف على صاحبه ،
 فأراد على المك ، فأبدى ابو الطيب رأيه بالموافقة وأضر الخلاف والرحلة عن اللادقية
 الى الكوفة . . . وقد اشار الى ذلك في مدحه اذ يقول معرضاً بمزيمة البقاء ليصرف التوخي
 عن ان يموقه

لك الحبر، غيري رام من غيرك الغنى ، وغيري بغير (اللاذقية) لاحق
 هي الفرض الاقصى ، ورؤيتك المنى ، ومنزلك الدنيا ، وأنت الخلائق

وأتخذ صاحبنا الليل جلاً — كما قالوا — وانحدر الى الكوفة، وقد امتلأت نفسه بأحقاده
 وآلامه وآماله . وسار من بادية الى مدينة ، ومن مدينة الى بادية ، ينظر الى الفتن التي مزقت
 امته وأبليت جدتها ، وما داخها من الانحلال والتفكك ، وما اصاب اخلاقها من السقوط
 والتسفل ، وما فعلت الدعوات السرية في نقض مجدها ، وتفريق كلمتها حتى فشلوا وذهبت رحيم
 وكانت هذه الفترة من حياة الرجل ، فترة نظر وبصر ومجربة ، وأوان تردّد لا يدري ما
 هو فاعل ولا ما الله فاعل به . فقد رمى بنفسه الى الكوفة على غرر مرضاة لجدته لارغبة منها في
 دخولها ، واخذته الوسوس فيما يراد به هناك بعد الذي كان منه بالشام من ارادته اظهار نسبه
 العلوية . وكان الثأر يغالبه على ترك النية والعودة إلى الشام، لولا ما يخاف على جدته من سوء فعله .
 فدخل الكوفة بهمه واحقاده وآلامه سنة ٣٢٣ أو في اواخرها على الارجح ، فلما استقرّ بها
 رأى ورأت جدته ان ثورته ليست بما يجدي عليه شيئاً ثم ، فانصرف الى مجالس الكوفة
 ومساجدها يشغل بطلب العلم نفسه عما يساورها ويهزّ منها ، وكان لانصرافه هذا وإقباله على
 شيوخ الادب والدين والفلسفة وغيرها من علوم العصر اثر كبيراً في تهذيب نهجه الشعري ،
 واستجمم بهدأة العلم قوة اخرى على الثورة والتقليل بدت في شعره بعد مخرجه من الكوفة

رائمة مدوية كأنما انفجرت في لسانه انفجار البركان في زلازل الارض
 وكان المتنبي لسنته تلك (سنة ٣٢٣) عزباً لا يأوي الى سكن من النساء ، ولعل جدته
 رأت ان تهديء منه قليلاً بالزواج فزوجته على غير رغبة منه قريباً من سنة ٣٢٥ قبل خروجه
 من الكوفة ، وذلك لان المتنبي بعد مرجعه الى الشام سنة ٣٢٦ ذكر لأول مرة في شعره
 (الابوة) . فمأعرفناه من خلق أبي الطيب أنه كان إذا نزل به امرٌ أو جدٌ في حياته جديد
 فسرعان ما يتلجلج ذلك في صدره ولا يستقر حتى يشير اليه من شعره ، لكثرة ما تلد الحوادث
 في شاعرية هذا الرجل من المعاني والآراء ... قال أبو الطيب في قصيدة يمدح بها أبا أيوب أحمد
 ابن عمران قريباً من سنة ٣٣٢ يذكر المرأة

وترى — المروءة والفتوة والابوة — في — كلٌ مليحةً ضرأتها
 هن — الثلاث المانعاني لذتي في خلوتي لا الخوف من تبعاتها

ولعل ولده هذا الذي ذكره في قوله (الابوة) هو (محسّد) الذي ورد ذكره في خبر
 مروى وهو بواسط سنة ٣٥٤ وفيه أنه أجاز شعراً أنشيد ، وورد ذكره أيضاً في مقتل المتنبي
 وأنه قتل معه . فلو فرضنا أنه قتل وهو في الثلاثين من عمره أو أقل لكان هذا التاريخ الذي
 حدثناه لزواج المتنبي هو أقرب إلى الصواب إن شاء الله

وقد كان قرب المتنبي من جدته الحازمة في الكوفة ، وتروثه من العلم هناك ، مما ملأه حكمة
 جديدة بدأت تستعلن في شعره الذي قاله بعد . هذا على انه — مقامه بالكوفة — لم يمدح أحداً
 ولم يتعرض بشعره لمعروف ولا لمنكر ، على كثرة الاحداث التي كانت في تلك السنوات ، وعلى
 شدة ما لتي من العنت وهو بين أظهر أعدائه أو أصحاب ثاره ، ولكنه كان متمسكاً من مقامه ،
 مضطرباً في عيشه . وكان أثر هذا التملل والاضطراب في نفسه المستحصدة القادرة على الكتمان
 والأتزان في بعض الاحايين — أن طفق يولد هذا الشاعر معاني نفسه ويختار لها ألفاظها
 وينتقي عباراتها ، مدققاً محصاً مفتشاً عن الكلام الموجز الذي يستطيع أن يضم فيه ما يحيش
 في صدره ، ويتلجج في نفسه ، حتى استوى على طريقة ممتدة من الاصول الشعرية التي ينهاها في
 أول كلامنا إلى الغاية التي كان يرمي اليها ، ولذلك اختاف نهجه في الشعر الذي قاله بعد مخرجه
 من الكوفة عن نهجه الاول اختلافاً يتناً ، ولكنه لم ينقطع من الاستمداد من الاصل الاول الذي
 هو الطبيعة القائمة في النفس ، والتي لا تتغير في أصلها وإن تغيرت في الصورة والصريح ومذهب
 البلاغة والافصاح

هذا وما من شك في أن الرواية عن هذه الفترة من حياة الرجل لم تأت بحديث يعلم به من
 امر أبي الطيب كثير ولا قليل . إلا ما حدثناك به من انه كان يحضر مجلس الناشئ ، بالمسجد الجامع

بالكوفة سنة ٣٢٥ ليسمع منه شعره ويكتبه مع الكاتين وكان لم يعرف بعد ولم يلقب بالمتبي . الأ
ان صاحبنا في رثاء جدته سنة ٣٣٥ قد افصح عن السبب في فراقه الكوفة في هذه المرة بمض
الافصح ، وعرض بأشياء كانت وقعت له هناك . يقول (١)

ولو لم تكوني بنت اكرم والد
لئن لذ يوم الشامتين يومها
(تفرَّب لا مستعظاً غير نفسه
(ولا سالكا الأ فؤاد عجاظ
(يقولون لي: ما أنت في كل بلدة!!
كان بينهم علون بأني (٢)
وما الجمع بين الماء والنار في يدي
(ولكنني مستصر بذبابه
(وجاعله يوم اللقاء تحي
إذا فل عزمي عن مدى خوف بعده
(وإني لمن قوم كأن نفوسهم
(كذا أنا يادنيا إذا شئت فاذهبي ،
(فلا عبرت بي ساعة لا تعزني

قد ينالك أولاً أن أبا الطيب بقوله لجده في القصيدة « هيني أخذت الثأر فيك من للمدى »
وقوله : « لئن لذ يوم الشامتين يومها » — إنما أراد (بالمدى) و (الشامتين) العلويين
الذين أخفوا عنه نسبه — فيما ذهبنا إليه — ومنعوه الانتهاء للدوحة العلوية المباركة ، فإذا تقرر
عندك هذا وارتضيته ، وجدت أن قوله بعد ذلك

(تفرَّب لا مستعظاً غير نفسه ولا قابلاً الآ لخالفه حكماً)

يدلُّ على أن هؤلاء المدى والشامتين بجده ، والذين منعوه من دخول الكوفة حين قصدها
قبل وفاة جدته سنة ٣٣٥ — كانوا في تلك السنة التي فارق فيها الكوفة (٣٢٥) أو أوائل
سنة ٣٢٦ قد أرادوه على خطّة خسف فأبى ابو الطيب ان يركبها ، وشيخ بنفسه ان يذل للاحد

(١) قد آثرنا ان نقل لك الايات جميعها في نظنها لتقرأها متديراً فن نسر الشاعر وشعره ، الذي
استنبطنا منه ما اردناه هنا ، وفي نسبه هناك ، مما يتخذ دليلاً على صحة ما نقول به .
(٢) قوله (كان بينهم) دليل على أنه أراد قوماً باغيائهم ، واولاً ذلك لقال (كان بينهم) برجع القم
الى الدنيا يعني الناس جميعاً كما قال بعد (كذا أنا يادنيا) وهذا أسلوب من اساليب ابي الطيب في الاشارة الى
اغراضه التي في نفسه والتي لا يريد التصريح بها ، وإنما يجعلها اشارة لمن يريد انهم غرضه

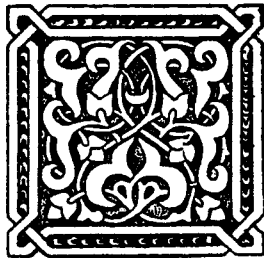
من الناس ، او ان يقبل له حكماً يريد ان يجريه عليه وفيه المذلة والهوان وإهدار الكرامة ،
واسقاط الفتوة والبروة ، وآثر ان يخرج عن الكوفة مراغماً لهم ، مفضلاً آلام الغربة على
الهوان في الوطن

ويتن من الشعر انهم كانوا يستضعفونه ، ويسفهنون رأيه في ركوب القلوات ، وتنقله بين
البلدان بقولهم « ما انت في كل بلدة؟ » وقولهم « ما تنتقي؟ » بما تريد من فراق الكوفة ، تذرع
الارض من بلد الى بلد . فكان جوابه ان ما يبتغيه اجل من ان يسميه لهم ، ثم استدرك على ذلك
فزعم انهم انما يسألونه ويلحون عليه في استخراج ذات نفسه ومضمرها لخوفهم منه ، وانهم يعلمون
أنه سيأتيهم بالذبح الذي يترك صغارهم ابناً ونساءهم تكالى . وقد ابلغ في انذاره لهم بعد كما ترى
في الايات ، ورهيبهم بما يكون منه ، وذكرهم بقومه ومحدثهم وحرمتهم وقلة مبالاتهم بالمهالك
طبيعة قائمة فيهم حتى ان نفوسهم لتكاد تترك البقاء في ابدانهم لما فيهم من الحرية والشرف

ثم افصح المتنبي عن الذي ارادوه به في قوله

فلا عبرت بي ساعة لا تعزني ولا صحبتي مهجة تقبل الظلماً

فكان الذي كان منهم كان وضماً من عزة نفسه ومهانة لها ، وانهم كانوا يريدون ان ينزلوا
به ظلماً يتناً لا يقره عليه حر ، وعندنا انهم ارادوا ان يرضوه برضيخة من المال تكون عليهم
كالجزية له يأخذها منهم كلما حال الحول ، على ان يبقى بالكوفة ، ويرضى بما يريدون منه غير
مخالف لهم ولا مظهر لهم عداوة ، وان شاء ان يمدحهم بشعره فعل ، وله عليهم ان يعطوه في مديحه
لهم مثل الذي يحبى به من غيرهم اذا مدحه ، وكبر على أبي الطيب ان يرشى بالمال حتى يسكت عنهم ،
ويقر على ظلمهم له وضميم اياه ، وفي الارض سعة ومراد لمن شاء ان يكون عزيزاً مكرماً
وخرج صاحبنا من الكوفة قاصداً الشام مرة اخرى ، وتزل على علي بن ابراهيم التوخي



واِحتمال الأذى — ورؤية جانب
— غذاءاً تَضَوَّى به الاجسامُ
ذُلٌّ من يغبط الدليل بعيشه
رُبَّ عيش أخفُّ منه الحِمَامُ
من يَهْنُ بسهلِ الهوانِ عليه
ما لجرحٍ بِمَيّتٍ لِيَلَامُ
أقراراً أَلذُّ فوق شراره؟!
ومراماً أبهى وظلمي يُرامُ؟!

كان شعراي الطيب في اول امره كما حدّثناك قد اختلط بألفاظ لا تستقر في الشعر، وقتت اليه من ألفاظ المتكلمين والمتفلسفة وأصحاب المنطق وأهل الجدل في الملل والنحل وغير ذلك، وكان أسلوبه يجري على طريقة هؤلاء، في التوجيه والتقسيم، ثم في توليد المعاني الشعرية على طريقة اهل العصر في توليد معاني الجدل واللجاج لارادة الفلج في الخصومة لا تقرير الحق في القضاء والحكومة، وأناه ذلك من قوة حافظته وكثرة دوران هذه العلوم في فكره، واشتغاله بالنظر فيها نظر المحقق المفكر، إلا ان تفكيره لم يكن محضاً لهذه العلوم، بل كان في عقله الذي يفكر به، فكر الشاعر الذي يتسع بالعلوم ويمد بينها وبين طبيعته الشعرية اسباباً من الخيال. ولما عاد الى الكوفة سنة ٣٢٣ وهي مقر كثير من أئمة العلم والادب والشعر، ولزم مجالسهم سنتين او أشْفُ قليلاً، عملت هذه المجالس في تهذيب علمه الذي وقع عليه في الصغر، وعملت طبيعته الشعرية في هذه العلوم عمالها، وكان له من الفراغ ما يكفيه للتفكير والاتساع في النظر والترجيح والتعديل بين علمه وبين طبيعته، ثم كان له من توقد ذهنه، واشتغال قوى نفسه الملتبها بأحقادها وآلامها، ما يحمله على استخراج روائع المعاني التي توافق همه وأمه، وتوليد الآيات البيانية التي تتصل بما في قلبه وفكره، واجتباء العبارة التي تكون في ايجازها بمنزلة الرمز لما يدور في نفسه في المعاني المطولة

والآن وقد رجعت صاحبنا الى الشام في جوار علي بن ابراهيم التوخي سنة ٣٢٦ كان اول ما قال هذا الشعر الذي اوجزنا لك في صفته، دالا على مذهبه الجديد، وعلى تدرج حالته النفسية تدرجاً متوالياً متفاسحاً... يقول

أفكر في معاقره المنايا وقود الخيل مشرفة الهوادي
 (زعيم للنفا الخطي عزمي بسفك دم الحواضر والبوادي)
 (الى كم ذا التخلف والتواني !)
 وشغل النفس عن طلب المعالي
 وما ماضي الشباب بمسترد
 متى لحظت يياض الشيب عيني
 متى ما ازددت من بعد التناهي
 وقد وقع اتقاضي في ازديادي
 وقد وجدته منها في السواد

ثم يقول . . . بعد

(وما الغضب الطريف وإن تقوى)
 (فلا تفررك السنة موالو)
 (وكن كالموت لأبني لبك)
 فإن الجرح ينغر^(١) بعد حين
 وإن الماء يجري من جواد

(أشرت أبا الحسين بمدح قوم)
 وظنوني مدحهم قديماً
 (وإني عنك بعد غد لغاد)
 محبك حينما أتجهت ركابي
 نزلت بهم فسرت بغير زاد)
 وأنت بما مدحهم مرادي
 وقلبي عن فنائك غير غاد)
 وضيفك حيث كنت من البلاد

كان شعر صاحبنا في هذا الباب من القول — الى ما قبل هذه القصيدة شعراً قريباً لم تستخرجه فكرة عايمة مستوعبة لاحداث الزمن ، ولا نظرة مجرّبة نافذة في ضمير أخلاق الناس ، ولم يكن يزيد على الدلالة على ما في نفس الفتى من السمو ، وما في قلبه من كرم العنصر ، وما تبدي طبيعته الفقية من أصول الرجولة المستحكمة في طبعه وغريزته ، وما يبلا صدره من أسباب الحقد وطلب الثأر ، وما يكشف عن نيّته في إحداث حدث عظيم يجلب فيه على أعدائه بنجله وسيوفه حتى يدبل لها من (دولة الخدم) الذين ملكوا على الناس أمرهم ، وصرّفوهم في أهوائهم ، فذلك قوله في صباه (٢)

(١) نغر الجرح بالعين (كفتح) اذا انفجر وسال منه الدم يقال جرح نغار على المبالغة . وفي رواية (بنغر) بالباء براد بها يتورم . والذي اثبتناه أجود .
 (٢) قصدنا بجمع هذا الشعر هنا ان ننظر فيه بما يغتينا عن الاطالة في تفصيل الفروق بينه وبين شعره الذي قلّه بعد خروجه من الكوفة سنة ٣٢٦

عش عزيزاً أومت وأنت كريمٌ بين طعن القنا وخفق البود
(فرؤوس الرماح أذهب للبيض ، وأشقى لفل صدر الحقود
فاطلب العز في لظى ، ودع الذل ولو كان في جنان الخلود
يقتل العاجز الجبان وقد يعجز عن قطع بجنق المولود
ويوقى الفتى الميخس وقد خوَّض في ماء لبنة الصنديد

وقوله

ومن يبع ما أبعي من المجد والعلی
ألا ليست الحاجات إلا نفوسكم
فماوردت روح امرئ - روحه له -
غثاة عيشي ان تفت كرامتي
تساو الحايي عنده والمقاتل
وليس لنا إلا السيوف وسائل
ولا صدرت عن باخل وهو باخل
وليس بفت ان تفت الما كل

وقوله

ليس التعلل بالأمال من أربي
ولا اظن بنات الدهر تركني
لم الليالي التي أختت على جدتي
أرى أناساً ، ومحصولي على غم ،
ورب مال فقيراً من مروءته
الى آخر القصيدة . وقد مضت منها آيات

فدبر الهجين في الشعر فضل تدبر مجد ما رسمنا لك واضحاً بيناً ، وتر أثر هذه الرحلة الى الكوفة على ما بيننا لك آتفاً مستعاناً غير خاف . فقد بدأ صاحبنا يفكر بما اكتسب من تجربة وما أفاد من علم ، ويدس ما ألم به من الاحداث في شعره متزجاً للتلل ، وضارباً بيلاغته في مفصل الحكمة ، وناقذاً بألفاظه في مضمير اخلاق الناس حتى يكشف لك عنها النطاء . فانظر ان قوله اولاً « ارى اناساً ومحصولي على غم .. » من قوله بعد

فلا تفررك السنة موالٍ تقابهن أئدة أعادي

فان الموضع الذي اخذ منه المعنيين واحد، ولكنه كان في الاول غسيلاً محصوراً غير شامل، وكان في الاخر منها حكماً شاملاً متراًياً نافذاً الى اصل طبيعة الكذب في هؤلاء الناس ممتدة من ضائرتهم الى ألسنتهم ، والسر كل السر في نسبة تحريك اللسان الذي يظهر المودة والولاء

الى الفؤاد الذي يضمر البغي والعدوان والكذب والتفاق (١)

هذا، وقد بدأ أيضاً يصف في شعره ما وصلت اليه الامة العربية، اذ ملكتها الموالي من الترك والديلم وغيرهم ممن كانوا اول امرهم بمنزلة العبيد، وذلك مما استفاده في رحلته الى الكوفة، وماراه في بلاد العربية. ولم يحل هذا مما يدور في نفسه، وما وقع له من المصائب والمكابد والحسد... يقول وهو يمدح علي بن ابراهيم التوخى ايضاً حين نزل به سنة ٣٢٦ او كان ذلك في اول سنة ٣٢٧

(واما الناس بالملوك وما
تُفْلِجِ عُرْبٌ مَلوكها عجم)
(بكل أرض وطقتها أم
تسرعى بعبد كأنها غم)
يستخشن الخزّ حين يلمسه
وكان يُبْرِى بظفره القلم
اني وإن لمت حاسديّ فما
انكر اني عقوبة لهم
وكيف لا يحسد امرؤ علمه
له على كل هامة قدم
يهانه أباؤ الرجال به
وتقى حد سيفه إليهم
(كفاني الذمّ اني رجل
اكرم مال ملكته الكرم)
يحنى الغني للثام - لو عقلوا -
ما ليس يحنى عليهم العدم
(هم لا مواهم ولسن لهم
والعار يتقى ، والجرح يلتئم)

ثم قوله في سنة ٣٢٧ في مدح المغيث بن علي بن بشر العجلي

أذاني زمني بلوى شرقت بها
لو ذاقها لبيكى - ما عاش - واتحبا
الايات وقوله له ايضاً

فؤاد ما تسليه المدام
(وعمره مثل ما تهب اللثام)
(ودهر ناسه ناس صفار
وإن كانت لهم جيش ضخام)
وما أنا منهم بالعيش فيهم
ولكن معدن الذهب الرغام
(أرانب ، غير انهم ملوك ،
مفتحة عيونهم ، نيام)
(بأجسام بحر القتل فيها
وما أقرانها الا الطعام)

وأياتاً اخرى

وكانت حكمة المتنبى وبلاغته في هذه الفترة آتية من قبل نظره في امر نفسه ودخياتها وخاصتها، وما يحيط بها وما يؤثر فيها، ويشير من كوامنها وعواطفها، وثبت فكرته على ذلك. وطقق يقرب الامور والاحداث في الدنيا كلها على امتداد نفسه واتساع قلبه وهمنه، فافجر بين جنبيه ينبوع الكلام المتدفق، وفيه من قوته ورجولته، ومن بيانه وفصاحته، ومن ثأره وعداوته، ومن تهكمه

(١) - يكون تفسير هذه الاسرار اليبانية واستخلاص حقائقه النفسية منها في كتابنا عن المتنبى ان شاء الله ووفق

وسخريته . وخرج مديحه أيضاً عن نهجه الاول ، فصار أدق وأبلغ في أداء المعاني ، وتصوير الفكرة باللفظ المقارب ، وانقلب من مديح معروف مقصد ضعيف الى مديح لا يراد به المدح خاصة ، وإنما يريد به أفكاره هو فيمن يحق له أن يمدحهم ، فوقع في كلامه المبالغة . والمبالغة في شعر أبي الطيب ليست كالمبالغة في شعر غيره من الشعراء ، فهو اذا ذكر المدح وبالغ في صفته إنما يعطي الشعر حق نفسه من أفكاره في عظمة الرجال الذين عدمهم في زمنه ، وكان يود أن يمدحهم بهذا الشعر ويحفظ لهم فيه صورة حية باللفظ الناطق البليغ

فأنت ترى أن نبوغ المتنبى إنما بدأ يتجلى ويتكشف حين أرغته همائم نفسه على استيعاب ما يحس به من العواطف المتباعدة والمتقاربة ، فكانت دراسة قلبه — ومعرفة دقائق ما يحز في قلبه من الآلام ، ثم المعاني التي تتولد من هذه الآلام — أصلاً من الاصول العظيمة في نبوغه ، ثم في طبع شعره بطابع لا يخفى على ناظره او متأمل ، ثم في هديه الى أن الشعر لا يكون شعراً الا حين يروى من معاني القلب ويستقي منها . ولهذا كانت إجادة المتنبى باللغة أقصى غاياتها في شعره الذي قاله في تصوير رجال الحرب ، أو في رسم صور الحرب ، أو فيما كشف به عن ضميره الذي كان كحومة الوغى بفبارها ودمائها وقتلاها ، وقفقه سلاحها ، وتداوي أصواتها ، والتماع أستها وحرابها . واستمر نبوغه أو أكثره على هذا الباب حتى كان اتصاله بسيف الدولة ، فبدأت هناك في قلبه معانٍ أخرى ^(١) تقاسحت بها نفسه ورحبت فامتدت بلاغته وانبسط نبوغه على الحياة كلها فأخذ منها ثم أعطى حكمة باقية ودياناً خالداً ، . . على أن هذه الحكمة وهذا البيان لم ينقطع استمدادهما من نفسه ، وما رزىء به في حياته ، وما أصابه من أحداثٍ وأحوالٍ . ولو تدبرت لوجدت لكل حكمة في شعره أصلاً تاريخياً في قلب هذا الشاعر الذي لم يكن قلبه ينسى شيئاً أو يفلقه . وكأنني به — وهو يقول البيت السائر والمثل الشروء — كانت تراءى تحت عينيه ، ويدوي في مسمعه كل ما مر به مما أثر فيه ، فيقول البيت وفي كل لفظة منه سببٌ ممدود إلى ذكرى يذكرها أو فكرة يتخاها ولنضرب لك مثلاً قريباً نوجزه وعليك بسطه ، ففي الايات التي وضعناها على رأس هذه الكلمة يقول . . .

« واحتمال الأذى — ورؤية جانيه — غذاء تَضَوَّى به الأجسام »

فإن نجد الاصل التاريخي في هذا البيت؟ اصل المعنى الذي اراده الشاعر هو في قوله « واحتمال الأذى غذاء تَضَوَّى به الاجسام » ، ولو كان غير المتنبى لوقف عند هذا فهو تمام وكفاية ، ولكن المتنبى الذي (لم يكن قلبه ينسى شيئاً او يفلقه) ، والذي (كانت تراءى تحت عينيه ، ويدوي في مسمعه كل ما مر به مما أثر فيه) ، والذي كان قد احتمل اذى كثيراً من أهل وطنه بالكوفة كما

(١) هي معاني المرأة التي احبها ! !

سراً بك ، والذي كان رجع الى الكوفة ، وحمل نفسه على معاشرته من آذوه وهضوه حقه ، وأقام
بينهم مرغماً يراهم في كل خطرة بعينه وبخياله — زاد في المعنى وتممه ، واثبت فيه قابله وعواطفه
بقوله « ورؤية جانيه » فهذه الجملة المعطوفة المعترضة هي توقيع المتنبي على البيت . وهناك سر آخر
في تسميته (احتمال الاذى) غذاء ليس هذا موضع تفصيله ^(١) ، وعلى هذا فقس بقية شعره وحكمته
وبعد . فقد شغلنا هذا عن تحرير القول في رحلته ومدخله الشام ... وقد روينالك في اول
هذا الباب ان المتنبي نزل الشام على علي بن ابراهيم التوخي ، وأنشدناك اياتاً من قصيدته التي
مدحها فيها وفيها يقول

(أشرت أبا الحسين بمدح قومٍ نزلت بهم فسرتُ بغير زاد)

وقد اختلفوا في قوله (أشرت) أي من الاشارة عليه بمدحهم فتكون (أشرت) . او من
الأشتر وهو الفرح والطرب فتكون (أشرت) بإسناد الفرح الى نفسه . والرواية الاولى عندنا
أرجح . والظاهر ان المتنبي لما قدم على علي هذا باللاذقية أشار عليه بأن ينحدر الى (طبرية)
ليمدح رجلاً — لعلمه من العلويين او اشياهم — فدحه مرغماً ولم يظفر منه بطائل ، فعاد الى علي من
فوره وأنشده هذه القصيدة ، ثم قصيدة اخرى وصرح فيها بذكر بحيرة طبرية ، وما لقي هناك من
الادعاء (وهم الذين يدعون النسب الى علي رضوان الله عليه) ... فيقول لعلي ... (والبحيرة
التي يذكرها هي بحيرة طبرية المشهورة)

لولاك لم اترك البحيرة ، والسنور دفيء ، وماؤها شيم
والموج مثل الفحول مزبدة

فهي كماويّة مطوقة جرد عنها غشاؤها الأدم
يشينها جريها على بلدي تشينه (الادعاء) و (الفزَم)
أبا الحسين استمع فدحكم بالفعل — قبل الكلام — تنظم

ووصف البحيرة وصفاً رائعاً لم يدع لها عيباً الا عيبها انها تجري على ارض تطؤها اقدام هؤلاء
الادعاء من العلويين والثام ممن ذكرهم في قوله (الفزَم) . ولو رجعت قليلاً الى ما كنا حدثناك
من إرصاد العلويين له بكفر عاقب (وهي بقرب طبرية) في سنة ٣٣٦ بعد ذلك ، وجدت ان
الذين قصدهم بقوله « اشرت أبا الحسين بمدح قوم » هم من العلويين ايضاً ، ولعلمهم هم الذين

(١) اذا قرأت المتنبي على هذا الاصل ، لم نجد الشاعر الذي يذكره الناس ملء الافواه ، بل نجد شاعراً
قد لم برزق الشعر ولا الحكمة مثله ذا لسان وبيان . وسنورد في كتابنا باباً كبيراً لبيان هذا الاصل في شعر
المتنبي ، وتفسير اكثر شعره على هذا المذهب

انتهبوا الفرصة حين زل عندهم ليقتلوه فقاتهم برحلتهم الى الرملة في جوار ابي محمد بن طنج
وهذا السكيد الذي لقيه ببجيرة طبرية في سنة ٣٢٦ ، وما قاساه من مدح الذين اشار عليه
بمدحهم علي بن ابراهيم ، زلزل نفس الشاعر وهزه هزة راية قذفت بحمسه الشعرية البركانية
التي رويناها لك اولاً ، ومجد فيه اثر ذلك ينأ كقوله

أني وان لمست جاسدي فما انكرتني عقوبة لهم
وكيف لا يحسد امرؤ علم (له على كل هامة قدم)

وبين ان علي بن ابراهيم لم يكن ليقبل من شاعر ان يمدحه ويقول في مدحه له يصف
نفسه بأن له « على كل هامة قدم » الا ان يعلم ما دفع الشاعر الى اخراج هذا القول . وقد
تحمل هذا علي لابن الطيب اذ كان هو الذي اشار عليه بمدح عدو من اعدائه، وزين له الرحلة
اليه . وهو يعلم ما في نفس ابي الطيب لقوم هذا الممدوح او هؤلاء الممدوحين . وبقي ابو الطيب
قليلاً في جوار علي التوخي ومدحه ثم قال له في مدحه يودعه ويذكر نيته في الفراق

واني عنك (بعد غد لغاد) وقلبي عن فنائك غير غادي

محبك حينما اجهت ركابي وضيقت حيث كنت (من البلاد)

وخرج من اللاذقية قاصداً حلب ولكنه لم يبق بها طويلاً بل قصد قصداً انطاكية

حين زلها المغيث بن علي بن بشر العجلي فمدحه وذلك حيث يقول له

لما ائتت (بانطاكية) اختلفت الي بالخبر الركبان في حلباً

فسرت نحوك لا أوى على أحد أحت راحتي الفقر والادباً

أذاقتني زمني بلوى شرقت بها

وكان ما لقيه ابو الطيب بطبرية لا يزال يهد منه ، ويعتلج في قلبه وصدوره ، فكان شعره

في هذه الفترة شعر الثائر المفكر المتأمل ، وقد كشف عن ذلك في قوله مثلاً

فالموت أعذر لي ، والصبر أجمل بي ، والبر أوسع ، والدنيا لمن غاباً

وفي قوله (والبر أوسع) سر تقاطعه بين بلاد كثيرة في فترة وجيزة ، فانه كان يريد أن ينال

نيلاً عظيماً بكثرة التجوال ، حتى اذا ما جمع ما يريد استطاع ان يفعل ما قال وما أنذر بقوله

« والدنيا لمن غاباً » ... وكانت قصيدته الثانية في مدح المغيث بن بشر أروع من الاولى ، وأكثر

إفصاحاً عن نفسية الشاعر في تلك الفترة ، فانه كان قد هدأ واستجم من وعناء السفر ، ووجد

الوقت كافياً ، والقول ذاسمة ، فقال كاشفاً عن ضميره ، ومصرحاً بأرائه في الايات التي

ذكرناها وأولها

فؤاد ما تسايه المدام (وعمر مثل ماتهب الشام)

وفي هذه القصيدة (غير الايات التي مرت آنفاً) إشاراتٌ عجيبةٌ الى ما في نفسه كقوله في المغيث

تذُّهُ له المروءة وهي تؤذي ومن يمشق يلدُّ له الغرامُ

فقوله (وهي تؤذي) هو توقيع المتنبي على البيت كما ذكرنا، إذ كان الرجل لا يرى في عصره

مروءة الا وقد احتوشتها اللثام بالسوء من القول والفعل، ويخص نفسه بذلك إذ كان هو

صاحب المروءة التي لقي بها وفعالها أذى كثيراً من أعدائه والحاسديه والناظرين اليه وكقوله أيضاً

وقبض نواله شرفٌ وعزٌّ (وقبض نوال بعض القوم ذام)

فهو يفرق بهذا الشطر الاخير من أرادوا أن ينيلوه نيلاً فقف وأبى، وآثر الفقر على أن

يقبل من نوالهم شيئاً كما مرَّ بك فيما فرضناه في مسألة دخوله الكوفة في الباب السابق

ثم رحل المغيث عن أنطاكية لتوّه فإنه لم يكن من اهلها — كما قال —

وليست من مواطنه ولكن يمر بها كما مرَّ النعامُ

فالتفت أبو الطيب فلم يجد من يمدحه الا القاضي ابا الفرج احمد بن الحسين المالكي ثم عليّ

ابن منصور الحاجب وعمر بن سليمان الشرايبي — وهو يومئذ يتولى الفداء بين الروم والعرب —

وليس في مدحه لهم شيءٌ يذكر مما يدل على أن الرجل كان قد ملّ فهو يقول ليكتسب ما يقوته

ويقوت أهله ثم ضاق بهم ذرعاً، وضاق ذرعاً بما يكاد به، فغزم الرحلة إلى حمص ولبنان فر في

طريقه بالفراديس من أرض قنيسرين وهي التي فيها (حمص) فسمع زئير الاسد فقال

أجارك يا أسد الفراديس مكرمٌ ؟ فتسكن نفسي ، أم مهانٌ فسلمٌ

(ورائي وقد احيى عداةً كثيرةً أحاذر من لصٍّ ، ومنك ، ومنهم

(فهل لك في حلقي على ما أريده فاني بأسباب المعيشة أعلمُ)

إذا لا تأكل الرزق من كل وجهه وأثريت مما تضمنت وأغم

وفي خطاب أبي الطيب للاسد في هذه الايات يتجلى كل ضميره، وما فيه من آثار العداوة،

وما فيه من المطالب والاماني، وهي تدل دلالةً بينة على ان الرجل كان قد ملّ من مدحهم، وأراد

ان يجد منفذاً ينفذ منه الى تحقيق آماله وآرابه في إدراك تأرّه من عداته، واصلاح ما أفسد

الحكم القائم في البلاد العربية، وكان يودُّ ان يلتقي الرجل الذي يعينه ويستعين به على أغراضه

ويكشف له عن ضمير نفسه. فكان مدحه هو المقدمة للاتصال والاختبار ان يجد عند احد

ما يؤمل، فدح في طريقه الانطاكي عبد الرحمن بن المبارك، ولكنه لم يجد لديه شيئاً، فقصد الى

لبنان في جوار الكاتب أبي علي هرون بن عبد العزيز الأوراجي وبقي عنده ومدحه مدحاً عظيماً

ولكن الرجل لم يكن عند ظن أبي الطيب، فأقام عنده يستجِمُّ من مشقة السفر في ربي لبنان،

يصطاد ويترد ويعترف من ينبوع الجمال الذي أنبطه الله في تلك البلاد

ومهمه جِبْتُهُ على قديمي
تَعَجَّرَ عَنْهُ العرامس الذليل
بصارمي مرتدٍ ، بمخبرني
بجترى ، بالظلام مشتل
إذا صديقٌ نَكَرْتُ جانبه
لم تُعِينِي في فراقه الحيلُ
في سَعَةِ الخافقين مضطربٌ
وفي بلادٍ من أختها بدلُ

كان لهذا الاضطراب والملل الذي استشعره أبو الطيب في رحلاته في البلاد التي أوجزنا لك رسمها، اثر كبير في قلبه الموجه التأمل . وكانت ايام الهدوء والراحة التي اهتبلها من غفلة الزمن قد جددت معاني قلبه ، ورمت في فؤاده بالحطب الذي يوقد به ناره ، فلما ملَّ الأوراجي ولم يجد منه شيئاً ولا عزمًا ، وكان أبو الحسين بدر بن عمار بن اسماعيل الاسدي قد صعد الى طبرية من قبل ابي بكر محمد بن رائق ليتولى حربها اي قيادة جيشها وحمايتها في سنة ٣٢٨ — وكان أبو الحسين فيما نظن عريئًا ماضيًا كالسيف ، حلو الثبائل سمحًا ، قريب المذهب من ابي الطيب في بنضاء العجم ، لما ازلوه بالدولة من التفرقة والتمزيق — فصدده أبو الطيب فرحًا كأنما وجد فيه ما اراد من الفكرة والسطوة والسلطان والقوة ، والرجولة الفذة التي ابدع أبو الطيب في عفاها بعد حين اعجب بها وفتن . وكانت اول قصيدة مدح بها تدل على ما ادرك ابا الطيب من الفرح والنشوة ، وانتظار الفرج على يديه

أحلمًا نرى ، أم زمانًا جديدًا أم الخلق في شخصٍ حيٍّ أعيدًا ؟ !
تجلى لنا فاضًا بنا به كأننا نجومٌ لقين سعودا
فقد جمع أبو الطيب في هذين البيتين كل عاطفة ينبض بها قلبه ، وما استثارها من الفرح

بهذا العربي الذي

تعرف في عينه حقائقه كأنه بالذكاء مكتحل
(أشفق عند انقباد فكره — عليه منها — أخاف يشتل)

وبقي المتنبي في جوار بدر وفي مجالسه (وفي عريته) من أواخر سنة ٣٢٨ الى اوائل سنة ٣٣٣ على وجه التقريب لا على التحقيق، وكأنه كان قد أحب الرجل حباً عظيماً لما يرى من مروءته وقوته ورجولته. والظاهر ان بدرأ قد وجد في نفسه لابي الطيب مثل ما وجد له، فأعان ذلك الشاعر على ان يتفتح ويحيد ويبدع، فان مدائح ليدر تكاد تكون في الطبقة الثانية من جيد شعره، وفيها ايات في الطبقة الاولى من الشعر العربي كله. وقد بدأ نهجه ايضاً يتغير ويتميز بألوان وآيات. ولا عجب، فقد مارس الرجل الحياة بشاعريته، وتلقف من الدنيا عبرها وحكمها، وسمع منها وحفظ عنها، وأعمل فيها ذهنه المتوقد، وأرسلها إلى قلبه ليفتها بناره، ويصوغها في بيانه الذي وصفناه أولاً، ثم زين بها كلامه. ولم يكن طوان هذه السنين يدع استيعاب الكتب والآراء، ونقدها، والتبصر في أعقابها واطرافها. وأيضاً فإنه كان قد بدأ يستحکم بفعل طبيعة الحياة البشرية فقد شارف الثلاثين، وامتلاً شبابه بقوته وقوته ورجولته، وعب قلبه بآلامه وأحقاده وآماله التي كان يجاهد فيها ويسعى لها ليحققها. وأيضاً فإن الأمل في إدراك الطلب، وبلوغ الامنية والظفر بها، وقرب تحقق الفلج على الخصوم، مما يشعل القلب ويزيد النفس مضاً ونفاذاً. وقد كان له ذلك كله في جوار صاحبه وحيبه بدر بن عمار الاسدي العربي الذكي الفؤاد، فاتخذ أبو الطيب سبيله في الشعر عجباً، واستقام على طريقته، ومضى على غلوائه، ورمى الدنيا بيمينه نسر كاسر يتلو فريسته أن تقرأ منه، وزاده علواً ما وجد من حماية بدر له في طبرية موطن أعدائه كما حدثناك، وأورى زناده ماتي من عداوة بعض الشعراء له، وما سعى به الوشاة المفسدون لدى بدر بن عمار ليقبلوا عليه قلبه. ومثل أبي الطيب اذا أريد به الشر انتفض انتفاضة الاسد اذا رامه عدو، وفي انتفاضة تتقدف قوته كلها على لسانه البليغ المين، وذلك لقوة أعصابه، وشدة توترها، وسرعة تأثرها مع ذلك

وفي جوار بدر بن عمار الاسدي بدأت عصبية أبي الطيب للعرب والعريية تسفر عن وجهه، وتجلو عن نفس الشاعر ظلمات قد ضربت عليها حجابها، وهيات شاعريته لما يستقبله لدى سيف الدولة العدوي العربي هازم الروم، وقامع الدسائس الفاطمية بالشام وبعض العراق. وبذلك كله كانت هذه الفترة من ترتيب الزمن في تكوين الشاعر الاكبر تطريقاً وتمهيداً للنبوغ الفذ الذي استودعه الله في قاب هذا الشاعر وفكره وأدبه وقوته وحقده وتأاره والعصر الذي عاش بين اهله مبتلى بمعاشرتهم... او كما قال في آخر عمره يعني نفسه

وقت يضع، وعمر... ليت مدته في غير أمته من سالف الأمم !!
أني الزمان بنوه في شببته فسرهم... وأتينا على الهرم !!

وقوله يعني أهل عصره

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغامُ
ودهره ناسه ناس صغار وان كانت لهم جث ضخام

أحب أبو الطيب بدر بن عمار، وأحبه بدرٌ وأكرمه ورفعته إليه وعزّزه، ونصره على أعدائه من العلويين أو أشيعهم بطبرية وما جاورها، ووجد كلاهما في صاحبه ملجأً يأوي إليه، فقد كان أبو الطيب مهضوماً مطاردًا. وكان قلبه ممتلئاً من آثار الظلم التي أوقعتها جبايرة العصر بالعرب، وكان فكره متبعاً لدهاء دهاة السياسة الذي كانوا يعملون على قلب الدولة أو تمزيق شملها بالشعوية العجمية البغيضة المبيضة إليه، وكان يرمي ببيصره فلا يمجّد العربي الذي يأوي إليه، فإن وجده فيننه وينه أهوال. فلما وجد بدرًا، ووجد في قلبه وفكره مثل الذي في قلبه وفكره، توفّد الرجل الشاعر توقد النار المستمرة قد وجدت طعامها من الحطب

وبدأ يصف بدرًا العربي الشجاع المحارب، ويصف الحرب، ويصف كل قوة أو مثلاً من قوة، ويبدع في ذلك كله مستمدًا من قلبه الجري، وخياله المتسامي إلى أشرف السلطان والغلبة، حتى خرجت مدائحها في بدر آية في دقة التصوير، وسمو المعنى، وشرف الغاية... يقول في صفة بدر

(هان على قلبه الزمان، فما	يبين فيه غم ولا جدل)
يكاد من طاعة الحمام له،	يقتل من ما دنا له الأجل
يكاد من صحة العزيمة، ما	يفعل قبل الفعّال بفعل
(تعرف في عينه حقائقه	كأنه بالذكاء مكتحل)
(أشفق - عند انقاد فكرته -	عليه منها، أخاف يشتعل)
(أغرّ - أعداؤه إذا سلموا	بالهرب - استكبروا الذي فعلوا)
يقبيلهم وجه كلّ ساجدة	أربعها - قبل طرفها - تصل

والظعن شزر، والأرض واجفة
قد صبغت خدّها الدماء كما

(يا بدر، يا بحر، يا غمامة، يا	ليث الشرى، يا حمام، يا رجل
ان البناب الذي تقابه	عندك، في كل موضع مثل
(انك من معشر اذا وهبوا	ما دون أعمارهم فقد بخلوا)
(قلوبهم، في مضاء ما امتشقوا،	قاماتهم، في تمام ما اعتدلوا)

(مثلك يا بدر لا يكون ، ولا تصلح - الأثلثك - الدول)

ومن تدبير هذا التهج في المدح ، ورجوع الى مدائح الاولى ، ولم يخجل فكره مما ذكرناه في اول هذا الباب ، وجد في هذا الشعر عاطفة الشاعر الذي عطفته على بدر ، وعرف ان هذا الشعر ليس مديحاً كالذي تلوكة الالسنه ، وينقده نقاد عصرنا هذا ، بل هو تصوير الرجولة وازاها في الفاظها الحية ، وتفصيل مميزاتا عند الشاعر ، ووجد ايضاً صدقاً في ذلك كله ليس لشعر ، ولا لشعر ابي الطيب نفسه فيما سبق من مدائحه ، وهذا موضع للتدبر والتأمل ، قد بره وتأمله ^(١) ... وتأمل قوله « يا بدر ، يا بحر . . . » فقد ناداه باسمه ، ثم بصفة صفة من بعض صفاته ، فلما امتد في الصفات الى كل غاية ، ووجد انها مما لا يفرغ منه ، ضمن كل المعاني التي في نفسه من صفة بدر في لفظ واحد هو قوله « يا رجل » فقد كانت كل صفات صاحبه هي الرجولة ، تحتها كل كريمة من معاني النفس من مروءة وهمة وشجاعة وسباحة وسناء

وكان المتنبى - في عشرته لابن عمار - قد بدأ يفسح في شعره مجالاً لاحساسه القوي بالجمال القوي المشبوب ، معبراً عنه بالعبارة المرسله من قلبه القوي المشبوب ، فكانت قصيدته في وصف الاسد والمقابلة بينه وبين بدر وأسديته وقوته رائعة قليلة المثل ، مفردة من بين الشعر العالي ، اجتمعت له فيها الحكمة السهلة ، والبيان المشرق الندي ، والخيال الجامع المقدر المبدع ، والاختيار الصافي للصفات المميزة التي تجعلك تقرأ صفة ما يصف وكأنك تراه ماثلاً بين عينيك . ولا بأس من ان نورد لك بعض ذلك على سبيل المثل هنا ، اذ كانت هذه الطريقة الشعرية قد بدأت عند الرجل ثم استحكت فيه حتى بلغت اقصى غاياتها من شعره الذي قاله في سيف الدولة بعد قالوا . . . خرج بدر بن عمار الى اسد فهرب الاسد منه ، وكان قد خرج قبله الى اسد آخر - كان يقطع طريق السابلة ، ويأحق بهم اذى كثيراً - فهاجه عن بقرة افترسها بعد ان شبع وثقل ، فوثب الى كفل فرسه فأعجبه عن استلال سيفه ، فبادره بالسوط يضربه حتى مرّغه في التراب ... فقال

أمعّصرت الليث الهزبر بسوطه ! لمن ادّخرت الصارم المصقولاً ؟
وقمت على الأردنّ منه بايئة ، نضدت بها هام الرفاق تلوّاً
وردّ ، اذا ورد البحيرة شارباً ، ورد الفرات زثيره والنيل
(متخضب بدم الفوارس لابس في غياه من لبدتيه غيلاً)

(١) ليس فيما بقي لدينا من (المتقطف) سعة حتى نشرح هذا ، فنسأل القارىء ان يعيننا بدكائه ولفظته وأدبه ، فان عمض عليه شيء ، فليراسلنا بعنواننا ، ليعتق لنا ان نوفي ابا الطيب حقه في كتابنا ان شاء الله ورضى القارىء بما يريد والله التوفيق

(ما قوبلت عيناه إلا ظننا
 (في وحدة الرهبان ، إلا أنه
 (يبطأ الثرى مترفقاً ، من تبهه ،
 (ويردُّ عُفْرته الى يافوخه
 (وتظله مما يزجر ، نفسه
 (قصّرت مخافته الخطي ، فكأنما
 (ألقى فريسته ، وبربر دونها ،
 (فتشابه الخلقان — في أقدامه —
 (أسد يرى عضويه فيك كليهما :

(ما زال يجمع نفسه في زوره
 (وبدقُّ بالصدر الحجارة ، كأنه
 (وكأنه غرته عين ، فاذني ،
 (أنف الكرم — من الدنية — تارك
 (والعار مضاض ، وليس بخائف
 (سبق التقاء كه بوثة هاجم
 (خذلته قوته ، وقد كاخته
 (قبضت منيته يديه وعقته
 (سمع ابن عمته به ، وبجاله ،
 (وأمرئ مما فر منه فراره
 (تأنف الذي اتخذ الجراء خلة

(حتى حسبتُ العرض منه الطولاً
 (يعني الى ما في الحضيض سيلاً
 (لا يبصر الخطب الجليل جليلاً
 (في عينه العدد الكثير قليلاً
 (من حقه ، من خاف مما قيلاً
 (لو لم تصادمه لجازك ميلاً
 (فاستصر التسليم والتجديلاً
 (فكأنما صادقه منغولاً
 (فنجأ يهروا أمس منك مهولاً
 (وكفته ان لا يموت قتيلاً
 (وعظ الذي اتخذ الفرار خيلاً

فهذا شعر لو ذهب أينه وأفضله وأجلوه لما أعاتني (الوريات) ولا وسعتني ، وفيما رسمته في طريق كلامي عن شاعرية الرجل كفاية لو تدبرت . وقد أثبتنا لك كثيراً من القصيدة اللامية السالفة ، ثم هذه في وصف الاسد ، لان هاتين القصيدتين هما (نقطة الانقلاب) — كما يقولون — في شاعرية ابي الطيب من النهج الاول الى النهج الثاني الذي لزمه وسار في دربه ، وتميز به . ففي هاتين نجد ابا الطيب فتى وكهلاً وشيخاً . ولو قسمتها الى ما يأتي بعد من شعره لوجدت أن الرجل قد بدأ يستمر مريره بدءاً من هذه السنوات التي أقامها عند بدر بن عمار من سنة ٣٢٨ ، وفيها أيضاً الاصول النفسية والشعرية والبيانية التي مددنا لك اطرافاً منها في ثبات القول

ولابد هنا من الإشارة الى موضع يكثر مورده في شعر أبي الطيب ، ذلك ان الرجل لاستحكام أصل الرجولة والمروءة والفتوة في نفسه غير مدع ولا متمثل — كان اذا رأى ما يخالف الرجولة ويحط منها ، اهتزت نفسه واشتأز ، وأبدى ازدراءه واحتقاره ، فهو يجب من عدوه أن يستمسك بعروة الرجولة في اللقاء والهزيمة والنصر كما يجب ذلك من نفسه . . . حين فرّ الأسد الثاني الذي ذكره من بدر بن عمار بعد هزيمة (ابن عمته) ، استدعى ذلك احتقار أبي الطيب له ، فنارت رجولته كلها لهذا الفرار القبيح من أسدٍ هو الأسد ، فضمن شعره هذا المعنى من الازدراء والسخرية به حيث يقول

« سَمِعَ (ابن عمته) به وبِحَالِهِ فَنَجَا يَهْرُولُ أَسْسَ مِنْكَ مَهُولًا »
 « وَأَمْرًا مِمَّا فَرَّ مِنْهُ فِرَارُهُ وَكَقْتَلِهِ أَنْ لَا يَمُوتَ قِتِيلًا »

فن ألوان السخرية والتهكم والازدراء لهذا الأسد الحيان ، انه حين وصف فراره جعله (هرولة) ، والهرولة حالة بين المشي والعدو ، فهو من خوفه واضطرابه ترك المشي وأراد العدو ، ولكن منعه الملع أن يعدو فاضطك فصار عدوه للفرار بنفسه لا هو من العدو ولا هو من المشي . ثم أبدى في البيت الثاني كل احتقاره له بقوله « وكقته أن لا يموت قتيلا » فما يحسن بأسدٍ أن يفرّ وإنما خَطَّان : إما صبرٌ وظفرٌ وإما إقدامٌ وحفٌ ، فبذلك يثبت الأسد أنه أسدٌ لا خروفاً ولا نعاماً

ولنضرب لك مثلاً آخر في ذلك . ففي سنة ٣٤٢ أوقع سيف الدولة بالروم في موقعة (بطن هزريط) وكان الدمستق وولده مجاربان ، فجرح الدمستق ، وأصيب ولده في مقتل أشنى به على الموت ، وفرّ الدمستق تاركاً ولده في يد الموت ، فلم يفت أبى الطيب حين ذكر هذه الموقعة أن يشير إلى هذه الحادثة ، وأن يدل على ازدراءه واحتقاره لهذا الدمستق الذليل الحيان الذي خالف مهجته وولده للموت ، فكان مما قال

لعلك يوماً يا دمستق عائدٌ فكم هاربٍ مما إليه يؤولُ
 (نجوتَ بأحدى مهجتك جريحةً وخلفتَ إحدى مهجتك تسيلُ)
 (أنسلم للخطية ابنك هارباً؟ ! ويسكن في الدنيا إليك خليلُ) !!
 (بوجهك ما أنساك من مرشنة نصيرك منها رنةٌ وعويلُ)

وهذه الايات غاية في الدلالة على استحكام الرجولة في طبع أبي الطيب ، وانه كان يؤذيه ويشيره ان لا يجد في الرجال صفة الرجولة — من اقدم وصبر ومروءة وشهامة وما الى ذلك من كريم الصفات ، ولو كان اولئك الرجال من اعدائه . وأعد قراءة البيت الثالث فكأنك بأبي الطيب ينشده متعجباً مزدرياً ثم يبصق على صورة هذا الحيان الدمستق

ثم رجنا الى ما كنا فيه : وجد ابو الطيب في بدر بن عمار (الرجل) ، فاستقرت هداً حيناً وملاً نفسه من خلال القوة والفتوة والمروءة التي تحقق بها بدر. ولكن وقع في هدوئه واستقراره واقع هزه ونفضه ، وذلك انه وهو بطبرية — التي كان بها العلويون من اعدائه ، والذين ذكرهم فيما قدمناه لك في قوله في صفة البحيرة — بحيرة طبرية

« يشينها جريها على بدر تشينه (الادعاء) و(القرم) »

لم يقفنا نجد من عداوتهم له كيداً كثيراً ، حتى سموا به لدى بدر بن عمار ، واغروا به الشعراء ليضيؤوه بالسنتهم ، وكان هنالك رجل متمتع باحدى عينيه (أعور) يدعى ابن كروم ، وكان قد اتصل ببدر ، وكان من أشد أعدائه عليه ، ولذلك قصد بالذکر من بينهم . ونحن وان لم نكن نعرف شيئاً عن هذا (المتع) ابن كروم إلا أنه يخيل لنا انه كان من صنائع العلويين او الفاطميين ، سحب بدرآ كالعين عاينه ، ثم ليجمعه ينحاز اليهم ان استطاع الى ذلك سبيلاً — على عادتهم مع الامراء وغيرهم تمهيداً لقلب الخلافة من العباسية الى العلوية او الفاطمية فلما كان ذلك ، دخل على فرح ابى الطيب ما رده الى قائمه واضطرابه وغمومه وهمومه ، فعاد يذكر أحزانه ، ويقلب الرأي في الفراق اذ لم يجد عند بدر عضداً ينصره نصره المحب الحينيه ، فيقول

كأن الحزن مشغوفٌ بقلبي فساعة هجرها يجد الوصالاً
كذا الدنيا- على من كان قبلي- صروف لم يد من عليه حالاً
(أشدُّ الغمِّ عندي في سروري تيقن عنه صاحبه انتقالاً)
(ألفتُ رحلي ، وجعات أرضي فتودي والفريري الجلالاً)
(فما حاولت في أرض مقاماً ولا أزمعت عن أرض زوالاً)
(على قلق كأن الريح تحيي أوجها جنوباً او شمالاً)

ثم يقول بعد آيات يذكر مالتى من أعدائه من الشعراء

فيا ابن الطاعنين بكلّ الدنـ
ويا ابن الضارين — بكلّ غضبـ من العرب — الاسافل والقيلالـ
أرى المتشاعرين غرّوا بذمي ، ومن ذا يحمد الداء المضالـ ؟ !
ومن يك ذاقهم مرّة مريضـ يجد مرّاً به الماء الزلالـ
وقالوا : هل يبدفك الثريباً ؟ فقلت : نعم ، اذا شئت استقالـ

فهو بهذه الايات يعرض عليه ما يلاقي من الكيد ، ويستعديه بالبيت الاخير على نصرته على أعدائه . ولا ندري ما الذي كان يكادُ به ابو الطيب ، ولكن نظنّ انهم كانوا يتغامزون به وبشعره وما فيه من الغلوّ والطموح وما يرد في أثنائه من الوعيد للطفاة والملوك والاعداء ، والانذار لهم أن يصيبهم من قبله كلُّ مكروهٍ . والحقيقة ، ان هذه المعاني في شعر ابي الطيب مما يستجلب التنبيه لها ، والوقوف عندها ، فليس في العربية كلها شاعرٌ قد كثُر ذلك في شعره كما كثُر في شعر ابي الطيب ، بل أنت تقاب دواوين الشعراء جميعاً فلا تكاد تجد فيها هذه المعاني في الانذار والوعيد والتربص ، وخاصة في المدح الذي يراد به عطف القلوب لاستخراج مكنونها ، وإلانة الايدي لقبض نواهلها . وهذه المعاني مما يعكس على الشعراء مرادهم إن راموه وتماطوه في اشعارهم . أما ابو الطيب فقد جعلها عمود شعره غير مبالٍ ولا حافلٍ . فمن هذه الظاهرة في شعره — نعني اعتماده في كثير منه على الانذار والوعيد — بدأ أعداؤه في جوار بدر يسمنونه (المتنبّي) ويغيطونه بذلك ، ويضنون أنه يتشبه بالانبياء اذ كان عمود نبوتهم هو الانذار والوعيد أيضاً وهو قد جعل بنيان شعره على هذين ، ولعلّ هذا هو المراد بقوله « أرى المتشاعرين غروا (بذي) » فهذا ذمه عندهم كما ترى

واشددّ هذا الكيد على ابي الطيب حتى حمه على فراق بدرٍ إذ (نكر جانبه) حين لم يجد عنده كل ما أراد ، ووجده يسمع للوشاة ويصنّهم أذنه . وكان آخر ما لقي ابو الطيب من ذلك حين سار بدرٌ الى الساحل (ساحل طبرية) حين أضيف عمله إلى عمله بطبرية ، وكان ابو الطيب قد تخاف عن المسير معه ، فانهز ذلك الاغور ابن كروس فكتب إلى بدرٍ يقول له « إن أبا الطيب إنما تخلف عنك رغبةً بنفسه عن المسير معك » . وبلغ ذلك أبا الطيب فتارت نفسه وعزم الرحيل والفراق ، ولكنه أجل ذلك حتى يعود بدرٌ ليعرف ما عنده ، والظاهر أن بدرًا كان قد حمل في نفسه شيئاً من آثار هذه السمايات . فلما عاد الى طبرية ولقيه أبو الطيب فظن لما يدور في نفس بدر ، وخاف ان يخذله فاعتمد الرحلة وطى الارض ، ولذلك كانت آخر قصيدة مقصّدة مدح بها بدرًا بينة الدلالة على اضطراب نفسه وقلقه وعزمه هذا فهو يقول فيها

« أنكرت طارقة الحوادث مرة ثم اعترفت لها فصار ديدنا

وقطعت في الدنيا الفلا ، وركابتي فيها ، ووقتي الضحي والموهنا

وظهر فيها ايضاً خوفه ان يسلمه بدر الى أعدائه ، فيرصدوا له ويفتكوا به على غرة ، فصرح

لبدر بذلك حيث يقول يذكر امر تخلفه عنه ، ثم مخاوفه ، ثم يندره

فطن الفؤاد لما أتيت الى النوى ولما تركت مخافة ان تفظنا

اخشى فراقك لي عليه عقوبة ليس الذي قاسيت منه هيناً
 فاغفر- فدى لك- واحببني من بعدها لخصصني بعطية منها (أنا)
 (وإنه المشير عليك في بضلة فالحر ممتحن بأولاد الزنا)
 (وإذا الفتى طرح الكلام معرضاً في مجلس أخذ الكلام اللذعنى)
 (ومكابد السفهاء واقعة بهم وعداوة الشعراء بشس المقتنى)
 لُعنتم مقارنة اللثيم، فإنها ضيف يجر من الملامة ضيفناً
 (غضب الحسود- إذا القيتك راضياً- رزء أخف علي من أن يوزننا)

ثم بقي مع بدر وهو يضر في نفسه فراقه ، فكان يتبع مرضاه في كثير مما لا يرضى به حتى شرب الخمر في منادته ، ليصرف بدرأ عما كان في نفسه قليلاً حتى تعرض له الساعة المواتية للفراق . فلما انت الساعة بادر واحتمل اهله ونفسه وخرج الى دمشق وقصد عملاً من اعمالها يقال له (حمى جبرش) كان به أبو الحسين علي بن احمد المري الحراساني ، وكانت بينهما مودة وها بطبرية ، فلجأ اليه ، واحتمى بحماه ، وذلك في سنة ٣٣٣ على وجه التقريب لا التحقيق



لا أفترى بلداً إلا على غررٍ
ولا أمرٌ بخلق غير مُضطَفينِ
ولا أعاشرُ من أملاكهم ملكاً
إلا أحق بضرب الرأس من وثني
مدحتُ قوماً ... وان عشنا نظمت لهم
قصائدًا من إناث الخيل والحُصنِ
فلا أحاربُ مدفوعاً إلى جُدُرٍ،
ولا أصالح مغروراً على دَخَنِ

اتَّصر (ابن كرويس) الاعور على أبي الطيب، وأفسد عليه بدر بن عمار . ويَسُنُّ أن دهاء أبي الطيب وحيلته أعاته على اجتناب الخطر الذي كان له رصداً في طبرية، والذي كاد يدركه مرة أخرى بعد في سنة ٣٣٦ حين أرصد له العلويون ليقنلوه فقاتهم الى الرملة، وهذا مما رجَّح عندنا أن (ابن كرويس) كان من شيعة العلويين او من انفسهم او من دعاة الفاطمية وكان ابو الطيب — كما قدمنا لك — وهو عند بدر قد بدأ يطمئن ثم حاجه هذا الاعور ابن كرويس فانطلق الى غايته في نفسه من الحقد والتورة والاقترام ولكنه كتم ذلك . فلما نزل بعلي بن احمد المرسي كانت قصيدته اعلاناً للحرب مرة أخرى، وزلزلة وقعت في قلبه فأخرجت قديمه من الاحقاد والبرات والآمال والآراء، واستمر ينتفض ويقذف بركانه بحسمه إلى ان كان اتصاله بأبي العشار في اواخر سنة ٣٣٦ . وكان شعره — في هذه الاغراض ثم في هذه الفترة — نظرات متطيرة كالشرر تحت ظلام الليل، وهي مع ذلك حكيمة تقع في المفصل ولا تخطيء، إذ كان الرجل قد تحنك واستحکم واستمر في الشعر على طريقته، مما وجد من الهداة في جوار بدر ثم ما وجد من الكيد بعد. ولم يتصل بعد بدر بأمر بنادمه بل كان ينتقل من مكان إلى مكان ناثرأ منضياً موعداً منذراً مرعداً، يريد ويبغي، ويؤمل وينتظر، ويمل ويسأم، ويحنق ثم ينفجر فانظر الآن الى هذا الشعر الذي قاله لعلي بن احمد المري بعد ان ترد النظر مرة أخرى

إلى ما كتبناه في الفصل الثامن يقول

(لا افتخاراً إلا لمن لا يضامُ مُدركاً أو محارباً لا ينامُ)
(ليس عزماً ما مرض المرء فيه ليس همماً ما عاق عند الظلامُ)

واحتال الاذى — ورؤية جانيه — غدا لا ترضوى به الاجسام
 ذل من يضبط الدليل بميش — رب عيش أخف منه الحام
 كل حلم أتى بغير اقتدار — حجة لا حجة اليها اللثام
 من يهن بسهل الهوان عليه — ما لجرح يميت لإيلام
 (ضاق ذرعاً بأن أضيّق به ذر) — عاً زمانى ، واستكرمتي الكرام
 (واقفاً تحت أخصي قدر نفسي) — واقفاً تحت أخصي الانام
 (أقراراً ألدّ فوق شراري!!) — ومراماً أبني وظلمي يرام!!
 (دون أن يشرق الحجاز وبجد) — والعراقان — بالقنا — والشام!

فهذه آيات قد اجتمعت فيها نفس المتنبي كلها بحكمتها ونجربتها وعلوها وقوتها ورجولتها ونورتها وانتفاضها وزلازلها ، وآمالها وأحقادها ووعيدها وإنذارها ، وصدقها وعواطفها المتسكرة التي يأكل بعضها بعضاً ، وفيها (توقيع المتنبي) على كل بيت . فلا تحسبن شاعراً يستطيع أن يأتي بمثلا أو يسرق معانيها إلا أن يستطيع ان يسرق نفس أبي الطيب وقلبه حجة من بين جنبيه ، أو إلا أن يكون قد مهد له في نفسه وفي صدقه وفي آلامه وآماله وغير ذلك ما تيسر لأبي الطيب وألقى أبو الطيب هذه (القنابل) الحكيمة في حمى جرش ثم أدركته مكاييد الاعور ابن كرويس أو العلويين فمجّل بالرحيل غير مختار له ، فقال يودّع صاحبه المرّي وبتدريه ، وقد أبان في الايات كل الإبانة

(لا تترك رحيلي عنك في عجل
 وربما فارق الانسان مهجته
 فإني لرحلي غير مختار)
 يوم الوغى - غير قال - خشية العار
 فاجعل نذاك عليهم بعض أنصاري)

ثم انطلق من حمى جرش يتقحم البوادي عجلاً يفور فوران القدر على نارها المتضرمة ، وتسعرت الدنيا في عينيه ، وتلذعت الافكار النارية بين جنبيه ، فخرج شعره كعممة الحريق ونقيضه وزفيره وفرقته ، كما سترى . ومن شدة ما لقي أبو الطيب من كيد هذا الاعور ابن كرويس كان — على عادته — يتخيّله كلما تلفت في مسيره واقحامه ظلمات البادية . وقد حفظ لنا أبو الطيب في شعره — على عادته ايضاً — صورة ناطقة من إحساسه وعواطفه وهو بطوي البادية طياً عجلاً فقال (١)

(١) لقد أكثرنا من نقل شعر أبي الطيب اذ كان السياق الآن يقتضى ذلك ، ولثلا تقطع القارىء بالرجوع الى الديوان ، ثم لنختصر القول من ناحية اخرى ، فعلى القارىء — كما كتبنا على انفسنا — ان يستنبط ويستخرج المعاني على الاصول التي درجنا عليها في كتابنا . هذا والتدبر والتأمل أصل الاصول في العلم والاستنباط

ركبت مشمراً قدي اليها وكل عذافرٍ فلق الضفور
(أواناً في بيوت البدو رحلي وآونةً على قد البعير)
(أعرض للرماح الصم محري وأنصب حرّ وجهي للهجير)
(وأسرى في ظلام الليل وحدي كأنني منه في قرير منير)

وهذان البيتان فيهما من رجولة أبي الطيب وتفحصه ومضائه وتدفعه وأسبته بالشقاء في سبيل آرايه وآماله ما فيهما ، ففسرها لنفسك ، واعلم ان هذا الرجل شاعرٌ مبدعٌ ، قلبه في لسانه ، وعواطفه في يانه

(فقل في حاجةٍ لم أقض منها — على شفقي بها — شروى فقير
(ونفس لا تحب الى خسيس ، وعين لا تدار على نظير)
(وكف لا تنازع — من أتاني — ينازعي — سوى شرفي وخيري)
(وقلة ناصر — !! جوزيت عني — بشر منك — يا شر الدهور!)
(عدوتي كل شيء فيك حتى لحلت الاكم موغرة الصدور)
(فلو اني حسدتُ على نقيس لجدت به لذئ الجد العثور)
(ولكني حسدتُ على حياتي ، وما خير الحياة بلا سرور؟)
(فيا بن كروّس ، يا نصف أعمى ، وإن تفخر ، فيا نصف البصير)
(تعاديننا لأننا غير لكن ، وتبغضنا لأننا غير عور)
(فلو كنت امرءاً يهجي هجونا ولكن . . . ضاق فتر عن مسير

وإما تدبرت الايات، فستجدن ان نفسه الكريمة الاية الانوفة المستكفة قد أريد بها الشر والاذى فاهزت ، وتدافعت هزاتها في أعصابه كلها ، فأثبتها على لسانه المين في هذه الالفاظ المتقصة بأعواتها ومعانيها وألوانها البيانية في التدفع والالتفات والانتقال، ثم في البغض للدنيا وازدراءها ، ثم في السخرية والهكم والاحتقار لهذا الاعور الذي هاجه عن عشه في جوار ابن عمار وأراد انبه خيراً بشاعرية هذا اللسان القوال العربي المين ، إذ رماه بان كروّس بعد هدأة واستجمام . فلما طوى البادية على ما وصفنا يقصد قصد انطاكية ، فدخاها في سنة ٣٣٤ وكان بها أبو عبد الله ، محمد بن عبد الله بن محمد الحصبي ، وكان نبوب عن ابيه في مجلس القضاء بأنطاكية وكان داهية من دهاة عصره فيما نرى ، فقصده أبو الطيب بمدحه ، وجعل أول القصيدة بدل على ما وصفنا لك من تسمر الدنيا في عينه وبين جنبيه ، وكانت معاني مدحه من هذا الباب ايضاً . وقد تضمنت الايات التي سنقلها لك آراءه في الحيل الذي كان يتقلب بين رجاله ، وازدراءه للرجال الذين قصدهم فلم يلف عندهم خيراً بعينه على حاجته التي قال فيها فيما مضى من الايات

(فقل في حاجة لم أقض منها) ، ثم وصف رحلته بين اهل البادية ، وما كان يحذره في ارضهم خوف الطلّاب أن يهتدي اليه فيدركه فيفتك به ، ثم يثور ويتمزّع في أعنة نفسه فيندثر ويوعد وبذلك تعرف ان نفسه كانت على غايتها متوترة مستوفزة ناثرة . ثم يأتيه كتاب جدته فيقصد العراق ، فيمنعه اعداؤه من العلويين الذين ارادوا به السيء من دخول الكوفة التي بها جدته ، فيجلب ذلك عليه المم والالم ، فتموت جدته فيبيح ويتلذع ويثن ويبيح ، ثم تدركه رجولته فتزد عليه قوة مضاعفة فيدع وينفرد بقصيدة من اجزل الشعر وأرضه ، ومن اكثر شعره خاصة دلالة على ما في نفسه ، وما اصابه في حياته من مولده الى يومه هذا سنة ٣٣٥

يقول أبو الطيب

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن (يخلو من المم أخلام من الفطن -)
 (واتما نحن في حيل سواسية شير على الحر من سقم على بدن -)
 (حولي بكل مكان منهم (خلاق) نخطي اذا جئت في استهماها، بمن -؟)

وهذا بيت يهجو بالفاظه قبل ان يهجو بعمائه ، ويدل على ما في نفس الرجل من الآلام ، وما لقي من اهل عصره من الكيد والمكر ، وما كانوا عليه من الحسة واللوم ، والشطر الثاني من البيت التالي صفة صادقة لعصره كما تجدها في التاريخ ، وقد اشرنا الى صفة هذا العصر فيما مرّ بك

ولا أمرٌ بخلق غير مضطغن - (لا أقترى بلداً إلا على غرر)
 إلا أحق بضرب الرأس من وبن - (ولا أعاشر من أملاكهم ملكاً)
 حتى أعقف نفسي فيهم ، وأني (أني لا عذرهم مما أعنفهم)
 فقر الحمار بلا رأس ، الى رسن - (فقر الجهول بلا عقل ، الى أدب -)
 عارين من حلل ، كاسين من درن - (ومدقعين بسبروت صحبهم)
 مكن الضباب لهم زاد بلا من - (خراب بادية ، غرث بطونهم ،)
 وما يطيش لهم سهم من الظنن - (يستخبرون فلا أعطيهم خبري)
 كما يرى أتا مثلان في الوهن - (وخلة في جاليس التقينه بها)
 وسمة حيلته ، ودقته في الحذر اذا أحيط به ، (وهذا البيت مما يدل على دهاء ابي الطيب وخاف ان يظفر به عدوه)
 فكلمة في طريق خفت أعربها فيهتدي لي ، فلم أقدر على اللحن

(١) قد استشهدنا بأبيات كثيرة من قصيدته في رثاء جدته فيما مضى في نسبه وغيره ، وذلك لما نرى من انها كانت تحمل نفس أبي الطيب كلها حريصاً ورغوياً

(قد هون الصبرُ عندي كل نازلة
 (كم غناص وعلى في خوض مهلكة
 (لا يُعجبن مَضِيماً حسن بزته
 (لله حال أرحبها ، وتخلفني
 (ولين الغزمُ حد المركب الحسن -
 (وقتلة قرنت بالدم في الحين -
 (وهل زروق دفيناً جودة الكفن -
 (وأقضي كونها دهري ومبطلني)

ولا يفوتك هنا ان ابا الطيب في هذه الفترة قد اشار الى مطلب له بهذا البيت في هذه القصيدة ومن قبل ما أشار اليه في القصيدة التي قبلها بقوله « فقل في حاجة لم أقض منها . . . » ونحن نقفك عند هذا البيت لتجعله منك على ذكر حتى يأتي تأويله فيما يستقبل

(مدحتُ قوماً، وإن عشنا نظمتُ لهم
 (قصائد من إناث الحيل والحصن -
 (تحت العجاج - قواقيها مضرة -
 (إذا نوسد ن لم يدخلن في أذن
 (فلا أحارب مدفوعاً إلى جدير،
 (ولا أصلح مغروراً على دخن -
 (محجيم الجمع بالبيداء يصهره
 (حرُّ الهواجر في صم من الفتن)

ويسن من نفس أبي الطيب في الشعر أنه قد تطلق واستن في عدوه إلى غايته ماضياً لا بلوي على شيء، وأن لسانه قد اندلق بمعاني قلبه، فهو مبين في شعره وإشارته، غير حافل بما سوف يلقاه من الكيد فيما بعد ولولا أن الرجل كان بركاني الطبع — يحمدهم يفور، ويقرئ ثم يتقلع — لما كان من اثر كيد ابن كرويس له، ما ترى في كلامه من التدفق والتدافع الذي تراه في اروييناك من الشعر. ويحسن بك وأنت تقرأ هذا أن تسبح مارسنا لك في التيقظ لإشارة الرجل، وأن يكون منك على ذكر أن الرجل كان حين يفور ويقول، تراءى لعينه ويدوي في مسمعيه كل ما سمعه أو مر به، فهو يوجز لك ما في نفسه ضميراً في آياته وكلماته

وقد استمر أبو الطيب على حاله التي نصف، حتى اتصل بأبي المشائر فكل شعره في هذه الفترة آراء ونظرات كلها مستبطن من ينايع نفسه، وذلك لما قلنا به من أن الاصل في نبوغ المتنبي هو (استيعابه ما يحس به من العواطف، ودراسة قلبه ومعرفة ما يحز فيه من الآلام، والمعاني التي تولد من هذه الآلام، ثم اهتداؤه إلى أن الشعر لا يكون شعراً إلا حين يروى من معاني القاب ويستقي منها) . . . وينا الرجل كذلك، إذ جاءه كتاب جدته تسأله المسير إليها وتشكو شوقها إليه، وطول غيبته عنها، فلما قصد الكوفة التي هي بها وشارفها حيل بينه وبين دخولها، ورؤية جدته المسكينة — على ما مضى في تأويل هذه الواقعة — فلما ماتت رحماً الله تارت نفسه، وقذف بكل مكنونها من الآلام التي لقيها، والحوادث التي فعلت فيه فعلها، وكاد يصرح بما لقي من كيد العلويين له في مسألة نسبه على ما فسرناه، وما قصد به من الحسد والوشاية. ويكفي ان نشير هنا إلى بيت واحد من قصيدته في رثاء جدته لتعلم أن بلغ الالم من

قلب أبي الطيب حتى مزقه ، والبيت لا يحتاج إلى شرح أو تفصيل ، وفي تدبره أو تأمل لفظه غنى ، إذ كان حسرةً محبوسةً في الفاظ ، وكمداً مكفوناً وراء كلمات . يقول
 (عرفت الليالي قبل ما صنعت بنا ، فلما دهنتي لم تزدني بها علماً)
 منافعا : ما ضرَّ في نفع غيرها ، تفدَى وتروى : ان مجموع وان نظاً
 واجتمع على أبي الطيب ما في قلبه من الألم ، وما فجأه من موت جدته فنزرت نفسه بقوتها
 حيناً ، واستسلمت بحكمها وفلسفتها أحياناً — وهو فيهما حكيم بليغ — فهو بعد ان ثار ما ثار
 بمثل قوله في رثاء جدته

كذا أنا يادنيا اذا شئت فاذهبي ويا نفس زيدي في كرائها قدماً
 فلا عبرت بي ساعة لا تعزني ولا صحبتني مهجة تقبل الظلماً

وانطلق من بغداد — حيث كان حين مات جدته — قاصداً أنطاكية بالشام ، يقول في
 القاضي أبي الفضل احمد بن عبدالله بن الحسن الانطاكي

انعم وأبد — فللا موراً وآخر أبداً ، إذا كانت لهن اوائل —
 مادمت من أرب الحسان ، فأما روق الشباب عليك ظل زائل
 للهو آونةً تمر كأنها قبل يزودها حيب راحل
 جح الزمان ، فلا لذيذ خالص مما يشوب ، ولا سرور كامل

ومثل هذا الرأي قليل عند أبي الطيب ، بل هو ليس من عادته ، ولا بما يواتيه طبعه على معاناته والعمل به . وإنما أتاه من انه كان قد اشتد في فورته الى الغاية حتى بلغ أقصى ماتحتمله نفسه من العنت والمشقة ، ثم اصابته فترة تعقب ذلك لا بد منها ، فاستخرجت حكيمته هذا المعنى وهو يحمل من اليأس والتعب والنصب ما ترى في مثل قوله « روق الشباب عليك ظل زائل » وقوله : « جح الزمان . . . » فهذا كلام اليأس المستسلم ، اذا قاله من كان مثل أبي الطيب في تدفُّعه وتفحُّمه وثورته ، وهو أشبه بالاستجمام من التعب والشقوة والنصب. هذا على ان الحالة التي كانت متبسة به ، لم تقارقه كل المفارقة بل كان فيه اعقاب منها ، فلما قصد المعاني التي يقصدها على طبعه وغريزته ، والتي تكون بالفاظها كالقنبلة في حديدها ، خرجت منه أطف تمييراً واكل تفجراً منها في غيرها .. فيقول لهذا القاضي

لا تجسر الفصحاء تنشد ههنا يتأ ، ولكني الهزبر بالاسل
 ما نال أهل الجاهلية كلهم شمري ولا سمعت بسجري بايل
 (واذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي باني كامل)
 من لي بفهم أهيل عصر يدعي — أن يحسب الهندي — فهم باقل

وكذلك ، ولكنه اقوى قليلاً ، ما أنى به بعد في قصيدته لآخي هذا القاضي (ابي سهل سعيد بن عبد الله بن الحسن الانطاكى) إذ يقول في صفة نفسه

إذا قدمتُ على الاهوال شيعي قلبٌ ، اذا شئت ان اسلام خاننا
 (أبدو فيسجد من بالسوء بذكرني فلا أعاتبه صفحاً وإهواناً)
 (وهكذا كنت في أهلي وفي وطني ان النفيس غريبٌ حينما كانا)
 (محسّد الفضل مكذوب على أثري ألتى الكميّ ، ويلقاني اذا خاننا)
 لا أشربُ الى ما لم يفت طبعاً ولا أيت على ما فات حسرانا
 ولا أسرُّ بما غيري الحميده ولو حملت اليّ الدهر ملانا

وفي هذه الايات يلتفت — على عادته — الى الايام التي مضت له بالكوفة ، وما لقي هناك في خبر موت جدته ، فيذكرها فيثبها في شعره . والاتفات في شعر المتني من معنى الى معنى ، هو الذي تستطيع ان تستخرج به اسرار الرجل كلها ، اذ كان على ما وصفنا لك يستوعب ما يدور بقلبه من الخواطر والاحساس والآلام ويستخرج منها معاني شعره . فالتفاتة هنا بعد رجوعه من الكوفة — دليل على ما كان قد لقي هناك من الكيد ، وهذه الصفات التي وصف بها نفسه هي ايضاً من اثر ما لقي هناك

ولم يلبث صاحبنا ان ثابت اليه قوته ، فنفضت عن نفسه أسباب اليأس والحشوع ، وألجأته الى طريقته الشعرية التي تميزها وانفرد ، وهي طريقة طبيعته الثائرة المستوفزة المتأهبة للقتال والنضال . ولكنه حين بدأ يعود الى المذهب الذي جرى عليه — كما رأيت فيما مضى — كان لا يزال متثابراً كالستيقظ من سبات عميق قد فتره فذلك قوله بعد ذلك وهو بأناطكية ايضاً حين مدح ابا ايوب احمد بن عمران

ومطالب فيها الهلاك أيتها ثبت الجنان كأنني لم آتها
 ومقانب بمقانب غادرها أقوات وحش كن من أقواتها
 أقبلتها غرر الحيات ، كأنما أيدي بني عمران في جبهاتها

فذكره الماضي وما كان فيه من المغامرة والتحمم والقتال والكفاح ، أشبه بقصة من يقص عليك حُلماً كان رآه في نومه . فهو لا ينظر الى المستقبل كما دته ، ولا يندر ولا يوعد ، ولا يصف ما سيكون منه بعد ، كما رأيت في شعره الذي سبق هذه الفترة التي أصابته . ويؤيد هذا أن حكته كانت تجري هذا الجرى من كلام الاحلام — وكذلك كان مدحه — فهو يقول في حكته في هذه القصيدة

في الناس أمثلةٌ تدور ، حياتها كماتها ومماتها كجياتها

فالتفتي لو كان في غير حالته تلك لآخذ هذا المعنى ورماء اليك متفجراً مدوّياً، ولوجدت كل كلمة منه ملاءى بما نفسه من الازدراء للناس، والاستهانة بهم، ولا بدع في السخرية والتهم على عاداته حين يتناول أمثال هذه المعاني، كقوله فيما مرّ بك

حولي بكل مكانٍ منهم (خلقاً) تخطي إذا جئت في استهماها، بمن؟

وكانت أيامه تلك هي آخره الفتور الذي حدّ من طاحه وجاحه، ثم انبرى كأشد ما كان، وقد اجتمعت نفسه وتضامّ شتاتها، وعادت اليه افكاره كلها فهو ينقل منها في شعره نقلاً يتيماً، ولا يضر الآ ما كان لا بدّ له من اضماره وهو منطلق في الحديث عن نفسه وما يجول في صدره، فلما قدم على عليّ بن أحمد بن عامر الانطاكيّ يمدحه قذف في وجهه بهذه الايات

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر وحيداً، وما قولي كذا ومعني الصبر؟

فهذه صورة مما كانت عليه نفسه قبل ما ذكرناه ثم انتقاله بعد الى طبيعته القوية كما سترى . فهو حين ذكر انه يقا تل الدهر، ذكر انه يقا تلّه وحيداً لا ناصر له ولا عضد فلما جرى ذلك في ضميره، أبت عليه كبرياؤه أن يضعف في القتال لتوحّده وانفراده وقلة ناصره، فاستدرك على هذا المعنى الذي خطر له فلام نفسه ان يخطر لها هذا الخاطر — وهو نذير الضعف والاستسلام والخضوع — فقال: « وما قولي هذا القول المستضعف الذليل، ومعني أقوى ناصر، وأشدّ عضد وهو هذا الصبر الذي أقا تل به، وهو عندي بمثابة الانصار والاشياع » ثم تفجّر بعد ذلك

وأشجع مني كل يومٍ سلامتي وما ثبتت الآ وفي نفسها أمر

تمرّست بالآفات حتى تركتها تقول: أمات الموت، أم ذعر الذعر؟

وأقدمت إقدام الآتي، كأن لي سوى مهجتي، أو كان لي عندها وتر

ذر النفس تأخذ وسمها قبل بينها، ففترق جاران دارها العمر

وهذا كنه تعليق على الشطر الاول من البيت الاول، وجدال قائم بين الفترة التي كانت قد أصابته وما علق به من آثارها، وما أنبسط في نفسه من المعاني والآراء — وبين الطبيعة التي تقوم عليها شخصيته وتسميز بها نفسه، وهي طبيعة القوة والتفخّم، وما تفجّر هذه الطبيعة في نفسه من معاني الاقدام، وما تولد له من الآراء والاحكام. فلذلك كانت الايات التي تليها هي انتصار طبيعته القوية المشبوبة الفية، وكانت الآراء التي تضمنتها هي الآراء التي كثرت ورودها في شعره، اجتمعت فيها آراؤه في المجد الذي يصبو اليه، وما يجب ان يأخذ نفسه به لادراكه، واحكامه على أهل عصره، واستسقاطه لهم، وخاصة ملوكهم وأمراءهم الذين قاربهم فلم يجد فيهم خيراً بل وجدهم خذلاناً لمن استصرمهم، وخبياً وخذاعاً لمن استصحبهم، فقال في ذلك في أعقاب الايات التي رويها

ولا تحسبنَّ المجد زقياً وقيظةً فما المجد إلا السيفُ والفتكُ البكرُ
 (وتضرب أعناق الملوك، وأن ترى
) وتزك في الدنيا دويماً، كأنما تداول سمع المرء أمله العشرُ
 اذا الفضل لم يرفعك عن شكر ناقص على هبة، فالفضل فيمن له الشكرُ
 (ومن ينفق الساعات في جمع ماله
) عليّ لاهل الجور كلُّ طمرّةٍ عليها غلامٌ ملء حيز ومه غمرُ
 يدبر بأطراف الرماح عليهم كؤوس المنايا حيث لا تشتهي الحمرُ
 وكم من جبال جيت تشهد أنني السجبال، وبجمر شاهد أنني البحرُ

(وجنّبي قرب السلاطين مقتها وما يقتضيني من حاجها النسيرُ)
 (واني رأيت الضرّ أحسن منظراً وأهون من مرأى صغير به كبر)^(١)

واخذ المتني بعد ذلك يشدُّ في نفسه ويقوى على اثر ما اصابه من الفتور، واخذ يستعرض حياته كلها ويستخرج ما فيها، وآراءه ويختار منها، ويصوغها في شعره، وكل ذلك مما بينه على ما مر به من احداث الزمن، فانه حين رحل عن انطاكية قادماً دمشق نزل في طريقه على علي بن محمد بن سيار بن مكرم التيمي فكان مما ورد في شعره له قوله

وما سكتي سوى قتل الاعادي فهل من زورة تشفي القلوباً!!
 تظلُّ الطير منها في حديثٍ تردُّ به الصراصر والنعيّا
 ثم يستذكر ما لقي من الحساد كابن كروّس وغيره ممن آذوه وهو بطبرية وانطاكية وغيرها فيقول حين ذكر الليل

أقلب فيه أجفاني كأنني أعدُّ به على الدهر الذنوباً
 (وما ليل بأطول من نهارٍ يظلُّ باحظ حسّادي مشوباً)
 (وما موت بأنبض من حياةٍ أرى لهم معي فيها نصيباً)
 (عرفت نواب الحدّمان حتى لو انتسبت لكنت لها نقيّاً)
 ثم يزيد على ذلك إذ يذكر آراؤه في الحياة وما كان منه في مسعاه للمجد وطابه، وما كان خرج في إدراكه من الثأر والمطالبة (بحقه) المهضوم في انتسابه للعلوية كما مرّ بك، ثم ما مرّ به

(١) نظن ان القارىء، ليس في حاجة بعد الى الوقوف به عند كل مفصل للقول، ففي ما قدمناه من النهج كفاية له، وحسب ان يطمئن عند كل بيت اطمئنان المستغرق في التدبر، فتفجر في نفسه العاني، وبذلك يرى حقيقة الرجل ممثلة بحسمة في الفاظه واياته. ولن تعرف المتني الا ان تفعل ما نزلتم من الرأي

من الاحداث، ومن لقي من الناس الذين استعدوا احتقاره لهم وازدرائه إياهم، وهو مع ذلك مضطرب لمعاناة عشرتهم ومصادقتهم، ثم يذكر موت جدته بالكوفة، وأثر ذلك في نفسه وهي التي يجبها حب الوفاء والإخلاص والبنوة وذلك إذ يقول

أقلُّ فعالي به أكثره مجد وذا الجيد فيه نلت أو لم أنل - جدُّ
(سأطلب حقي بالقنا ومشايخ - كأنهم من طول ما التسموا مرؤد)

(أذمُّ إلى هذا الزمان أهيله ، فأعلمهم فدم ، وأحزمهم وغد)
(وأكرمهم كلب ، وأبصرهم عم ، وأسدهم فهد ، وأشجهم قرد)
ومن نكد الدنيا على الحر ، أن يرى عدواً له ، ما من صداقته بدُّ
بقلي ، وإن لم أرو منها ، ملالةً وبي عن غوانبها ، وإن وصلت ، صدُّ

فهذه كما ترى كلمات كلها منتزعة مما كان في حياته لذلك العهد ، وما أصابه من الرزايا ، وما أدركه من الإخفاق في المطلب ، وما أورثه ذلك من الحسرة والمرارة وألم الحرمان . ولما كان ذلك كله مما أصابه إنما أصابه — على ما ذهبنا إليه أولاً — في طريقه وهو يسعى لادراك تأراره عند العلويين الذين ظلموه وظلموا جدته وأنزلوها بشر منزلة ، وكانت جدته قد ماتت قبيل ذلك الوقت بقايل ، وكان أثر موتها لا يزال يحزُّ في نفسه ، التفت قلبه إلى تلك الحبيبة التي فارقت ، وانتقل من هذه المعاني التي تراها في الايات السابقة الى ذكر جدته فقال

خليلاي دون الناس حزن وعرة على فقد من أحبت ما لها فقد
تليج دموعي بالجفون كأنما جفوني - لعني كل باكية - خدُّ

ثم تلبث صاحبنا بعد هذين البيتين وهو يكتبهما ، وتأمل أحزانه وآلامه ، ورأى أن البكاء والتعجب مما لا يجمل به ، وكيف يبكي ويعنول وهو من هو في الصبر والجلد وتحمل التكبكات غير جازع ولا متملل ، وقد لقي بصبره — في سبيل جدته وفي سبيل نفسه — كل نائمة ، وطوى الارض موكلاً بذرعها غير حافل ، وقاسى من الحسد ما قاسى ، وأصابه من عداوة الناس له ما أصابه ، فاغتابوه وآذوه . فاستدرك صاحبنا على بكائه على جدته بقوله بمدِّ يصف نفسه وما كان منه وما كان من أعدائه

وأني لتغني من الماء نغبةً وأصبر عنه مثلما تصبر الرئدُ
وأمضي كما يمضي السنان لطبي وأطوى كما تطوى المجلحة العقدُ
وأكبر نفسي عن جزاء بنية وكل اغتياب جهد من لا له جهدُ
وأرحم أقواماً من العي والنبي وأعذر في بغضي لانهم ضدُّ

وعلى ما وصفنا لك من حالته ، وما يلج في صدره ويصلج في نفسه ، أنحدر الى دمشق ولم يقم بها الا قليلاً ، وقصد طبرية وذلك في سنة ٣٣٦ ، ولعل ابن كروم كان قد غادرها إذ ذاك والظاهر ان ابا الطيب انما دخلها في جوار بعض اصحابه ، ومن كانوا يكرمونه من اهل الفضل والنبل ، واطمأن قليلاً بها ثم هاجت العلوية عليه مرة اخرى ، وأثبتوا عليه عداوتهم ، وأرادوا ان يكيدوا له كيلاً ليخلصوا منه ومن افعاله ، ونحسب ان ابا الطيب كانت له في البلاد التي دخلها شيعة تشاركه الرأي وتصب لمذهبه في السياسة ، وتزيد في تمصبا لشعره وأدبه ، فكان ذلك سبباً في اثارة الفتن في كثير من البلاد التي دخلها . . .

وأنت ، فلا تظن ان مثل ابي الطيب كان اذا دخل بدأ دخه صامتاً محيط الشفتين ، لا يفتحهما الا حين ينشد قصيدته في (المدح) في مجلس من يمدحه ، ثم ينصرف الى داره منزوياً في ركن من اركانه ، حتى يأذن له شيطان شعره بقصيدة اخرى وهكذا وهلم جراً . كلاً ، فإننا لا نشك في ان ابا الطيب - ذلك الظريف المجلس ، الحاضر البديهة ، الحلو النادرة ، الاديب النفس ، صاحب الرأي في السياسة ، وطالب الحكمة أنى كانت ، والثائر على حكام عصره ، والمزدرى لاهل زمانه ، والذي تبيين في شعره مواضع التجربة الطويلة ، والخبرة النافذة ، والتمرس بالاخلاق عاليها وسفاسفها ، والذي كان شعره قطعة من احساسه وطبيعته ، وما يمسه مما يدور حولها او يدانيتها من احساس الناس وطبائعهم ، والذي كان شعره يتم على تلك الطبيعة البركانية المتفجرة ، والتي لا تهدأ الا ريثما ترتد اليها قوتها القاصفة العاصفة الناسفة ، والذي لم تكن هذه الظاهرة في شعره دعوى او باطلاً او ظاهراً لا باطن له - اذ لو كان ذلك كذلك لوقع فيها التخالف على تطاول السنين ، ولنقصت وضعت بضعف الاسباب الجالبة لها - والذي كان ذا لسان وبيان ، وكان جدلاً طلق اللسان أبي النفس ، لايهاب ان يصاح وان يكشف عن ضميره على شدة ما لقي من الكيد والمكر والتربص والرصد ، ثم كان (الرجل) الشاعر الفرد من أهل عصره الذي كشف عن سينات العصر ، وصور رذائله كلها في كثير من شعره ، والذي كان قريباً من الامراء ، أنيراً عند كثير ممن لقيهم - نقول : إنا لا نشك - ولا تشكّن انت - في ان ابا الطيب ، قد أثار كثيراً من الجدل في الادب والسياسة ، وتمرس بالناس وتمرسوا به وأخذ وأعطى ، وناقش وجادل ، وذهب مذهباً في تناول الآراء والافعال والاحداث التي وقعت في الدولة العربية ، وبيّن رأيه فيها في مجالس أصحابه ، وتناقلت الالسنه ما كان يقول ، ووجد حساده من تكشفه وصراخه مطمئناً ومقتلاً يطنونه فيه ، وظفر الوشاة بغذاء قلوبهم ، وزاد ألسنتهم مما كان الرجل يكشف به من الرأي ، وما يبديه من النظرات والافكار ، فسموا به الى اعدائه ، والذين كانوا يضمرون له السوء من

اصحاب السلطان ، او من كانوا يعادون أبا الطيب لاسباب خفيت عن السعاة والوشاة ، وان لم يخف عنهم ان هؤلاء كانوا ممن لا يميلون الى بقائه بينهم ، أو يترصدون ان يظفروا به قبل ان يفوتهم بحذره ودهائه

فبين ان ابا الطيب دخل طبرية — على حالته تلك التي نصف — مراناً للعوليين ، ثم لمن كانوا يكيدون له قبل على عهد بدر بن عمار ، والذي كان يتولّى كبر ما يأتون به الاعور ابن كروس كما مرّ بك . وكان في هذه الايام التي بقيا بطبرية حذراً متوجساً يترقب ، وكان بالرمة إذ ذاك (سنة ٣٣٦) الامير ابو محمد (الحسن بن عبيد الله بن طنج) فلما أتاه الخبر بأن ابا الطيب نازل بطبرية طمع في مديح أبي الطيب ، وودّ لو نزل عليه ، واقام عنده مكرماً ، فلم يزل يرأسه ان يتحمل اليه وينزل عنده ، فاضر ابو الطيب الرحلة اليه ، وكان الخبر قد بلغ العوليين أن (أبا محمد بن طنج) رأسه وعزم عليه في الرحلة اليه ، فألقوها نهزةً معترضة أن يفتكوا به ، وتوهموا الطريق التي سيركها ابو الطيب — ولا بدّ — في رحلته ، فأصدروا له جماعة من عبيدهم السودان بقرية بالقرب من طبرية يقال لها (كفر عاقب) ، وامروهم ان لا يفتلوا الرجل الا جثة دامية . والظاهر ان أبا الطيب كان قد جرى في خاطره انهم فاعلو مثل ذلك ، فخالف الطريق التي درج السابلية على ركوبها ما بين طبرية والرّمة ، فلما فات الرصد ، باغاه ما كانوا قد عزموا عليه ، وما كانوا قد أرصدوا له ، فربت نفسه ، وزفر زفرته من هذا الكيد الملاحقه بكل طريق ، وثار في صدره الزوبعة التي كانت تتورفيه كلما ابتلى بلاء من العداوة ، او أصيب بمصيبة من الكيد والمكر السيء . فلما دخل الرّمة ليمدح الامير أبا محمد ابن طنج كان يفور ويفل ويثقل ويتقلقل ويتفجّر ، فلم يأخذ نفسه بأداب المدح والزيارة المبتدأة ، ورعى في وجهه ممدوحه بقتابه قبل أن يلج الى مديحه فقال

فالي وللدنيا ، طلابي نجومها ،
ومسماي منها في شديق الأراقم .
من الحلم أن تستعمل الجهل دونه ،
إذا اتسعت في الحلم طرق المظالم .
وأن تردّ الماء الذي شطره دمّه
فنتسقى ، إذا لم يسق من لم يراحم .
ومن عرف الأيام — معرفتي بها
وبالناس — روى ربحه غير راحم .
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ،
ولا في الردى الجاري عليهم بأيم .

ثم التفت الى نفسه (يمدحها) فقال

(إذا صلت لم أترك ماصلاً لفاتك) وإن قلت لم أترك مقالاً لعالم
وقد قدمنا لك في أثناء القول ان أبا الطيب كان إذا نزل به نازل بما يكره من التهم والهت
اشدّ به ذلك وأخذ عاينه نفسه ، فيصرف فكره كلّهُ الى التدبر فيما مضى عليه من الرزايا ، وما

أجلب عليه من العداة وعداواتهم . ولا يزال يحدق بصره في هذه الحالة ، مستوعبا كل إحساس في نفسه وكل مامرر به وأصاب منه ، حتى تفجّر في قلبه ونفسه ينايع اليان فينزع الحكمة من قلبه ولها أصول تاريخية ضاربة فيه . فإذا تدبرت الايات السالفة وجدت فيها تاريخ قلبه وتاريخ مصائبه كلها على ما سقناه في حديثنا . ثم ان أبا الطيب لما كرهه أمر العلويين الذين أرسدوا له بكفر عاقب ، ارتد الى الحالة التي وصفنا ، فلم يزل يدور ذلك في فكره بين قلبه ولسانه فلم يقدر أن يمتنع عن ذكره في شعره الذي قاله لابي محمد خاصة ، ثم في شعره الذي قاله بمد لظاهر العلوي كما سرى . فما قال لابي محمد يذكر هذا الكيد الذي كيد به في طبرية

كريم لفظت الناس لما بلغته كأنهم ما جف من زاد قادم
وكاد سروري لابي بندا متي على تركه في عمري المتقادم
(وفارقت شر الارض أهلا وتربة بها علوي جدّه غير هاشم)

والظاهر أنه كانت ، بين الامير ابن طنج وهذا العلوي الذي كاد هو وشيعته لابي الطيب في مخرجه من طبرية ، عداوة قائمة . وأن هذا الكيد كان لسبيين : الاول ، ما كان بين العلويين وبين أبي الطيب كما قدمنا ، والآخر ، هذه العداوة بين رأس العلويين بطبرية وهذا الامير الذي خرج أبو الطيب من طبرية قاصداً له مادحاً إياه ، فلذلك قال أبو الطيب فيما يلي ما انشدناك

بلا الله حساد الامير مجلمه ، وأجلسه منهم مكان العامر

فإن لهم في سرعة الموت راحة ، وإن لهم في العيش حزن الغلامر

هذا وقد بقي أبو الطيب في جوار الامير ابي محمد بالرملة مكرماً ، يصحبه الامير في رحلاته ويحضره مجاسه ، ويرافقه في زياراته ، ويفضل عليه كل الافضال ، حتى أرضى ذلك القلب الذي كان بنض الاعاجم فيه طبيعة ثانية قائمة لا تقتر . وكان من اصحاب هذا الامير رجل من شيوخ العلويين بالرملة ، وأبناء شيوخهم ، وكانت له ولاهله اباد كثيرة عند بني طنج ، فلم يفت الامير ابا محمد ما في مدح ابي الطيب له ، وهو لم يمدح رجلاً جليلاً كصاحبه هذا (ابي القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوي) ، فرغب الى ابي الطيب ان يمدحه وكان من ابي الطيب ما كان في امتاعه على ما مر بك ، فلما اجاب الامير الى مدحه مرغماً ، حاملاً على نفسه — إذ كان قلبه لا يرضى ابداً عن هؤلاء العلويين الذين آذوه ، والذين لقي من كيدهم بالامس القريب ما لقي ، من إرصادهم لقتله — قال قصيدته يمدحه ولكنه قدم قبل مدحه هذه الايات وفيها ما فيها من لمز قوم من العلويين ، لعنهم ان تكون بينهم وبين طاهر قرابة دانية ؟

تخوفني دون الذي أمرت به ولم تدر ان العار شر العواقب
(ولا بد من يوم أغر محجل يطول استماعي بعده للتوابع)

يهون على مثلي اذا رام حاجة
كثير حياة المرء — مثل قايها
وقوع العوالي دونها والقواضب
يزول — وباقى عيشه مثل ذاهب
إليك ، فاني لست بمن اذا اتق
عضاض الافاعي نام فوق العقارب
أناي وعيد الادعاء وأنهم
أعدوا لي السودان في كفر عاقب
ولو صدقوا في جِدِّهم لحذرتهم
فهل في وحدي قولهم غير كاذب

ثم التفت الى نفسه (يمدحها) كما مر بك في قصيدة الامير ابن طنج فقال فيما يلي ذلك
إلي — لعمرى — تصد كل عجيبة
كأنى عجيب في عيون العجائب
بأي بلاد لم أجر ذؤابتي ؟ !
وأي مكان لم تطأه ركابي ؟ !

وقدمضى ذكر هذه القصيدة وأيات اخرى منها اكتفينا بما مضى منها عن الاعداء . على
أن هناك أشياء أخرى ، كان اولى بنا التوسع في قصاياها ولكننا أجلناها الى موضعها من كتابنا
وبالله التوفيق

ثم عزم ابو الطيب الرحلة من الرملة الى جوار ابي العشائر الحسن بن علي بن الحسن بن
الحسين بن حمدان العدوي ، فخرج من الرملة في سنة ٣٣٦ يريد أنطاكية ، ولم يحدث له
حادث الا ما كان من امر اسحق بن كينغ في طلبه منه ان يمدحه فجهاه بقصيدته
المشورة التي اولها

لهوى النفوس سريرة لا تعلم
عرضاً نظرت وختل أني أسلم
فلما بلغت ابن كينغ اراد قتل ابي الطيب وكان إذ ذاك بطرابلس — فخرج منها فأتبعه ابن
كينغ خيلاً ورجلاً فأعجزهم صاحبنا بالهرب الى بعلبك ثم الى دمشق ثم خرج من هناك الى
انطاكية فتي ابا العشائر وكان مما قال لهذا الاعور ابن كينغ

أرسلت تسألني المدح سفاهة
صفاة أضيق منك ، ماذا أزعم ؟
وأرغت ما (لابي العشائر) خالصاً
ان التناء لمن يزار فينعم
ولمن أقت على الهوان يباه
تدنو فيوجأ أخدعك وأنهم

ثم طفق يمدح ابا العشائر الى ان قال
والوجه أزهر ، والفؤاد مشيع ،
والرمح أسمر ، والحسام مصم
(أفعال من تلد الكرام كريمة
وفعال من تلد الاعاجم أعجم)
فكان ابا الطيب كان قد مل الاعاجم واستقصم ، وفيهم الامير ابو محمد بن طنج الذي كان
قد نزل عنده بالرملة ومدحه ، ونال من فواضله

أصبرُ عنك ، لم تبخل بشيء ؟
 ولم تقبل عليّ كلامَ واش ؟
 وما وُجِدَ اشتياقُ كاشتيافي
 ولا عُرفَ انكماشُ كانكماشِي
 فسرتُ اليك في طلبِ المعالي ،
 وسار سوايَ في طلبِ المعاشِ .

أردنا في الباب السالف ان ندلك على نفس أبي الطيب ، وما تميزت به عن شعراء العربية جميعاً ، وما انطوت عليه من القوة والرجولة ، وما كان يزلها من الثورة التي لا تزال تهزه من قرارة قلبه ، فتطلق زلازها من قلبه إلى لسانه ، فيثبت لسانه في شعره عدد هزات الزلزلة وقوتها ، فذلك نقلنا اليك طائفةً من شعره على التوالي في ترتيبها الزمني حتى هذا العهد الذي بدأ حين اتصل بأبي العشائر ، فدخل مدخلاً غير الاول ، وذهب في الشعر مذهباً عجيباً ونحوت معاني نفسه من غرض بعينه الى غرض آخر غير مفارقٍ للاول ، بل منه استمد ، وعليه بنى خرج أبو الطيب من الرملة بقلبه وبنفسه وبأرائه قاصداً أنطاكية التي كانت في يد بني حمدان العرب التغلبيين ، وكان على امرها — من قبل سيف الدولة — أبو العشائر الحمداني الشاعر المبدع ، والمحارب الباسل ، والعربي الخالص الحب للعرب والعربية ، الشديد العداوة للروم والترك والدليم الذين توالى غاراتهم على الدولة العربية بالحوش تارة ، وبالديسائس والمكايد والتزويق تارة أخرى . وكان المنبجي قد عرف بني حمدان من قبل ، وعرف منهم خاصة سيف الدولة (١) الذي كان الآن سنة ٣٣٦ صاحب الشام ، والمستولي على امرها ، والمنتزعا من يد بني طنجج الاخشيديين الاتراك

دخل أبو الطيب أنطاكية ليلقي العرب والعربية في مجلس بني حمدان ، وقد رمى دبّر أذنه ونحت قدمه ، الاعاجم وما مدحهم به . وأراد ان ينقل شعره من تكلف المديح الى التطلق والاسترسال في مدح من هم من رأيه ، ومن يجد فيهم مرضاة نفسه وآماله ، ولئن كان قبل قد مدح القوم العلوج ليستخرج منهم بعض أموالهم التي غلبوا الأمة العربية عليها ، وليكون على

(١) قد مضى ذلك في سنة ٣٢١ ، وقد تكلمنا هناك بما فيه الكفاية ان شاء الله — انظر من ص ٥٣ الى ٥٥

مقرية من مكرمهم ودسهم ، وعلى علم بما يضرون لأئمة من الشرّ الغالب على قلوبهم وعقولهم ، فهو الآن قد وجد قوته وأهله وعشيرته ، فلبأئمتهم بكل غريبة من القول ، وليجتد ذكرهم في شعره ، وليهدأ قايلاً مما كان فيه من الثورة ، ليستطيع أن يحزم رأيه وتديره مع هؤلاء القوم — على أن يعيدوا مجد العربية ، (ويدبلوا من دولة الخدم) الذين غابوا على سياسة الأمة ، ورموا بها في موارد الهلاك والفسل ، فهذا سرُّ قوله لابي العشائر في قصيدة مدحه بها ، والتي نقلنا أحياناً منها في رأس هذا الباب

فسرت اليك في (طلب المعالي) وسار سواي في (طلب المعاش)

فهو إنما قدم على بني حمدان لما ذكرنا لك لا للتكسب بالشعر ، وأكل الخبز من قوافيه ومعانيه رأيت قبل أن المتنبى كان إذا مدح بدأ بنفسه فذكرها ومجدها وعظمتها ، ثم يبيد آراءه في الدنيا ، ويكشف عن الثورة القائمة في ضميره وقلبه ، ثم ينذر ويوعد ويهدد . فلما بدأ اتصاله ببني حمدان ، ترك هذا المنهج ، وأدخر قوته كلها لامرٍ غير هذا الامر ، وأسنع على بني حمدان ما كان يسنع من قبل على نفسه من ثياب المجد ، فهو يصفهم كما كان يصف نفسه ، ويعلموهم الى غاية السموة في القوة والسلطان والساحة والمروءة وعظم المطلب . ولم يك يذكر نفسه الا حين يخرج الوشاة والساعون بالشرّ بينه وبينهم

فلما اتصل ابو الطيب بأبي العشائر ، ونال منه مكانه ، وأدرك عنده طلباته ، بدأت وشاية الوشاة بانطاكية تفعل أفاعيلها مرّة أخرى ، ومدت الفتن أعناقها من قبل شيعة العلويين والفاطميين والاخشيديين والعباسيين — على ما نذهب اليه — ، وشعر ابو الطيب بما هنالك فدلّ أبا العشائر عليه بلطف القول غير مصرّح فقال

فيا بحر البحور ولا أورّي ويا ملك الملوك : ولا أحاشي
كأنك ناظرٌ في كل قلبٍ فما يخفي عليك محلّ غاشٍ ؟
أأصبرُ عنك لم تبخل بشيءٍ ؟ ولم تقبل عليّ كلامٍ واشٍ ؟

فما خاشيك للتكذيب راج ولا راجيك للتخيب خاشٍ
أرى الناس الظلام : وأنت نور وإني منهم لآليك عاشٍ
(بنيت بهم بلاء الوارد يلتقى أنوفاً ، هنّ أولى بالحشاش)

والظاهر ان ابا العشائر كان قد أصمّ اذنيه عن سعاية السعاة والوشاة والحساد ، وما كانوا يريدون من تقاييب قلبه عايمه كما فعلوا بقلب بدر بن عمار : فلما لم يأذن لهم ابا العشائر أوّل أوّل ، زادوا في التشهير بالرجل ، واجتلاب الاكاذيب في ذمه ونقيصته ، والتعريض به وبأدبه ،

ويذكرون ما كان في شعره من الثورة والانذار والوعيد وذم الناس ، وغفره على من مدحه ، وسوء أدبه في مديحه إذ يقدم مدح نفسه ، ثم يزيد فيمدحها بما لم يمدح بمدوحه بمثله او ما يقاربه ، ووقع اليهم ما كان ينز به لدى بدر بن عمار من تسيته بالمتبي^(١) ، فزادوا عايه ووضعوا من عند أنفسهم القصص في تطويل الحكاية ، وتعظيم امرها . وبدأ العلويون ايضاً يعرضون بمسألة نسبة ليخرجوه ان يصرح بنسبته العلوية ، فلا يجدون عند ذلك حرجاً من ان يأخذوه كما اخذوه اول مرة ، ثم يلقوا به في غيابة السجن بضع سنين . فلما بلغوا هذا المبلغ وضاق بهم ابو الطيب لم يجد بدءاً من العودة إلى طريقته الاولى حين يخرج ، فكان مما قال في ذلك كله قبل ان يلج الى مدح ابي العشائر

(أنا ابن من بعضه يفوق أبا الباحث، والتجل بعض من نجله.)
 (وإنما يذكر الجدود لهم من تفروه، وأنقدوا حيلة.)
 فخراً لمضرب أروح مشتبهه وسميري أروح معتقته
 وليفخر الفخر اذ غدوت به مرتدياً خبره ومنتعته
 أنا الذي يتن الإله به ال أقدار، والمرء حينما جعله
 جوهرة ، قرح الشراف بها ، وغصة ، لا تسينها السفاه
 (إن الكذاب الذي أكاد به أهون عندي من الذي نقله.)
 فلا مبال ، ولا مداج ، ولا وا ن ، ولا عاجز، ولا تكاه
 ودارع سفته نخرت لتي في الملقى والمعجاج والعجلاء
 وسامع رعته بقافية يحار فيها المنقح القولة
 (وربما أشهد الطعام معي من لايساوي الخبز الذي أكاه.)
 (ويظهر الجهل بي وأعرفه ، والدرر در برغم من جهله.)

ومن صدق الرجل في محبته لابن العشائر خاصة وبني حمدان كافة ، فعل ما لم يفعله من

قبل ، فاستدرك على ما ذكر به نفسه من التعظيم والتبجيل فقال

مستحياً من أبي العشائر أن أسحب في غير أرضه حلله

(١) قد مضى رأينا في هذه التسمية ، وانها كانت لما كثر في شعره من الانذار والوعيد

وقد اشار ابو الطيب في هذه القصيدة الى انهم زادوا على ما ذكرنا من الكيد انهم كانوا قد
أكثروا القول لدى أبي العشائر، وزعموا انه انما كان يدحه للتكسب والنيل من فواضل ماله،
وتكذبوا عليه بكل نقيصة تفسد عليه قلب أبي العشائر... فقال

ما لي لا أمدح الحسين، ولا أنذل مثل الود الذي بذله؟
أخفت العين غده أترأ! أم بلغ الكينذ بان ما أماته؟

ولكن أبا العشائر كان قد عرف فيما فطن سر الكيد الذي يكاد به أبو الطيب، ولعل سيف
الدولة ايضاً كان قد بلغه مقدم أبي الطيب على أبي العشائر فكتب اليه ان يحرص على الرجل،
ولا يسمع فيه لمتقص ولا ذام ولا متكذب، لما يعلم من سر الرجل الذي انطوى عليه في
أمر نسبه العلوية كما قدمنا. فلذلك لم يجد الوشاة أذناً صاغية ولا سماعة، فانصرفوا برغمهم
ونال أبو الطيب الكرامة والعزة في جوار أبي العشائر، وهدأ واستقر قراره، واطمأن قلبه،
منتظراً مقدم سيف الدولة الى انطاكية في مسيره في نواحي البلاد التي استولى عليها بالشام. وفي
هذه الفترة من الطائفة والسكينة والكرامة لدى أبي العشائر استجم الرجل لقوته، وادخر
لسيف الدولة ذخائر قلبه وكرامته فؤاده



وعندي لك الشُّرْدُ السائرا
ت ، لا يختصن من الارض داراً
قواف — إذا سرن عن مقوالي —
وثين الجيال ، وخضن البحاراً
ولي فيك ما لم يقل قائل ،
وما لم يسر قمر حيث ساراً
سما بك همسي فوق الهوم ،
فلستُ أعدُّ يساراً يساراً
ومن كنت بجرآله ، يا علي ،
لم يقبل الدرُّ الاً كباراً

في سنة ٣٣٧ كان سيف الدولة (أبو الحسن علي بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان العدوي التغلبي) قد استولى على أكثر الشام ، ووقف للروم رداً غاراتهم على أطراف بلاده ، ويوقع بهم إيقاعاً شديداً ، وغلبت مقدرته الحرية كل من كان في عصره من القواد ورؤوس الفتن التي عملت في انكاس الدولة العربية وهلاكها ، وكان يؤمل له ان يتسع ما كره اتساعاً عظيماً لولا ما كان من الاحداث العظيمة ، ثم ما كان في الدولة من دسائس الاعاجم التي فرقت القلوب ، فلم تدع أمة من الناس الا دخلت بينهم فزقتهم شرراً ممزقاً ، وجعلت بعضهم على بعض حرباً وفساداً . وأيضاً ما كان من دعوة العلويين لقلب الخلافة التي بالعراق من عباسية سنية الى عاوية شيعية ، وأيضاً ما كان من الدعوة السرية الجارفة التي كان يقوم بها دعاة الفاطميين . وكانت هذه اشد البلايا التي ابتلي بها العالم العربي كله ، إذ أدخلت فيه ما ليس من طبيعته : وقذفت به في ظلماء نهارها من ليالها ، وكان دعاؤها قد تفرقوا في كل مكان من سلطان الدولة العباسية : ليوقعوا بين الامراء ، وليجوزوا الى دعوتهم فنه غالبة تينهم على ما يريدون وما يؤملون من إقامة الخلافة الفاطمية ممتدة من المغرب الافصى الى ما وراء خراسان

وكان بنو حمدان من شيعة العلويين ، ومن المتحققين بخدمة الدعوة العلوية الا أنهم كانوا عرباً يدعون الى العلوية للعربية ، لما وجدوا من غلبة الاعاجم على الدولة العباسية ، ولكنهم حين

رأوا ما دخل بين العلويين من فساد الاعاجم ومن الدعوة الفاطمية الجارفة ، وكانوا لا يقرؤون هذه الدعوة ولا يسمعون لاصحابها بالنسبة الفاطمية المكرمة — رجعوا فأنحازوا الى الدولة العباسية ينصرونها وينصرون الخليفة (التائم) على كرسي الخلافة . هذا ، مع اكرامهم للعلويين وتعظيمهم لهم . وقد أبدى بنو حمدان من الدهاء ، وسعة الحيلة ، وحسن السياسة والتدبير في التوفيق بين عقائدهم العلوية وسياستهم العباسية ، ما لا قبل لاحد من أهل ذلك العصر في الإتيان بمثله أو القيام على أقل منه . وقد أثبت بنو حمدان بسياستهم تلك أنهم كانوا يريدون إنقاذ العرب والاسلام من الفتن الباغية التي فعلت أفاعيها لعهدهم في تضديع السلطان العربي ، واتصال الشوكة والعزة الى الحكم العجبي الشعبي الفاسد الطوية ، الباغي بكيد الإيقاع بالعرب ودينهم ولسانهم وكان سيف الدولة خاصة من بين بني حمدان اكثرهم دهاءً واوسمهم حيلة ، وأشدّهم حباً للعرب ودينهم ، واكثرهم سعياً في ردّ الحكومة والسلطان الى العرب ، واعظمهم همة في مساعي المجد لنفسه ولقومه ، واكرمهم خلقاً آسراً ، وكان من ينهم محباً للادب ، قائماً على خدمته وكان بطبيعته شاعراً حلو اللسان خفيف الروح يابى الفكر . وكان مبغضاً للاعاجم ولسانهم الذي ارادوا ان يذابوا به على فارس وغيرها كما فعل بنو بويه

والظاهر ان سيف الدولة كان قد عزم في نفسه ان ينال بهمة غاية الغايات في ضم اشقات البلاد العربية تحت سلطانه وفي ظل حكومته ، وكان اول ما اتخذ من ذلك ان زاحم بمناكبه الاخشيديين في الشام حتى ازاحهم عن اكثرها وردهم الى الرملة ، واستأثر دونهم باكثر البلاد الشامية ، حتى هلع منه الاخشيد ، فزلف اليه بان زوجه ابنة اخيه ، ولم يجد ذلك كثيراً ولا قبلاً في اطفاء نار العداوة المستعرة بين الدم العربي والدم الاعجمي الغريب . واستمر سيف الدولة في طلب التوسع والغلبة ، ولولا ما لقي من حروب الروم ، وما اجلبوا عليه بجياعهم ورجلهم لكان تم له ما اراد ، فان حروب الروم ، قد استهلكت كل قوته ، فلم يجد متسعاً لنيته في توطيد حكمه في الشام ، حتى اذا استجمع أدااته واستوفز بقوته ، مال على العراق فرد امر الحكم الى نصابه في يد واحدة لا تضطرب ولا ترتجف . وذلك لما كان يرى من تقسم الامر في بلاد الخلافة وضياع السلطان بين الموالي ، وما جرّ ذلك من المذابح المتواليّة في كل مدينة من المدن العظيمة ، ومن الفتن المتتابعة في كل ناحية من النواحي . ونحن نظن ان السبب في كثرة غزوات الروم — في عهد سيف الدولة — لبلاد الشام اطرافها ، ان الذين كانوا يفتنون الناس ببغداد من الاعاجم والروم والترك والديلم لينالوا ما يريدون — علموا بأمر سيف الدولة وما اعترم من الميل عايمهم ميلة راية ، فأوعزوا الى ملك الروم ان يقاتله ، واوقعوا في قلبه ان سيف الدولة انما يريد ان يزيل الملك من بين يديه ويغلبه على بلاده ، فتم لهم بذلك ما ارادوا من صرف سيف

الدولة عن غزومهم وتمزيقهم ، واحتلال ارضهم ، واتزاع السلطان من ايديهم . وكان سيف الدولة على علم بما يبيتون له من المكر ، فكان بنازل الروم ويواقمهم ، وبعد انتصاره وهزيمة الروم انتصاراً لدعوته العربية وهزيمة للاعاجم اصحاب هذا المكر ومن وقع في حباتهم من العرب الذين لهم سلطان في ساطان هؤلاء . ولذلك كان وقع انتصاره في العراق وما وراء دجلة كوقع الصاعقة على رؤوس رؤوس الفتنة ، والذين تولوا كبر هذا المكر السيء ، والكيد الخفي . وأجدت هذه الوقائع — التي انتصر فيها سيف الدولة على جيوش الروم — عداوة أصحاب الساطان من الاعاجم لدولة بني حمدان فطفقوا يعملون على تهريق شمل من اجتمع الى سيف الدولة وآزره ونصره ممن كان بالموصل والشام وغيرها ، وبذلوا في مسعاتهم أموالاً وذخائر . ولولا ما كان عليه سيف الدولة من الكرم والسخاء وبسط اليد للعاقين والمريدين طبيعة مركبة في اصل خائفة ، لآعيوه ، ولأخرجوا من سلطانه أكثر من دان له ورضى به ومحكمه ولأعاهم على ذلك ما يرون من المظالم التي ارتكبتها سيف الدولة مدة حكمه وساطانه

هذا وقد كان أبو الطيب — حين دخل أنطاكية قاصداً أبا العناب في سنة ٣٣٦ علياً بأمر سيف الدولة ، مدركاً للكنايد السياسية التي أحاطت بالرجل ، خبيراً بحقيقة ما اضطلع سيف الدولة بأعبائه من إيقاظ المهمل العربية ، مستيقناً من أن غرض سيف الدولة فيما فعل إنما هو ضرب الضربة القاضية على الفتن التي أوهت قوة الدولة العربية وقتت في عضدها ، وأن الرجل كان قد اتخذ لامره أحكم سياسة وأبرعها وأحسنها وأدقها وأبلغها في الوصول الى الغرض المطلوب . وكان أبو الطيب نفسه ، رمي بكل نفسه الى هذا الغرض الذي يسدد اليه سيف الدولة ، فكان اتفاهما في الغرض سبباً لاتصالهما وتوافقهما وتفاهما ، وما كان بينهما من المودة والحب والكرامة . وأخرى أن أبا الطيب — كما وصفناه لك أولاً — كان يرمي ببصره الى (الرجل) ، الرجل الذي مجتمع في رجولته صفات الخير كلها ، وصفات الكمال بأسرها ، كما كان قلبه ويحلم بها فؤاده وأوهامه . والرجل في أحلام أبي الطيب هو صورة مثلها له ضميره ، من أحقاد وآلامه وثورته . فهو الرجل الضرب الشجاع المستبسل الذي لا يهاب ولا يفتقر ، بل يتقحم ولا يزداد على البلاء الأمانة وعزيمة ، وهو الرجل الناقد يبصره وبصيرته الى اعقاب الامور لا يبغي ولا ينفل ولا ينام ، وهو الرجل المحارب الذي لا ينام ، ولا يصبر على ضمير ولا يقر على ظلم ، وهو الرجل الفتى العربي الذي داخل سياسة عصره فعرف أسرارها ، واتخذ لنفسه مدخلاً ومخرجاً فيها ، وأعمل فكره في إنقاذ أمته ، وجاهد في سبيل ذلك بقباه وفكره ولسانه ويده . وكانت هذه الصورة في دم أبي الطيب تدور فيه دوران الدم ، فاذا وجد (الرجل) حن إليه كأشد ما نجد من حنين الدم إلى الدم ، وأخاص له ، وبذل له ذات نفسه وضمير قابه ، فتراه لا يمجده نفسه في شعره الذي يمدح به (الرجل) ،

بل يبذل كل كريمة من الصفات لهذا المدوح مضرّباً عن ذكر ثورته، تاركاً وعيده واندازه وتهديده إلا أن يخرج كما حدثناك قبل . وقد رأيت فيما مضى ان هذا قد وقع من أبي الطيب حين لقي بدر بن عمار الاسدي، وهو الفتي العربي (الرجل). وهذه الظاهرة الغريبة في شعر أبي الطيب تدل على انه ما كان ينبغي بقوله اكتساب المال وادخاره للعيش ومرافق الحياة، بل كان يريد ان يحقق آماله التي يسعى اليها في رد السلطان لقومه العرب الامجاد. ولهذا نجد الرجل لم يقر سنوات في جوار احد الا في جوار هذين العربيين (بدر بن عمار، وسيف الدولة)، وذلك لما كان يرى منهما من الجهاد في سبيل الغرض الذي انطوت عليه جوانحه. وكان سريع الفراق لمن مدح غيرها، إما لانه لم يجد عندهم عزماً إذا كانوا من العرب، وإما لانه انما مدح بشعره للإجازة والمال الذي هو ملاك كل عمل إذا كانوا من غير العرب. فهذا موضع قوله في شعره لابي العشائر الحمداني

فسرت اليك في (طلب المعالي) وسار سواي في (طلب المعاش)

قالوا « كان أبو العشائر والي انطاكية من قبل سيف الدولة، فلما قدم سيف الدولة الى انطاكية، قدم المتنبي اليه، وأثنى عنده عليه، وعرفه منزلته من الشعر والادب، وذلك في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة، فاشترط المتنبي على سيف الدولة — اول اتصاله به — أنه — إذا انشده مدحاً — لا ينشده الا وهو قاعدٌ، وأنه لا يكلف تقبيل الارض بين يديه، فنسب الى الجنون. ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط، وتطاع الى ما يرد منه، فلما انشده قصيدته الاولى التي اولها « وفاؤكما كالربيع اشجاء طاسمه »، حسن موقعه عنده فقربه، وأجازته الجوائز السنوية، ومالت نفسه اليه وأحبه، فسلمه الى الرواض فعلموه الفروسية والطراد والمناقفة » ونحن لا نسلم بكل ما ورد في هذا النص ولا نثق به إذ كان مروياً عن غير ثقة مأمون معروف، وانما هو مما يتداوله الادباء على علاته دون نقد او تبحر، ويحسن بنا ان نحدثك عن نقده قليلاً، فان في النقد بركة وخيراً ليست لشيء من الكلام

فأول ذلك، ان هذا اللقاء في سنة ٣٣٧ بين سيف الدولة وأبي الطيب لم يكن اول لقاء، ولم يكن اول تعارف بينهما، فقد حدثناك قبل انه لقي سيف الدولة وأحبه، وأحبه سيف الدولة في سنة ٣٢١ حين مدحه المتنبي بعد مخرجه من الكوفة متوجهاً الى الشام، وكان لقاؤهما برأس عين من ارض الموصل الذي كان يدين لبني حمدان بالطاعة إذ ذاك. ولا شك ان سيف الدولة، وكان إذ ذاك صغيراً لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، قد فرح بمدح أبي الطيب له، وأبقى ذلك أثره في نفسه بحمله يتبع شعر هذا الفتي العربي ومصيره. فهو كما ترى كان على معرفة به وبأدبه وشعره ومنزلته من الشعر والادب، هذا فضلاً عما استنبطه هناك من العلاقة بين بني حمدان وأبي الطيب

وجدته ، وانهم كانوا يفضلون عايبا ويكرمونها ، وانهم كانوا على علم بما اصابها من نكبتها في ابنتها وحفيدها

وأخرى ، . . ان النص يقول إن أبا العشائر قدّم المتنبى الى سيف الدولة « وعرفه منزله من الشعر والادب » وهذا عجيب من امر سيف الدولة الاديب الشاعر السياسي المطلع على كل ما كان في البلاد العربية ، المتتبع لكل حدث في السياسة والادب ، عجيب أن لا يكون قد وصل اليه طرف من شعر ابي الطيب يعرف منه منزلته في الشعر والادب ، فيأتي ابو العشائر فيعرفه تلك المنزلة ! !

وثالثة : أن النص يقول ان سيف الدولة قد دخل تحت شروط التنبى حين اشترط عايبه انه لا ينشده الا وهو قاعد ، وأنه لا يكلف تقبيل الارض بين يديه . ونحن لا ندري لماذا يدخل سيف الدولة تحت هذه الشروط ، ولا نعرف لماذا اشترط أبو الطيب هذه الشروط إذا كان قد جاءه على غير معرفة متصلة بينهما ، وكان قد جاءه مستيحاً طالباً رفده وماله وفواضله . وهلاً أجل ذلك الى اجله ، فيمدحه وينشده حتى اذا حسن موقعه عنده ، اشترط عليه ما يريد ، فيتقي بذلك سوء الرد ، وينال بالاذن له بما يشترطه رفعة تكبت حساده ، وتفيظ عدائه ، ويكون فعله هذا ادل على حسن سياسته ، وسعة حيلته ، ويكون اشبه بتدبير ابي الطيب كما مر بك في مواضع من كلامنا ! !

والرابعة : ان في النص كلمة يراد بها النض من ابي الطيب وتحقيره ونسبته الى الجفاء والغلظة والجلافة ، إذ زعم واضعها ان سيف الدولة سلم ابا الطيب « الى الرواض فلعوه الفروسية والطراد والمثاقفة » . فقد كان أبو الطيب قبل اتصاله بسيف الدولة فارساً محارباً ولا شك ، وكان قد اتصل بكثير من اصحاب السلطان واصحاب الفروسية والطراد والمثاقفة ، وقد مرّ بك انه كان قد دخل لبنان وشارك في الطراد والصيد ، وكذلك حين كان في جوار بدر ابن عمار وغيره ممن مدح ، ولا نظن ان ابا الطيب كان قد طوى هذه السنين كلها بالشام ، مع ما كان فيه من العجب بقوته وفروسيته وذكر ذلك في شعره ، ثم لم يأخذ نفسه بتعلم ذلك او المشاركة فيه — مع انها كانت من الانتشار والذبوع بمكان لا يجهل

فهذه الرواية — كما ترى لا تصاح ان تكون سيقاً للقاء ابي الطيب سيف الدولة . واعلم ان اكثر ما يروى في ترجمة هذا الرجل وغيره من الرجال ، انما كان من الاحاديث التي تتناقلها مجالس الادباء ، ولا يراد بها التحقيق ولا ينظر فيها الى صدق الرواية وسياق التاريخ وما الى ذلك ، بل ان كثيراً مما يروى في تراجم رجالنا كان مما يراد به مضع الكلام في مجالس الامراء او في سامر الادباء . — هذا على انها ربما حمت فيما تحمل اشياء لولا ورودها في هذه

النصوص لاقتدنا من حلقات التاريخ حاقيات لا ينتظم امره إلا بها ولا يستمر إلا عليها .
فمثل هذا كان لا بد لنا من النظر في النصوص وتمييزها ، ورد بعضها والاخذ ببعض ، حتى
لا تتقطع بنا السبل في الترجمة لهؤلاء الاعلام . فلا يفوتك هذا اذا قرأت ما تكتب ، او اردت
انت ان تقرأ او تكتب

والسياق التاريخي عندنا للقاء أبي الطيب سيف الدولة هو ما ترى :

نزل ابو الطيب ضيفاً على أبي العشائر ، يمدحه ويخبره ويروز ما عنده من الهمة ، وما في هذه
الهمة من المطالب ، وما في مطالبه من الموافقة لما في ضميره من الآراء والاحكام . وكان يريد
بذلك ان يكون على كعب ومقربة من بني حمدان (الذين منهم أبو العشائر) ، ليحقق في نفسه
ما عرف عنهم من خبر ، وليرى رأيه في البقاء معهم أو مفارقتهم ضارباً في الارض على ما كان عليه من
قبل حتى يأذن الله له ، ويأتيه بالمواني الموافق الذي يستطيع ان يهب له قلبه وجهه ، ورأيه وحكمته
وتجربته وخبرته ، وآراءه في السياسة الدولية التي كان جاهداً في معرفة خفياتها ومضمراتها طول
حياته . وكان يخصُّ برادته هذه سيف الدولة وهو عاصمُ بني حمدان اذ ذاك ، والمستولي على
الأمد من رجال عصره ، والذي عهد فيه ابو الطيب حين رآه في سنة ٣٢١ رجولة متحفزة للوثبة ،
وسمع من اخباره ما يكاد يحقق نبوءته في ظفروه وفلججه على خصومه وخصوم أبي الطيب نفسه
وبقي أبو الطيب سنة في ظل أبي العشائر ، وكان فتىً من فتيان بني حمدان ، قد جمع أداة
القنوة ولم يستكملها ، وكان اديباً مقتدرأ مولعاً بالادب ، مبجلأً للادباء عاطفاً عليهم معيناً لهم ،
وكان شاعراً تقع له الدرة الجميلة في شعره ، والنادرة البديعة ، غير متعمد ولا جاهد . وأحب ابو
الطيب صاحبه أبا العشائر ، واحبه ابو العشائر واكرمه واضفى عليه من كرمه ولينه وحنانه ،
وقد حفظ له ابو الطيب هذه اليد التي له عنده ، حتى انه لما غضب عليه بعد — لامر سيأتي ذكره
فيما يستقبل من كلامنا — وارسل الى ابي الطيب بعض غلمانة ليوقعوا به وهو بظاهر حلب وورماه
احدهم بسهم اخطأه ، وقال له وهو يرميه : خذه ، وانا غلام ابي العشائر — لم يحفظ ذلك أبا
الطيب على ابي العشائر ، ولم يستدع هذا العزم على قتله هجاءه أبا العشائر ، بل قال ...

ومنتسب عندي الى من احبُّه وللسبل حولي من يديه خفيف
(فيسح من شوقي — وما من مذلة حنت — ولكن الكريم ألوف)
وكل وداد لا يدوم على الاذى — دوام ودادي للحسين — ضيف
(فان يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللائي سررن ألوف)
ونفسى له — نفسى الفداء لنفسه — ولكن بعض المالكين غنيف
(فان كان يبني قناتها — يك قاتلاً بكفيه — فالقتل الشريف شريف)

وهذه الحادثة وما كان من أبي الطيب فيها، وما قال من الايات السالفة دليل قاطع على ان الرجل كان إذا أحب وأخلص الحب لم يحوِّله شيء عن حبه، وأن هجاءه الذي كان منه لبعض من مدحهم، إنما كان منه لانه لم يكن يضر لهم حباً ألبتة، بل كثيراً ما كان يخفي بين جنبيه احتقارهم وازدرائهم، ولولا الضرورة لما مدحهم ولا قصدهم ولا وقف بأبوابهم. وهي أيضاً دليل على ما قطعنا به — في موضع من كلامنا — من أن أبا الطيب كان ودوداً أوفياً، كريم الخلق، وفيما لمن وفي له وأحبه وبأذله الود. وقد صدق صاحبنا إذ وصف نفسه يوماً ما فقال

خَاصَّتْ أَوْفَاءً، لَو رَجَعْتُ إِلَى الصَّبَا لَفَارَقْتُ شَيْبِي مُوجِّعَ الْقَلْبِ بَاكِئًا

وهذا موضع من أخلاق أبي الطيب ونفسيته ينبغي الوقوف عنده وتدبره، إذ كان كثيراً ما يعترض به المعترضون حين يذكرون أخلاقه، حتى أنهم من اضطرابهم في فهم أخلاق الرجل ونفسيته رموه هو بالاضطراب والملل في الصداقة والود، وليس الا هم على ما ظنوا، بل هو كما ترى في كلامنا هذا. ورحم الله أبا الطيب، فقد حمل من نكد الدنيا في حياته وبعد موته ما لقي من أرزاء

هذا ، وقد لقي أبو الطيب وهو في جوار أبي العشائر — كما حدثناك في الباب السابق — كيداً كثيراً، وتقوّل عليه المتقولون ما شافوا، وآذوه وكثروا عليه الوشاية والسعاية، وغرّوا بدمه وثلبه، وكان ما زعمناه من تشهيرهم به إذ نبزوه باللقب الذي عرف به بعد وهو (المتنبى). ولم يكن كل ذلك مما يرد أبا الطيب عن غايته التي قصد من أجلها أبا العشائر فبقي صابراً حتى كانت سنة ٣٣٧

ففي جمادى الاولى من هذه السنة قدم سيف الدولة — من حربه مع الروم وظفروه بمحصن برزويه — إلى أنطاكية التي كان بها أبو العشائر وأبو الطيب، فاستقبله أبو العشائر، وأبلغه ما كان من مقدم أبي الطيب عليه، وإكرامه له، ووصف له ما حسن عنده من خاق أبي الطيب، وما وجد فيه من الفتوة والبروة، وما أعجب به من حسن عشرته، وجميل أدبه في المنادمة والمسامرة، وما عاينه أبو الطيب من الطبيعة الثائرة الجيارة، وما انطوى عليه قلبه من محبة العرب وبنفس الاعاجم، وما سمعه من آرائه في سياسة الأمة، وما ابتليت به من البلاء العجمي والفتن الآكلة رطب الحياة العربية ويأسها، وذكر له شعره الذي مدحه به فذكر سيف الدولة ذلك الفتى العربي الصبح الوجه الحسن السمت صاحب الوفرة المسترسة التي تسيل الى شحمي أذنيه، ذكر ذلك الذي أنشده مديحه في سنة ٣٢١ وهو يتدفق بفصاحته وبيانه، ويتفاح بقوة وشدة وحماسة وحدة شابه، ذكر سيف الدولة تلك الشخصية الطاغية بسحرها وجمالها

وجلاها ، والتي لا تدع للنسيان في الذاكرة يدأ ماحيةً أو مفسدة . . . وقد كان أبو الطيب كما وصفوه « رجلاً ملاء العين . . . قوياً بديناً خليقاً شخيصاً ، عادي الخلق ، قوي الاساطين ، وثيق الاركان ، جيد الفصوص ، فيه جفاء وخشونة » . ذكره سيف الدولة واستيقظت في قلبه المحبة النائمة في غوره ، وتجمعت له اخباره التي كان قد سمعها عنه من سنة ٣٢١ إلى هذه السنة . فتقدم الى ابي العشائر ان يستدعيه لساعته ، شاكرآ له حسن وفادة الرجل واكرامه له وكذلك لاقى العربي النائر الشاعر الفذ ، العربي الفاتح الغازي المجاهد الفذ ، على شوق وحنين ، وحن الدم الى الدم ، وعلقت النفس بالنفس ، وتعانقت القلوب في ساعة من غفلات الدهر — اخرجت كلا الرجلين عن طوره . وكان هذا اللقاء الثاني فاتحة نجد ابي الطيب وخلود ذكر سيف الدولة في شعره وبيانه

وفي هذا اللقاء التاريخي الذي اتفضت فيه القلوب ، ودمت بأسرارها وأشواقها ، ثارت نفس الرجل البليغ ، واجتمعت لها كل حوادثها وما سر بها من الاهوال ، في مجلس امير العرب الفاتح المجاهد الظافر ، وتقاذفت المعاني من قلبه الى لسانه ، ووقفت مجبوسة في هذه الايات التي ضمها الشاعر الى قصيدته بعد في مدح اميره وأمير قومه (١)

سلكتُ صروف الدهر حتى لقيته على ظهر عزم مؤيدات قوائمه
مهالك لم تصحب بها الذئب نفسه ولا حملت فيها الغراب قوادمه
(فأبصرت بدرأ لا يرى البدر مثله وخطبت بجرأ لا يرى العبر عائمته)

ثم قال البيت الذي تازعته كل عواطف قلبه ، ونوازع فؤاده ، وآراء فكره ، وفصح بيانه (غضبت له لما رأيت صفاته بلا واصف ، والشعر تهذي طاطمه)

وكان ذلك بدء المجد الخالد الذي بقي للعرب في صفة امير فذ من امرائهم ، رد به القدر عادية الروم عن بلد من بلادهم ، لا يزال معقلاً للعرب والعريية الى يوم الناس هذا . . . ألا وهو الشام الذي يضم فلذة اكباد الفاتحين من المهاجرين والانصار ، ومن سبقهم اليها في الجاهلية من الفرانيق الصباح من بني غسان ، وكان ذلك ايضاً بدء المجد الخالد للسان العربي ، والفكر العربي الصريح في ديوان شاعر فذ من شعراء العريية ، لم يرزق الشعر ولا الحكمة مثله ذا لسان وبيان . . . ألا وهو أبو الطيب المتنبى واحد الشعراء الذي جاء (فملاً الدنيا وشغل الناس)

ولا بد لنا من الوقوف قليلاً عند هذا الموضوع من الكلام ، وندع صفة ما نحن فيه من لقاء الاسدين العريين الفاتحين . زعمنا لك فيما مضى أن تلك الايات الاربعة كانت مما ثارت في قلب أبي الطيب في هذا المجلس الاول ، قبل أن يحتفل بيانه لقصيدته الاولى التي أنشدها سيف الدولة في

(١) انشد ابو الطيب هذه القصيدة في مجلس آخر غير هذا المجلس الذي وصفناه لك

تلك السنة وهذا موضع تدبر وبصر، لأنحِبُّ أن ندعه قبل أن نسوق اليك من أخباره طرفاً حتى تهيج لنفسك نهجاً مثارياً يعينك على استخراج أسرار أبي الطيب، واستنباط ما كان يلجُ في نفسه من العواطف... بلى، وهو عندنا قانون من قوانين شعر أبي الطيب ونفسه تستطيع به أن تعرف خفيات ما في شعره من ضائره ومبهمات. هذا، وسكنف لك عنه فيما يستقبل كشفاً مبيناً إن شاء الله^(١) كان أبو الطيب على ما وصفنا لك من قوة النفس، وحدة الطبيعة، مرهف الحس، سريع التأثر، تطلق عواطفه كلها في ساعة من ساعات حياته، فلا تلبث أن تستير كل قوة فيه، وتجتمع كل قواه حين ذلك ماضية من قلبه الى لسانه لتثبت عليه عدد هزات الزلزلة التي وقعت في قلبه ونفسه، ويغزغ لسانه إلى يانبه ليين عنه ما ينبغي من الإبانة، فيحتفل يانه كله في آيات قليلة تكون هي أول القصيدة عند أبي الطيب، ثم يدخرها صاحبنا لأجلها وموضعها، فيثبها في مكان من شعره. وكثيراً ما تقع هذه الآيات في موضع لا تتساق في معاني الكلام على قاعدة مطردة من حق المعنى وتتابعه، فلذلك تبقى هذه الآيات التي تحمل في ألفاظها هزات نفسه واقعة بين كلامين، ولا تكون هي صلة بينهما، بل تكون كالفارق الفاصل. وهذا هو ما نسميه في شعر أبي الطيب موضع (الاتقال). ومن مواضع الانتقال هذه تستطيع أن تستنبط الحالة النفسية التي كان عليها الرجل. فإذا تبصرت فيها، واستخرجت معانيها، وفصلت كلامها وألفاظها، وفسرت على الأصول الشعرية والنفسية القائمة في شعر أبي الطيب ونفسه كما قدمناها لك — استطمت أن تلمس في ظلام التاريخ الحلقات التي ينبغي لك أن تصل بعضها ببعض، فيسري التيار بينها فضي لك، فتكشف المعاني في شعر الرجل، وتبين المواضع الغامضة المظلمة من حياته... وهذه هي الطريقة التي اتبعناها فيما كتبنا مما مضى بك، وقد تحققنا صدقها، وإسعادها في المشكلات التي وفقنا إلى تفسيرها أو نقدها أو تمييزها ويجعل بنا هنا أن نعود بك الى الآيات التي ذكرناها، ونبين ذلك فيها... ونسألك أن تعذرنا إذا قصرنا، وأن تسدنا إذا أخطأنا، وأن تصبر على ما نستطرد فيه من الكلام بصبر لا يفت منه الملل، فلا حكم للملول ولا مترع

يقول أبو الطيب قبل الآيات التي رويناها لك يصف سيف الدولة

له عسكرياً خيل وطير، إذا رمى بها عسكرياً لم يبق الأجاجه
أجالتها --- من كل طاغ --- ثيابه وموطنها --- من كل باغ --- ملاغمة

(١) انظر لذلك الباب الثالث عشر من حديثنا عن المرأة التي صنعت لأبي الطيب حكمتها، وأبدت يانه ببيانها النسوي البليغ

سحابٌ من العقبان يزحفٌ تحتها سحاب- إذا استسقت سقتها صوارمه
 ثم (ينتقل) أبو الطيب من ذكر الحرب ، وصفته جيوش سيف الدولة ، وما كانت تأتي به
 من أهوال الحرب ، وما يكون منها في ساحات الوغى فيقول غير متخلص الى غرضه — على
 ما يريد علماء البلاغة!! من حسن التخلص فيقول يصف نفسه وما لاقى هو من الأهوال والمهالك
 سلكت صروف الدهر حتى لقيته على ظهر عزم مؤيدات قوائمه

الايات الاربعة التي آخرها

غضبتُ له لما رأيتُ صفاته بلا واصفٍ ، والشعر تهذي طامطه
 ثم (ينتقل) بعد هذا البيت انتقالاً آخر فيقول يذكر نفسه ورحلته
 وكنت اذا يمت ارضاً بعيدةً سريت فكنت السر والليل كآئمه
 ثم (ينتقل) ايضاً بعده فيذكر سيف الدولة . . . فيقول

لقد سل سيف الدولة المجد معلماً ، فلا المجد مخفيه ، ولا الضرب ثالمه

فلهذه الانتقالات المتتالية وقفنا عند الايات الاربعة التي قدمناها ، وتبصرنا فيها وفي معانيها ،
 وفي دلالات ألفاظها واحدة واحدة ، ورددنا البصر الى مقدم أبي الطيب الى انطاكية في جوار
 ابي العشائر سنة ٣٣٦ ، ثم مقدم سيف الدولة اليها في سنة ٣٣٧ ، ثم في اللقاء الذي رووا خبره
 على علاته ، ونقضنا الايات ومعانيها وتلمسنا الحلقات في ظلام التاريخ والترجمة ، فوصفنا لك اللقاء
 الذي كان في تلك السنة بين ابي الطيب وسيف الدولة ، ونحن ننظر بعين لا تحسر الى ما قدمنا
 من التاريخ في صدر هذا الباب ، وما عرفنا من خلق ابي الطيب وآرائه واغراضه وآماله ، وما
 وقفنا عليه من خلق سيف الدولة وآرائه واغراضه وآماله ، ثم حكنا كما رأيت انها كانت اول
 ما قال ابو الطيب من قصيدته تلك وطمنا الرأي على ذلك ، واعتمدنا وسرنا على بركة الله .
 فانظر ماذا ترى^(١)

ثم نعود الى ما كنا فيه لقي ابو الطيب سيف الدولة ، وخرج من مجلس امير
 العرب ، وهو يقول كما قال اولاً في بعض من مدح بأنطاكية

مفدئى بآباء الرجال ، سميدعاً هو البكرم المد الذي ماله جزر
 وما زلت حتى قادي الشوق نحوه يسارني في كل ركب له ذكر
 واستكبر الاخبار قبل لقائه فلما التقينا ، صغر الخبر الحسبر

(١) اعلم اننا اذا أردنا ان تفك عند لفظ لفظ من الايات ، ونكتب لك الرأي كما مقيداً ، لطوبنا
 بذلك ورقت من هذا الحديث ، وكان ذلك قطعاً لنا عن اتمام هذا العدد من المتنطف . فلا بد لك اذن من
 النظر ، ثم النظر ، ولعلك بالغ بقوتك ما لم تبلغه بضعفتا وقفنا الله واياك

واحتفت نفس الشاعر الثائر البليغ لهذا اللقاء، ونسي نفسه وما كان يذكرها به من القوة والفتوة، وما كان طول عمره يصفها به من صفات الرجولة والكمال، ووجد آمله في آمال سيف الدولة، وآراءه في آرائه، وعواطفه في عواطفه، فألقى في مديح (الرجل) كل نفسه وآرائه وأفكاره وعواطفه وألقى ذكر نفسه، ورعى بين يدي سيف الدولة الدرّة الأولى في تاج بني حمدان مشرقة متلاثة تسطع وتتضوأ. وفي هذه القصيدة الأولى التي اولها «فاؤوكا كالريغ اشجاء طاسمه» رجعت الى ابي الطيب قوة التصوير والتثيل فرسم صورة سيف الدولة كأحسن ما تأتي من بنان مصور صنع لبق مبدع، ووصف المجلس الذي كان فيه سيف الدولة كأنك تراه. وذلك انه دخل عليه وقد جلس في فازه^(١) من الديباج عليها صورة ملك الروم، وصور رياض بدوحها وطيرها ووحشها وحيوانها. فكان مما قال في صفة تلك الفازه والاسد المعنى في ذراها

وأحسن من ماء الشيبية كله	حيا بارقي في (فازه) أنا شائبة
عليها رياض لم تحكها سحابة	وأغصان دوح لم تنق حائبة
وفوق حواشي كل ثوب موجه	من الدرّة سمط لم ينقبة ناظمة
ترى حيوان البر مصطلحاً به	يحارب ضدّ ضدّه ويسالمة
إذا ضربته الريح ماج، كأنه	تجول مذاكيه، وتندأى ضراغمة ^(٢)
وفي صورة الرومي ذي التاج ذلة	لا بلج، لا تيجان إلا عمائمة
تقبل أفواه الملوك بساطه	ويكبر عنها كنه وبراجمه ^(٣)
قياماً لمن يشفي من الداء كيه	ومن بين أذني كل قرم مواسمه
قبائمه تحت المرافق هيئة	وأقذ مما في الجفون عزائمة ^(٤)
له عسكريا خيل ورجل إذا رمى	بها عسكرياً لم يبق إلا جاجمة
أجلتها من كل طاغر - نيا به	وموطنها - من كل باغ - ملاغمة
(فقد مل ضوء الصبح بما تغيره	ومل سواد الليل مما تراجمه)
(ومل القنا مما تدق صدوره	ومل حديد الهند مما تلاطمة)

(١) الفازه: المظلة تقوم على عمود في وسطها. وهي اشبه بما يتخذها الناس في يومنا هذا على شواطئ البحار

(٢) يصف الخيل (وهي المذاكي) والاسود وهي تختل صيدها من الظباء النافذة

(٣) البراجم: مفاصل الاصابع

(٤) القبائع: ما يكون على توأم السيوف من الخلي، يعني السيوف الحلاة بالذهب والفضة

لقد سلَّ سيف الدولة المجد معلماً
على عاتق الملك الاغر نجاهه
تخاربه الاعداء ، وهي عبيده ،
ويستكبرون الدهر والدهر دونه ،
وإن الذي سمى عايّاً لنصف
وما كلُّ سيف يقطع الهام حده
فلا المجد مخفيه ، ولا الضرب ثامه
وفي بدر جبار السموات قائمه
وتدخر الاموال ، وهي غنائمه
ويستعظمون الموت ، والموت خادمه
وإن الذي سمى سيفاً لظالمه
وتقطع لزبات الزمان مكارمه

فقرأ ثم اقرأ ثم تدبر ثم عد إلى النهج الذي أشرنا اليه في الحديث عن بدر بن عمار، ووصفه الأسد هناك ، وقارن بين ما ترى هنا وما ترى ثم تجد التقارب بيناً واضحاً ، والنفس ، الشعري البليغ العظيم ممتداً من زمان بدر إلى هذا الزمان غير منقطع ، وتدبر هذه الايات الاخيرة وما سمها به أبو الطيب من ميسمه الذي يتلذع بنار قابه ، والذي صار علامةً يئس في كل شعره الذي قاله في سيف الدولة بعد هذا . وفي الذي قد منا ذكره وما أشرنا اليه كفاية للبصير المتدبر

وتيق سيف الدولة بأنطاكية أشهراً من سنته تلك ، وأبو الطيب الى جواره وفي مجلسه ، وبين أصحابه وفي ركابه . واستصفاه سيف الدولة ومنحه بشره وقربه ، وامتد الحديث بينهما في بعض الخلوات عن شؤون الدولة وما وقع فيها ، وما ادركها من الضعف والوهن ، وما كان لوقته من أسباب ذلك . ورأى سيف الدولة أن محدثه رجل داهية بصير مخنك قد نجذته الحوادث ، وله رأي ومعرفة وأسرار قد استجدها بعد اللقاء الاول في سنة ٣٢١ ، فضلاً عما كان يعرفه — فيما زعمنا — من نكته الاولى في نسبة من قبل العلويين أصحاب الامير بالكوفة ، فزاده قريباً وكرامة ومحبة ، لم ينل منها شاعر من أمير ، وكان ذلك عجباً في أنطاكية وغيرها ، لما عرف من صرامة سيف الدولة وتحززه وتشددّه حتى على الكثير من أهله . فانظر إذا أردت الى ما كان بين سيف الدولة وأبي فراس الحمداني ، فإن القرابة والرحم لم تنفع أبا فراس في القرب من سيف الدولة — مع أنه كان متحققاً بخدمته ، ذاهباً في طاعته ومرضيته ، حامياً لحقيقته ، مفدياً له في حروبه وغزواته بنفسه ودمه ، ممجداً له في شعره ، مخليداً ذكر غزواته وحروبه — كل هذا لم يقرب أبا فراس من سيف الدولة قرب أبي الطيب منه ، مع تقدّمهما في الشعر والادب ، ومع ان أبا فراس كان اولى بالتقديم والتكريم من أبي الطيب لحسن بلائه في الحرب وقدم عشرته لسيف الدولة ، وسبقه في مجيده ونخايد ذكره وذكر حروبه . فلذلك نقول لك ان تقديم سيف الدولة أبا الطيب على سائر شعرائه المستظاين بظله ، والمتدبرين في طاعته وخدمته ، لم يكن من اجل الشعر وحده وحسب . بل للذي بلاه سيف الدولة من آراء أبي الطيب وافكاره وعواطفه في الامور السياسية التي كان يسعى في تحقيقها وإتمامها والقيام عليها بسيفه وخيله ورجله ، ورجاله

المحكين من ذوي الدهاء والخبرة والمعرفة والعلم . وقد قدمنا ذكر مطالب سيف الدولة في اول هذا الباب ^(١)

ثم عزم سيف الدولة الرحيل عن انطاكية الى حلب مقرر حكمه ، ولكن ابا الطيب لم يستطع ان يصحبه في رحيله هذا ، فعزم عليه سيف الدولة ان يلحقه بحلب . وعندنا ان الذي عاق ابا الطيب عن صحبة سيف الدولة في هذا الرحيل امرٌ يخصه هو ، وليست له فيه ارادة . وقد قاسنا الرأي في شعر المتني في تلك الفترة وما بعدها بقايل ، وتدبرنا كلام الرجل على الاصول التي قدمنا لك منها اطرافاً في كلامنا ، وظفرنا باشياء دللتنا على ان هذا الامر الذي عاقه كان مما يقطع في قلبه ويوجعه في عواطفه . وتبين لنا ان هذا الامر هو مرض زوجته والظاهر انها كانت حاملاً ثم جاءها المخاض فأعضلت وعسرت ولادتها ثم رمت ذا بطنها وماتت ، وكان مرضها ذلك في حماها وما ركت له وراء ظهرها — ولعلها مات بعد اشهر قبل ان يستمسك — هو الذي منع ابا الطيب ان يصحب سيف الدولة يوم رحيله من انطاكية

وتأويل ذلك ، ان ابا الطيب كان ولا شك عازماً على رفقة سيف الدولة ولولا ما فجئه بما لا حياة له في رده لفعل . فانه حين أزمع سيف الدولة الرحيل عن انطاكية قال له أبو الطيب نحن من ضايق الزمان له فيك ، وخاتمه قربك الايام وقال ايضاً في يوم رحيله وقد كثر المطر وكاد يعوقه عن عزيمته

رويدك أبا الملك الجليلُ تأنُّ ، وُعدَّةٌ مما قيلُ
وجودك بالمقام ولو قليلاً فما فيما تجود به قليلُ
لا كبت حاسداً وأرى عدواً كأنهما وداعك والرحيلُ

فهو في البيت الاول يذكر ما يبتليه به الدهر من العوائق ، وما يضايقه به من الارزاء التي تحول بينه وبين ما يروم من صحبة سيف الدولة والقرب منه ، وقد خص نفسه بذلك اذ يقول « نحن من ضايق الزمان له فيك » . ولا نظن أن قد كان إذ ذاك ما يمنع ابا الطيب من الرفقة إلا ما يخرج عن إرادته ، ويقع بينه وبين عزمه . فلما كاد المطر يعوق سيف الدولة ، بان الفرح في كلام أبي الطيب مقروناً بالحسرة لما يعلم من أن ذلك لن يقطع فيما أبرم من عزمه ، فسأله أن يتي قليلاً بأنطاكية ، وتعلل له بعائته التي ذكرها . وكان أبو الطيب إذ ذاك متأثراً بالحالة التي عليها امرأته ، فوقع في بيت من قصيدته الاخيرة التي ذكرنا أولها ما يدل على ما في نفس الرجل من آثار ما كان فيه من الكرب على عادته التي أسافنا يانها في مواضع فقال لسيف الدولة

(١) تلبت نجد بقية الحديث بمد قليل في هذا الباب ، فجعله منك على ذكر

فلو جاز الخلودُ خَلَدَتْ فرداً (ولكن ليس للدنيا خليلُ)
 فهذا الحزنُ الغالبُ على الشطرِ الاخيرِ ، والتمثّلُ في كلماته ، وفي عبارته عن المعنى الذي
 أرادَهُ حينَ استدركَ بقوله « ولكن » ، بعد ما كان من فرحه وطربه وتدفق نفسه بالأمال ،
 واستبشاره بانقاء سيف الدولة ، والذي كشفت عنه قصيدته الاولى « وفاؤُكم كالربع أشجاءُ
 طاسمه » على ماضى في كلامنا — يدلُّ على أن الرجل كان قد أدركه ما أحزته وغمَّ قلبه ،
 وردَّ عليه فرح نفسه غمًّا وحسرةً وتشاؤماً من الدنيا ، وما يكون فيها من بلايا الدهر بالفراقِ
 والموت . وهذا يتَّسَّنُّ كما ترى

وأتقل أبو الطيب — بعد موت امرأته بقليل — من أنطاكية إلى حلب ، ثم ماتت والدة سيف
 الدولة فقال له في عزائه قصيدته المشهورة ، وأولها من دموع أبي الطيب التي كان يبكي بها ، وقد جاء فيها

نصيبك في حياتك من حبيبِ نصيبك في منامك من خيالِ
 رماني الدهرُ بالارزاء حتى فؤادي في غشاء من نبالِ
 فصرتُ إذا أصابني سهامُ تكسرت النصالُ على النصالِ
 وهان فما أبالي بالرزابا (لاني ما اتفتتُ بأن أبالي)

(يدفن بعضنا بعضاً وتمشي أواخرنا على هامِ الاوالي)

وهذا الحديث عن نفسه ومصائبها ورزاياها ، وما فيه من الحزنِ الغالبِ على عقله وعواطفه
 بعد الذي كان من أفراحه ، دليلٌ على ما قدمنا من أن الرجل كان قد أصيب وابتلي ببلاءِ آله
 وحزبٍ في قلبه ، لا يزال يدفعهُ إلى القولِ الباكي الحزين . ثم يستمرُّ على ذلك في شعره مدَّةً ،
 فإنّه في هذه السنة نفسها (سنة ٣٣٧) قال وهو يمدح سيف الدولة ويذكر استنقاذه أبا وائل

تغلب بن داود بن حمدان من أسر الخارجي

تلكُ العناة ، وتُغني العفاة ، وتنفّرُ للمذنبِ الجاهلِ
 فهناك النصرَ معطيكةُ وأرضاء سعيك في الآجلِ

يعني سيف الدولة — وكان حق الشعر ان يقف به أبو الطيب عند هذه الدعوة الصالحة بالظفر
 الذي كان ، والعمل الصالح فيما يستقبل . ولكن نفس الرجل كانت مضطربة متأثرة ، قد غلبها
 الحزن . وغمها الدنيا (التي ليس لها خليل) بما جلبت عليها من ارزاء ومصائب ، فانتقل على
 عادته غير متخاص ولا حاقل (بالمناسبة ومقتضى الحال) فقال في عقب البيتين

(فذي الدار أخون من موميس وأخدع من كفة الحابلِ)

تفاني الرجالُ على حبا وما يحصلون على طائلِ

فأنت ترى ان هذه المعاني التي قيدناها لك ، آخذ بعضها برقاب بعض ، على طراز لا يختلف من الحزن والكرب . هذا ، وقد كان سيف الدولة سأل ابا الطيب بعد ذلك ان يسير معه الى الموصل لما ازمع هو المسير الى نصره اخيه ناصر الدولة ، فاعتذر له ابو الطيب عن المسير معه بقوله

كن حيث شئت فما تحول تنوفاً
دون اللقاء ، ولا يشيط مزاراً
(إن الذي خلقت خلقي ضائع ما لي على قلتي إليه خيار)
(واذا صحبت فكل ماء مشرب لولا العيال - وكل أرض دار)
إذن الامير بأن أعود اليهم صلة تسير بذكرها الاخبار

فلو ان امرأته كانت إذ ذاك باقية لم تمت ، لما عز على ابي الطيب ان يفارق عياله في رفقته وصحبته . وبين من قوله (إن الذي خلقت خلقي ضائع) انه يعني صغيراً من ولده لا يطمئن قلبه اذا فارقه مضيقاً ليس له من يعوله او يكلوه ويرعاه ، وأم ذلك المعنى بقوله « مالي على قلتي اليه خيار » . وفي الايات جميعها حنان الأبوة مائل بين لا خفاء فيه . . . وحسبك هذا من كلامنا ، فاذا رجعت الى الديوان فتدبر قصائده بعد ذلك ، ففيها من مثل هذا كثير . ولا يفوتك ان تذكر ما قدمناه من دقة احساس هذا الرجل ، وسرعة تأثره ، وظهور هذا التأثير في شعره اذا كربه أمر بنفسه أو يشيره أو يهيج كبريائه . وما يكون من جراء ذلك في شعره من الانتقال من معنى الى معنى غير عابى (بحسن التخاص ومقتضى الحال) ، ولا تنس ان تقرأ هذه الايات الثلاثة في موضعها من الديوان متدبراً متبصراً ، وهي قوله

أبكي لموتانا ، على غير رغبة تقوت من الدنيا ، ولا موهب جزل
إذا ما تأملت الزمان وصرفه تيقنت ان الموت ضرب من القتل
(وما الدهر أهل أن تؤمل عنده حياة ، وان يشاق فيه الى النسل)

اجتمع على ابي الطيب كما ترى في اول صحبته لسيف الدولة أفراح قلبه بلقاء امير العرب الذي أحبه وأمل فيه الخير والبركة والنصر لآرائه وافكاره وسياسته ، وأحزان قلبه بفقد امرأته ثم صغيره الذي جدد له ما قبله من احداث الزمن ومصائبه من الآلام . فكان تنازع الفرح والحزن في تلك النفس المرهفة الشاعرة الثائرة سبباً في استخراج كوامنها ومضمراتها وذخايرها . واخذ ابو الطيب يروى ما عنده من العواطف والافكار ، ويتأمل ما يجد في قلبه من المعاني التي ولدتها الافراح والآلام ، ويستوعب ما في ضميره من الاحداث القديمة التي تركت وسمها فيه ، ويرمي بصره الى ما يستقبله في ظل سيف الدولة ، وينظر فيها وجد عند الامير من العطف عايه والاكرام له ، وتقديمه على القدماء من اصحابه وشمرائه ورجاله ، وشغافته الايام بما يتجدد فيها

مما يخصه وما لا يخصه ، وحوته المجالس مجالس العلم والادب والشعر والسياسة ، واحاطت به الدنيا كلها مهياةً كأنما أعدت له ، ليأخذ منها ما شاء ويدع ما شاء ، ... فكان هذا كله ترفيقاً من القدر لصنع هذه الشاعرية الفذة وتربيتها وتغذيتها وتنشئتها على غرارٍ فذٍ ، يكون به ابو الطيب شاعر العرب والعربية الذي (ملاً الدنيا وشغل الناس)

وكان تازع الفرح والحزن في تلك النفس المرهفة الشاعرة الثائرة حدّاً لها من غلوائها ، وصرفاً لها عن الفكر في الكبرياء ، الى الكبرياء في الفكر ، فاصبح ابو الطيب ينظر في الحياة نظرة التدبر والتحصيص ، يقلسب الرأي ، ويعبر الفكرة ، ويقيس الاشياء والنظائر ، ويرد الامور الى اصولها ومنازعاها ، ويتزع جوهر المعاني من بين اعراضها ، لا يأتلى في ذلك جهداً ولا يقصر . فمن هنا تواردت عليه المعاني ، واتخذت لها بين قلبه وفكره منزلاً ومقرّاً ، فاذا قصد الى الشعر واحتفل له يانه وزوافد هذا البيان من الحوافز والدوافع والمواطف ، ابترت هذه المعاني من منازلها بين قلبه وفكره الى منازلها بين آياته وقصائده . وهذا هو احد الاسرار العظيمة في بيان هذا الشاعر العظيم

وتلاً لمجد سيف الدولة في شعر ابي الطيب فقر به وزاده عطاء واقطاعاً ، واسبح عليه نعمة لم يكن ابو الطيب ينتظر مثلها أو يؤمله ، فوقع ذلك من نفسه موقع الامنية التي تحققت من نفس اليأس الذي ضجر بامانيه وقد استيقنت نفسه انها لن تحقق ، وكان هذا ايضاً — مع الحزن والفرح اللذين يتنازعان في نفسه — عوناً على صنع شاعرية الرجل وصلها وجلالها ، لتكون المرأة التي تترأى فيها حقائق الحياة وفلسفتها وحكمها وبيانها وما لها وما عليها

ولم يكن سيف الدولة يجهل ما سيكون من هذا الرجل اول ما لقيه ، بل يقيناً أنه كان قد انكشفت له نسيه ابي الطيب فأخذها من حيث ينبغي أن تؤخذ ، وعرف أن هذا الذي مدحه بأنطاكية سيكون مخلصاً ذكره ، وحافظ أخباره وصفاته في شعره ، وليس مثل سيف الدولة من يغفل عن ذلك أو يتجاوز به بصره . فقد كان سيف الدولة أديباً شاعراً قد اجتمعت له من أداة الأدب والشعر أداة كاملة متقنة ، وكان بصيراً بتقد الشعر ، نافذاً في إدراك أسرار البيان وايضاً . . . فقد كان ما عليه سيف الدولة مما ذكرنا ، من أكبر العوامل في شعر ابي الطيب ، فإنه كان يعرف يقيناً بصر صاحبه سيف الدولة بالادب والشعر ، فحمله ذلك على الإجابة والتبصير ، وتقليب المعاني واختيارها ، واصطفاء أثوابها من الالفاظ واجباتها ، وكان ذلك من ابي الطيب لما في نفسه من الكبرياء والعظمة ، إذ لو لم يفعل ذلك لملا عليه في نظر سيف الدولة أحد غيره من الشعراء أو لسواء به ، وعاجبنا هذا لا يرضى بأن يسبقه الى سيف الدولة غيره من الشعراء ، فهل يرضى بالمساواة ؟ . . . كلا ، وكذلك فاق أبو الطيب كل من سبقه أو جاء

بعده من شعراء العربية ، فقد اجتمع له من الدوافع وغيرها ما لم يجتمع لأحد منهم
 وبعد أيضاً ، فقد كان من العوامل في هذا النبوغ الفذ الذي استعلن في أبي الطيب ،
 ما أصاب من الاستقرار والاطمئنان في جوار سيف الدولة ، وما تيسر له من الرزق الذي لم
 يكلفه همّاً ولا كرباً ، بعد أن كان لا يمضغ لقمة من عيشه إلا ومعها نكدها وهمّها وشقاؤها
 وأيضاً فقد علمت قبل أن هذا الرجل كان من صغره محباً للعلم والادب ، لا يدع استيعاب
 ما يقع إليه من الكتب في كل فنٍّ وعلم ففي جوار سيف الدولة ، تيسر له من ذلك ما لم يكن
 يتيسر ، فقد كان مائتاً بماله الذي أفاده ، يشتري ما يشاء ويستسخ ما يرغب فيه ، وما كان سيف
 الدولة ليمنعه أن يستفيد مما اجتمع عنده من نوادر الكتب والمؤلفات قديماً وحديثاً ، فأخذ أبو
 الطيب يقطع أيامه بالتزوّد من كل علم ، والإستزادة في كل فنٍّ ، وقد وهبه الله ذاكرة
 واعية ، وفهماً نافذاً ، وقدرة على النقد والتمييز ، ونفساً شاعرة تأخذ من ذخايرها ما تشاء ،
 وتفرض عنه ما يعلق به ، ومحاسن جلوة العروس في ثياب عرسها . وكذلك انفق لابي الطيب
 في هذا العهد كل ما يعينه على النبوغ والسبق

قلنا قبل أن سيف الدولة قد قرّب أبا الطيب وزاده كرامة ومحبة لم ينل مثاها شاعر من
 أمير مع ما عرف عن سيف الدولة من تحرّزه وتشدده حتى على الكثيرين من أهله ، وضربنا
 المثل بأبي فراس الحمداني وهو من هو في قربه من سيف الدولة لقرابته ورحمه ، وتحققه بخدمته ،
 والذهاب في طاعته ومرضىته ، وتمجيده في شعره ، ومخيلد ذكر وقائمه وحروبه ببلاغته وبيانه ،
 وأشرنا الى ان السياسة كانت أيضاً مما قرّب أبا الطيب وأدناه من مجلس سيف الدولة وسامره
 وخلوته . ولعلّ هذا الامر الاخير — مع ما قدما ذكره من أحوال سيف الدولة ، وأبي الطيب
 وما فيه من النبوغ والدهاء . — هو الذي جعل لابي الطيب عند سيف الدولة منزلة لا تدانها
 منزلة أحد من أقاربه أو أهله أو شعرائه الذين كانوا يبابه ، وقد قالوا إنه لم يجتمع يباب
 أحد من الامراء مثل ما اجتمع يباب سيف الدولة من الشعراء والادباء

وقد تبعنا ديوان أبي الطيب كله لنظفر بالدليل على أن سيف الدولة كان قد استصنى أبا الطيب
 وأخذ منه أحياناً يمنحه ودّه ويكشف له عن سرّه ، ويحدثه بأماله في السياسة والحكم فوقنا على
 أشياء من ذلك لا بأس من ذكرها والتدليل عليها ، على ما درجنا عليه في كلامنا من استنباط
 المعاني وردّها بعضها الى بعض — هذا على كثرة ما يتصل بهذا من أحوال أبي الطيب وسيف الدولة ،
 مما لا نستطيع أن نجعله لك في فصل واحد ، ولذلك سنكتب ما نكتب ، وعلى القارى ، أن لا ينسى
 ما مضى من القول فيضعه في موضعه ليزيد ما أمامه قوةً وبياناً ، وأن يستأنى لما يستقبل فيحله
 محاه ليرتبط الاول بالآخر ، وينكشف له ما يغمض عليه أو يستهم مما نحن فيه

كان أبو الطيب كما رأيت أولاً رجلاً ثائراً بما في نفسه غير راضٍ عن الحكم القائم في البلاد العربية وقد ذكر ذلك في كثير من شعره الذي مضى بك ، وهدد الامراء والملوك والسلاطين بما سوف يفعله بهم ، وما يأتيهم به من القتل والفتك ، وخص بالذكر والحقد والوعيد الاعاجم الذين كانوا قد استولوا على مقاليد السلطان والحكم ، ولم يفتأ يذكر ذلك من أول أمره الى ان اتصل بيدربن عمار ، وكان — كما قلنا قبل — يؤمل ان يجد في بدر بن عمار (الرجل) الذي يستعين به على آماله وآرائه ، ويحقق بعونه له ، ما كان يدور في نفسه من المطامع السياسية — من رد الحكومة الى العرب دون الاعاجم ، وكذلك هدأ حين اتصالة بيدربن ولم يكتر من ذكر وعيده وانذاره وآرائه ، وفسرنا هذا هناك . فلما كان اتصالة بسيف الدولة على ما وصفنا في هذا الفصل من توافق الرجلين في المذهب السياسي ، والرأي الذي يريانه لانقاذ العرب من عادية الاعاجم وغيرهم ممن يكيدون بالفتنة لامتهم ، هدأ أبو الطيب هدأته تلك ، وانصرف ييانه الى تمجيد صاحبه كما فعل حين كان في جوار بدربن . وقد أئمننا بحالة أبي الطيب النفسية وفسرناها ، وبيئنا ان ذلك عادة له اذا لاقى العربي المحارب الفاتح الذي يؤمل في وجهه النصر والظفر وتحقيق الآمال التي تسبو بهمه الى غزو الامة ، وانقاذها من البلاء الذي حل بها وأوهاها وفرق شملها . وجمنا الى ذلك ما كان من تقريب سيف الدولة أبا الطيب اليه ، واصطفائه بمودته دون سائر الشعراء ، وجميع اهله وقرابته ، والمتصلين به من اصحاب الفكر والرأي والدهاء . وقد مضى بك ايضاً ان ابا الطيب كان قد ذكر — حين قدم الى انطاكية على ابي العشائر — انه لم يات به مستنجحاً ولا طالب رقد وعطاء ، بل اشار الى مراده ومبتغاه الذي من اجله قصد انطاكية فقال

فسرت اليك في (طلب المعالي) وسار سواي في (طلب المعاش)

وبيئنا من شعر ابي الطيب في المدة التي سلخها في ظل سيف الدولة من سنة ٣٣٧ الى سنة ٣٤٦ انه كان يقول الشعر في سيف الدولة — ممجداً له ورافعاً من ذكره وذكر غزواته وحروبه — وقد تآزرت عوامل نفسه كلها على منحه التجويد والابداع في ذلك . وتفسير ذلك عندنا ان هذا الرجل الثائر حين لاقى سيف الدولة الفاتح ، وجه كل ما كان في قلبه من القوة التي دفعته الى مدح نفسه وذكرها والافصاح عن آرائها وآمالها ، الى مدح هذا الرجل (سيف الدولة) ووصفه ووصف حروبه وغزواته ، فصارت القوة التي كانت بيئة في شعره الاول الى هذا الشعر ، فكان وحده هو أبداع ما أتى به وما أخرجه من البيان . وكان صورة اخرى من شعره الاول الا انها اقوى وأتم وأمثل في التجويد والتصوير

ثم فارق ابو الطيب سيف الدولة ، وهو لا يزال ثابتاً على محبته والاخلاص له ، وكان سيف الدولة لا يزال مستقصياً لاخباره في كل بلد ينزله ، متبعاً لشعره الذي يقوله لكل من مدحه

من بعده ، وكان ايضاً لا يزال يهدي اليه من هداياه مع انه فارقه ومدح غيره — بعد اكرامه له اكراماً لم يلق مثله ابو الطيب قبل اتصاله به او بعد فراقه له ، وكان ايضاً يكتبه ويتلقى منه بعض كتبه — وهذا دليل على ان المحبة التي كانت بين الرجلين لم تكن محبة امير لشاعره وحسب بل كانت صداقة لا يقطع فيها حدث من احداث الزمان ، او سمي بالنيمة من سعي الوشاة والمتقولين هذا . . . وقد رووا ان سيف الدولة أنفذ الى ابي الطيب — وهو بالكوفة سنة ٣٥٢ بعد خروجه من مصر — هدية مع أحد أقاربه ، فكتب اليه قصيدة أهداها اليه كما أهدى ، فكان مما ورد في هذه القصيدة ، يخاطب سيف الدولة

أنت طول الحياة للروم غاز فتى (الوعد) ان يكون القبول
وسوى الروم خاف ظهرك روم فعلى أي جانبيك تميل
قعد الناس كلهم عن مساعيك وقامت بها القنا والنصول
ما الذي عنده تدار المنايا كالذي عنده تدار الشمول (١)
لست أرضى بأن تكون جواداً وزماني بأن أراك بنجيل
نفس البعد عنك قرب العطايا مرتعي مخصب وجسمي هزيل

ما أبالي — اذا اتقتك اللبالي — من دته جبولها والحبول
وقد ذكرنا قبل ان سيف الدولة كان قد عزم في نفسه ان ينال بهيمته غاية الغايات في ضم
أشبات البلاد العربية تحت سلطانه وفي ظل حكومته ، وكان أول ما أتم من ذلك ان زحم
الاششيديين بما كبه حتى أزاحهم عن أكثر البلاد الشامية ورددهم الى الرملة ، واراد ان يوطد
سياسته وحكمه بالشام حتى اذا أعد العدة ، واستجمع الاداة ، تحفز بقوته كلها على العراق فقال
عليه ميلة راية ، ليزيل عنه سلطان الموالي الذين استولوا على سلطة الخلافة . وكان هؤلاء الموالي ،
او اكثرهم ممن استقل بالدويلات ، من شيعة العلويين الذين اطاعوا داعية الفاطميين ، وكان
سيف الدولة لا يقر بحكم الفاطميين ولا يرضى عنهم ، ولذلك نصر الخلافة العباسية مع انه علوي
المذهب . كانت هذه هي سياسة سيف الدولة ، وكانت هذه هي ارادته ، ليجمع شمل العرب ويرد الحكم
الى اليد التي لا تضطرب ، والى الفكر الذي لا يحلحله من مكانه كيد الكائدين للعربية من اصحاب
الفتن والفسائس فجاء ابو الطيب يقول في هذه الايات

أنت طول الحياة للروم غاز فتى (الوعد) ان يكون القبول
وسوى الروم خاف ظهرك روم فعلى اي جانبيك تميل

ففي البيت الاول يصرح بأن سيف الدولة كان قد وعده ان يقفل من غزو الروم الذين يهددون اطراف الشام ، وبعد العدة لغزو غيره ، فإن قوله (الوعد) معرّفاً دليل على تخصيص وعد بمينه ، ولا يكون كذلك الا ان يكون وعداً وعده سيف الدولة أبا الطيب لتحقيق ما يريدان من ردّ الحكومة الى العرب ، وذلك بأن يغزو سيف الدولة العراق و (يميل عليه) ويزيل عنه سلطان الموالي والاعاجم ، ولذلك سأل أبو الطيب سيف الدولة في البيت الثاني فقال (فعلى اي جانبك تميل) . وقد جعل القائلين بالحكم ، والمستولين على السلطان في العراق — روماً ، لما أشرنا اليه قبل من ان هؤلاء لما وقفوا على عزيمته سيف الدولة في إزالتهم عن العراق ، أوغزوا الى ملك الروم أن يقاتله اذ أوقعوا في قلبه وفكره بمكرهم ودهائهم أن سيف الدولة الذي كان يمدُّ ساطانه على الشام يوماً بعد يوم ، أما يريد بذلك أن يزيل الملك من بين يديه ويغلبه على بلاده وبذلك يتم لهم ما يريدون من صرف سيف الدولة عن حربهم ، وانصرافه الى حرب الروم ، ويكون ذلك استهلاكاً لقوته . حتى اذا ما أراد أن يميل عليهم يكون قد فقد صفوة المحاربين معه في قتال الروم ، فلا يصيب إذ ذاك في حربهم وقتالهم ظفراً ولا نصراً . وهذا التعمير من أبي الطيب دليل على أنه كان يعرف سرّ هذا الامر كما يعرفه سيف الدولة ، ثم إن أبا الطيب أخذ يهتد على سيف الدولة أمر غزو العراق ، ويغريه بالإقدام على ما وعده من الفتح ، إذ وصفه ووصف أهل العراق فقال

ما الذي عنده تدار المنايا كالذي عنده تدار الشمول

فم بهذا يغريه بهم إذ كانوا قوماً أهل سكر وعريضة ، لا أهل حرب وقاتل كسيف الدولة الذي لم يكن يفرغ من غزوة ويقفل منها حتى يبادر إلى أخرى يصيب فيها النصر والظفر ، أو التجربة في القتال والمران على مكر الحرب وخدعها . وهذا الذي كان من (الوعد) بين سيف الدولة وأبي الطيب كان هو السبب في ان أبا الطيب حين دخل العراق في تلك السنة لم يعبأ بأحد من السلاطين والحكام وأولي الامر من الوزراء ، واستكبر عن جميعهم فلم يمدح منهم أحداً ، بل راعهم حتى كان ما كان من أمر الوزير المهدي وغيره ، وعداوتهم له ، وإغرائهم الشعراء بالوقوف في عرضه وشرفه ونسبه ، وتخريضهم الادباء على معاندته ومجادلته لانصّ منه والإزراء عليه -- كما مرّ بك في أوائل كلامنا

وفي ذي الحجة من سنة ٣٥٣ كتب سيف الدولة إلى أبي الطيب كتاباً (بخطه) يسأله

المسير اليه فأجابه أبو الطيب بقصيدة أنفذها اليه أولها

فهمت الكتاب، أبرّ الكتب فسمّاً لأمر أمير العرب

وطوعاً له ، وابتهاجاً به، وإن نصّر الفعل عما وجب

فإذا كان هذا الكتاب — كما وردت الرواية — قاصراً على رغبة سيف الدولة الى أبي الطيب في أن يلحق به ، ويكون في جواره ، فيكون قول أبي الطيب (فهمتُ الكتاب) من أسخف القول وأردله وأحطه وأسقطه ، ويكون سقوطاً قد أصاب عقل هذا النابغة . أيقول أبو الطيب أنه فهم كتاب سيف الدولة (الذي كتبه له بخطه) يسأله أن يسير الى الشام؟ وما في هذا الطباب مما يحتاج الى الفهم؟ وما فيه مما تقتضي الإجابة عنه أن يجزئه بأنه قد فهمه؟ أليكون هذا أو يُعقل!! واليئن أن سيف الدولة كتب الى أبي الطيب — بعد القصيدة التي مرَّ ذكرها والتي أغراه فيها بغزو العراق وفتحها — كتاباً بشرح له فيه الامر — غير مصرح بشيء — ، ويذكر العوائق التي تعوقه دون غرضهما ، ويئن له ما هو فيه من الكرب والضيق وأنه لولا ذلك لما تأخر عن عزيمته ، ولو في لابي الطيب بالذي وعده من فتح العراق . ولهذا لم يأت من سيف الدولة أحداً على هذا الكتاب الذي كتبه الى أبي الطيب ، فكتبه اليه بخطه حيلةً وحذراً أن يشيع ما ورد فيه . وقد أراد سيف الدولة في كتابه هذا ان يزيد ابا الطيب ياناً ولكنه لم يستطع خشية الاحداث التي لا يملك صرفها ، من وقوع هذا الكتاب في يد عدو من اعدائه ، ولذلك طلب من ابي الطيب ان يقدم عليه بالشام فيخلو به ، ويشرح له الامر في غير كناية ولا تعريض ، ولكن ابا الطيب كان قد فهم ما وراء كنايات سيف الدولة وإشاراته الخفية ، فكتب اليه

« فهمتُ الكتاب ، أبرَّ الكتبُ فسمعاً لأمرِ أميرِ العرب »

فهذا الذي أفضنا فيه دليل كله على أنه كانت بين سيف الدولة وأبي الطيب اسراراً سياسية تخصُّ أغراضهما وآمالهما في اعادة المجد العربي ، وإزالة الحكم الطاغين من الموالي ، ووقع الفتن التي قام بها العلويون والفاطميون في البلاد وهم لا يقدررون مغباتها هو عواقبها ، ولا يزنون أمرها إذ يتخذها أعداء العرب والاسلام ذرائع لقضاء ما ربههم في تمزيق الامة ، وتهريق شملها ، وإضاعة مجدها وسلطانها ، ليقيموا على انقاضها ما تسوله لهم أحقادهم وضغائنهم من الأوهام والأحلام



لِعَيْنِكَ ، ما يلتقي الفؤاد ، وما لتي
 وللحب . ما لم يبق مني ، وما بقي
 وأحلى الهوى ، ما شك في الوصل ربّه
 وفي الهجر ، فهو الدهر يرجو ويتقي
 سَقَى الله أيام الصبا ما يسرّها
 ويفعل فعل البايبيّ المعشوقِ
 إذا ما ليست الدهر مستمتعاً به
 نخرقت ، والملبوس لم يتخرق

قد رأيت قبل ان الحوافز التي اجتمعت على أبي الطيب من ^(١) اول امره الى عهد اتصاله بسيف الدولة ، انما كانت ترفقاً من القدر وتطريقاً وممهيداً للنبوغ الفذ الذي صار به صاحبنا شاعر العرب ولسان العربية الذي استحکم في عصره ، وضرب بحكمته على من كان قبله ، ومن أتى بعده . وقد ذكرنا من أداة نبوغه واسبابه ما تيسر لنا جمعه في هذه الكلمة ، إذ كانت الاشياء مرهونة بأوقاتها من المعاني ومنازلها من الكلام

ورأيت ان اتصاله بسيف الدولة نقل قلب الرجل من منزلة الى أخرى ، نقله من منزلة الاحساس الشخصي المتوحد ، الى منزلة الاحساس الشخصي المتولج في الاجتماع المزاجي في سياسته ، المؤمل في سيف الدولة ردّ السلطان الى العرب والعربية ، بعد الغلبة والظفر وتحقيق الاماني . وكان هذا سبباً في اتفاض قلب (الرجل الشاعر) بالفرح المستولي عليه والغالب على عواطفه ، ثم كان ايضاً ما استنبطناه مما سبب في هذا القاب اسباباً للالم والحزن والابتن والبكاء والحسرة ، فصار التنازع في هذا القاب بين الفرحة الغالبة والحسرة المتمكنة سبباً في استخراج مكنونات هذا القاب ، وتوليد المعاني الجديدة من الصراع الهائل الذي كان فيه . وبذلك خرج أبو الطيب عن طوره الاول المحدود بحده الى الطور الثاني المتفاسح المترامي الى كل غايات الحياة وأسبابها وما يكون فيها وما يكون منها

(١) كان حق هذا الباب ان يسبقه — في ترتيبنا — باب آخر ، ذكر فيه ما يميز به شعر ابي الطيب وتصل فيه اسلوبه كله على تدرج لا يفتاوت . ولكن منعنا من ذلك ضيق الوقت

وكان هذا الرجل الشاعر إنما يعتمد في توليد معاني شعره على استيعاب ما بنفسه من الافراح والآلام ، ما تقادم منها وما جدد ، ثم الاستغراق في تأمل هذه الذخائر التي في نفسه وردت بعضها الى بعض ، وربط الغائب منها بالشاهد ، وعطف الاول منها على الآخر ، كما كانت تترأى لعينيه حوادث قلبه وحوادث دهره ، وتردد في سمعه اصوات قلبه موصولة باصوات الناس وكلامهم ما قل منه وما عظم . وهذا الاستغراق في تأمل ما بنفسه هو احد الاسرار العظيمة في تصوير شاعريته ، وتسويتها وتنشئتها وتغذيتها وتسميتها الى الغاية التي هي عليها في شعره وقد يننا قبل ان من أداة هذا الشاعر العظيم ما أودعه الله فيه من الحس المرهف ، وما وهبه من العاطفة الملتهبة المتوقدة التي لا يجبو لها ضرام ، ورائحة كالتلك من جدته أو فطرة فطره الله عليها غير موروثية . وكان هذا الرجل في أول أمره مطالباً بثأر قد نشئ عليه ، وأخذ به من صغره ، حتى شغل فكره وعقله ، وتدقق في بنيانه كله تدقيق الدَّم ، وصار أصلاً من الاصول التي قامت عليها كل حالته النفسية — على ما ذكرناه أولاً ، وتدرجنا في بيانها إلى عهد اتصاله بسيف الدولة — وكان قد بلغ من العمر أربعاً وثلاثين سنة ، وهي السن التي تستحكم فيها الاصول ، وتستقر المذاهب ، ويقف الرجل عندها لا يملك في تبديل أمره حولاً ولا قوة إلا أن يشاء الله ، وخاصة من كان مثل المتنبى قد عركته الايام من صغره ومحاملت عليه ورمت به في سُورها حتى استوى على صورة بعينها ، واستمر مريره على ما فيه من القوة المستحصدة ، والمدة الدائبة الفورة والنزاع ، لا تستقر ولا تهدأ ولا تطمئن

هذا ، . . . وقد استوقفنا ونحن نتبّع شعر الرجل على طريقتنا ومذهبنا ، الفرق الكبير الكائن بين شعره الاول وشعره الذي قاله في حضرة سيف الدولة ، وتدبرنا الاسباب على ما يبسناه قبل ، فلم يستوعبنا أن يكون ذلك من أجل ما ذكرناه قبل وحسب ، فعدنا نجدد الرأي لذلك ، ونقرأ ما بين كلمات الرجل من المعاني ، ونستنبط من روائع حكمه وبلاغته ما يهينا الى السبب الاكبر في هذا التجويد الفذ الذي غلب به الرجل على شعراء العربية ، فاستروحنا في شعر الرجل نفحة من نفحات المرأة التي تكون من وراء القاب وتصنع للشاعر المبدع بيانها ، وتتخذ من فتها النسوي مادةً تسمتها لفن صاحبها وعبقريته ونبوغه . فأئمننا الامر على ذلك ورجعنا الى شعر أبي الطيب وما وقفنا عليه من أسرار نفسه ، ومثلنا المرأة بينهما وهي دائبة تصنع له بيانها ونهي ، له فنه فاستوى الامر على ذلك ، وطلبنا الدليل فدلتنا على المرأة التي سكنت قلب أبي الطيب — وهو في ظل سيف الدولة — وجعته حكيم الشعراء ، وشاعر الحكماء

كان صاحب الحكمة أبو الطيب يصنع حكمته بالتدبر في معرفة نفسه ، واستبطان أسرارها وإدراكها ، فلما جاءت المرأة ، وأرادت كبرياءه على الخضوع لها والتصرف بأمرها ، وقعت نفس

هذه المرأة بأسرارها وأحداثها بين نظرات أبي الطيب النافذة المتولجة إلى ما وراء الواقع والحس الملموس ، وبين نفسه بأحداثها وأسرارها وما انطوت عليه وما تجللت به . ولما كانت نفس المرأة المحبوبة هي تمام نفس الرجل المحب وتكملتها ، كانت دراسة الحكيم المحب لنفسه المكلمة التامة بالمرأة المحبوبة ، أما هي دراسة للكون كله ، فان العاشق لا يرى الدنيا بأسرارها الاً بعيني من يمشق ، وهي على ذلك الدنيا المترامية ، بعدان كانت قبل عشقه محصورة في دائرتها من نفسه الناقصة غير التامة . والحب القوي النافذ الذي يملك حواس المحب ويغلب عليها ، هو بطبيعته امتداد بهذه الحواس الى غايات بعيدة لم تكن تصل اليها قبل غلبته على القلب والنفس والفكر . فلهذا حين احب أبو الطيب — الرجل الثائر المتكبر الشاعر الحكيم البياتي الفكر واللسان — كان امتداد نفسه وتراميتها الى غايات بعيدة من الرجولة والثورة والكبرياء والحكمة والفكر ، ولم يستطع ان يكون — بعد ان غلب الحب قلبه وتواسح به — شاعراً غزلاً رقيق اليان . وهذا هو السر عندنا في ضعف مادة الغزل عند أبي الطيب ، وقوة مادة الحكمة وما اليها مما هو من طبيعته المتأصلة فيه على ما فصلناه في اتناء كلامنا . وليس يصح عندنا ان لا يكون ابو الطيب عاشقاً صباً متدلهاً ما لم نجد في شعره غزلاً ولا أنيناً وحنيناً وبكاءً

والآن ، وبعد هذه المقدمة ، نمين لك المرأة التي احبها ابو الطيب على ما يتفق لنا ^(١) ، إذ كان ترتيب هذا الموضوع من الكلام مما يستدعي النظر في اكثر شعر ابي الطيب وتقليبه على المذهب الذي اتخذناه ، فيخرج الامر من حده ولا تتسع له هذه الورقات

لما ماتت اخت سيف الدولة الصغرى وقف ابو الطيب يعزبه ويرثها ويسليه بقاء اخته الكبرى وذلك في يوم الاربعاء للنصف من شهر رمضان سنة ٣٤٤ فانشده قصيدته التي اولها

ان يكن صبرُ ذي الرذيثة فضلاً تكن الأفضل الأعرز الأجلأً
وطفق يمدح سيف الدولة بمناقبه مما يصلح لهذا الموضوع من العزاء الى ان قال
أين ذي الرقة التي لك في الحر باذا أسكركه الحديد وصلأً؟
أين خلفها غداة لقيت الـ رومَ والهامُ بالصوارم تفلتي
(قاسمتك المنون شخصين جوراً جعل القسم نفسه فيه عدلاً)
(فاذا قستَ ما أخذن بما غا دَرَنَ سرى عن الفؤاد وسلَى)
(وتيقنت أن حظك أوفى وتيقنت أن جدك أعلَى)

فابو الطيب يطلب من سيف الدولة ان يقبس اخته الصغرى التي ماتت الى اخته الكبرى التي بقيت

(١) اعلم اننا كنا نؤمل أن نكتب هذا الباب في حسين وجهاً من المقتطف أو اكثر ولكن حالت دون ذلك أحوال

له فاذا فعل ذلك كان سلوى له وتسرية لهم عن قلبه . ولا ندري كيف يتفق لشاعر يرثي امرأة ماتت ان يذكر اخرى — وتكون اختها — ويعزي اخاها بهذا العزاء الغريب ؟ ثم يزيد فيقول له انك اذا فعلت ذلك الذي دلتك عليه، « تيقنت » ان حظك في بقاء هذه الكبرى أوفى من حظ الموت في أخذ الصغرى ، وكيف يُعَيِّن أبو الطيب سيف الدولة من حسن حظه بقاء الكبرى إلا اذا كان هو على يقين من ذلك ؟ وكيف يكون على يقين من ذلك إلا وهو يعرفها معرفة تفضي به الى هذا اليقين ؟

ثم مضى أبو الطيب في القصيدة كلها بمدح سيف الدولة ولم يتعرض لهذه الفتاة اخته الصغرى إلا في موضع آخر إذ يقول

خطبة للحمام ليس لها ردٌّ وإن كانت المسماة تكلاماً
وإذا لم تجد من الناس كفتاً ذات خدرٍ أرادت الموت بعلاً

فالعجب ان يكون ذلك عزاء — فإن ابا الطيب قد قدم الكبرى في المنزلة ، فكان أولى اذن ان يموت الكبرى إذ هي ولا شك عند ابي الطيب — افضل من هذه الصغرى التي لم تجد من الناس كفتاً يكون لها زوجاً ، فاختارت الموت بعلاً لها . وهذا التناقض يدلنا على ان الرجل كانت قد اقرنت في عينه صورة الكبرى بصورة الصغرى فاضطرب قوله ولم يمض على سنين ونهج ، وذلك لاضطراب نفسه الذي اظهر ما في قلبه وكشف عنه في تدفقه حين ذكر هذه الكبرى فقال فيها البيتين « فاذا قست . . . الخ »

فلما ماتت الكبرى هذه التي ذكرها هنا — وهي خولة اخت سيف الدولة — في سنة ٣٥٢ اي بعد ذلك بسنوات ثمانٍ ، وكان أبو الطيب بالكوفة فورد عليه خبرها كتب الى سيف الدولة قصيدة فيها (٤٤) بيتاً ، منها واحد وثلاثون في ذكر خولة هذه ، وستة ابيات في ذكر الدنيا ونكدها ، ولم يذكر سيف الدولة الا في سبعة ابيات منها . هذا مع ان القصيدة التي رثي بها الصغرى ، لم يذكر فيها الصغرى مفردة الا في بيتين هما « خطبة للحمام . . . » ، وذكر الكبرى ومعها الصغرى في ثلاثة ابيات هي « قاسمك المنون . . . » ، وجعل بقية القصيدة وعدتها (٤٢) بيتاً في مدح سيف الدولة الا قليلاً في الحكمة والحياة

وكان الفرق بين القصيدتين بيتاً واضحاً لا خفاء فيه ، وكانت الثانية في رثاء خولة عاطفة قد اخذها الحزن وغابها البكاء . . . يقول أبو الطيب

يا أخت خير أخٍ ، يا بنت خير أبٍ
أجل قدرك أن تسمسي مؤبنةً
كناية بهما عن أشرف النسب
ومن يصفك فقد سماك للعرب
وادمعه ، وهما في قبضة الطرب
(لا يملك الطرب المحزون منطقهُ)

غدرت ياموت ، كم أفتيت من عددٍ
وكم صحبت أخاها في منازلة !
(طوى الجزيرة حتى جاءني خبره
حتى اذا لم يدع لي صدقه أملاً ،
تعثرت بك في الافواه السها ،
كان خولة لم تملأ مواكبها
ولم ترد حياة بعد تولية
أرى العراق طويل الليل مذ نعت
(يظن أن فؤادي غير ملتهب !
بلى ، وحرمة من كانت مراعية
ومن مضت غير موروث خلائقها
) ومهما في العلى والمجد ناشئة
(يعلمن حين تحيا حسن مبسمها
وان تكن خلقت أنثى ، فقد خلقت
) فليت طالعة الشمسين غائبة
(وليت عين التي آب الهاربها
) ولا ذكرت جيلاً من صنائعها
(قد كان كل حجاب دون رؤيتها ،
ولا رأيت عيون الانس تدركها
) وهل سمعت سلاماً لي ألم بها
(وكيف يبالغ موتانا التي دفنت
) قد كان قاسمك الشخصين دهرهما
(وعاد في طلب المتروك تاركه
ما كان أقصر وقتاً كان بينهما

من أصبت ! وكم أسكت من الجب !
وكم سألت فلم يبخل ولم تحب !
فزعت فيه بأمالي الى الكذب
شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي
والبرد في الطرق والاقلام في الكتب
ديار بكر ، ولم تخلع ، ولم تهب
ولم تنف داعياً بالويل والحرب
فكيف ليل فتى الفتيان في حلب ؟
وأن دمع جفوني غير منسكب !
لحرمة المجد والقصاد والادب
وإن مضت يدها موروثه النشب
وهم آرابها في اللهو واللعب
وليس يعلم إلا الله بالشنب
)

كرامة ، غير أنثى العقل والحسب
) وليت غائبة الشمسين لم تعب
(فداء عين التي زالت ولم تؤب
) إلا بكيت ، ولا ود بلا سبب
(فما قنت لها يا أرض بالحجب !
فهل حسدت عليها أعين الشهب ؟
فقد أطلت ، وما سلمت من كتب
وقد يقصر عن أحياتنا النيب
) وعاش دُرهما المفدي بالذهب
(إنا لتغفل ، والايام في الطلب
كأنه الوقت بين الورد والقرب

ولست تخطئ. فيما نرى ما تضمنته هذه الايات من القصيدة من العاطفة التي عطفته على هذه التي يرثها، وما يتوهج في ألفاظها من نيران قلبه، ولست تخطئ أنين الرجل وحينه وبكائه. ولا بد لنا هنا من بعض القول في آيات منها نشرح به أمر أبي الطيب على وجهه قد ذكرنا قبل ان الانتقال من معنى الى معنى في شعر أبي الطيب، هو الموضع الذي ينبغي لنا الوقوف عنده وتميزه والتبصّر في أوائله وواخره، إذ كان الانتقال في شعره هو الذي يعينك على الكشف عن اسرار قلبه ونفسه وحياته. فإذا شئت الآن فانظر الى انتقاله من قوله في مخاطبة الموت «وكم صحبت اخاها في منازلة!» الى ذكر ما أفزعه وكرهه، وهز نفسه وحزب فيها إذ يقول

«طوى الجزيرة حتى جاءني خبرٌ فرزت فيه بآمالي إلى الكذبِ»

«حتى إذا لم يدع لي صدقه أملاً شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي»

والرأي عندنا ان هذين البيتين هما اول ما قال ابو الطيب من القصيدة حين بلغه خبر موت خولة وهو بالكوفة ففرغ قلبه، واضطرب أمره وانتشرت عليه عواطفه. ففي البيتين أثر قلبه الفزع المضطرب، وعليها وسم من لوعته وحرقته

وقد غلب أبا الطيب يانه في هذين البيتين فصرح فيها بكل ما يضر لحولة من الحب. انظر كيف جعل الخبر يطوي الجزيرة كلها يقصده وحده دون غيره، وقد خصص ذلك بقوله «حتى جاءني» وفي هذا من غلبة الحب على قلب أبي الطيب ما جعله يرى أن هذا الخبر بموتهما — الذي سمعه وهو بالعراق — وكان قد علمه الناس ولا شك — لم يقطع أرض الجزيرة الا ليلغفه هو، والحب دائماً يخص ويضيق بمثل ذلك، ولا يرى فيه الشركة، ولو تساوى الناس جميعاً في المشاركة فيه أو العلم به. ثم إن أبا الطيب نسب الفزع الذي لحقه الى آماله، إذ كانت آماله كلها في الحياة بعد حبه لحولة متعلقة بها وبحياتها، فلما جاءه الخبر بموتهما فرزت آماله هذه أملاً أملاً إلى الشك في الامر الواقع وطلب الحيلة في رده وتكذيبه عسى ان تجد لها متعلقاً تستمسك به، فلما اخفقت الآمال أملاً أملاً وقطعها الخبر الذي سمعه بالصدق واليقين، سقطت نفس الرجل ولم تستمسك على رجولتها وقوتها وغرقت في دمعها حتى شرقت به. وهذه حالة في الحب القوي العنيف الذي يستولى على القلب، ولا يجعل للحياة بآمالها معنى إذا فقد من يحب او ساءه من امره ما يسوءه. فهذا من أبي الطيب دليل على ان كلامه هذا ليس كلام شاعر يرثي أخت صديقه وأميره، وانما هو كلام قلب محب مفجوع قد تقطعت آماله من الدنيا بموت حبيب قد فجعته المنية فيه ومثل ذلك في الدلالة على ما اصاب قلب أبي الطيب من الفجعة التي تخصه بموت خولة قوله «أرى العراق طويلاً الليل مذ نيت فكيف ليل فتى القتيان في حاب؟»

« يظن أن فؤادي غير ملتهب وأن دمع جفوني غير منسكب »
 فليس يطول الليل على شاعر من أجل اخت اميره، وإنما يطول عليه من أجل حبيته التي فاته
 بها الموت. ثم زاد أبو الطيب في الدلالة بقوله ان سيف الدولة يظن ان فؤاده غير ملتهب،
 وأن دمه غير منسكب، وما لسيف الدولة ولهذا؟ أيحِبُّ سيف الدولة ان يلهب قلبه وينسكب دمه
 من أجل اخته، أو يسوءه اذا لم يكن ذلك كذلك؟

هذا ولا نشك نحن — من قبل ما جمناه عندنا من الدلائل في هذا الامر المتعلق بحب
 أبي الطيب وخولة اخت سيف الدولة — في ان سيف الدولة كان على علم بما كان ينهما من
 المحبة الغالبة على امرها، وأنه كان قد وعد ابا الطيب عدة لم يف له بها في ان يزوجه اخته هذه،
 وكان ذلك سرّاً بينها اتصل بابي فراس الحمداني، فكان سبباً في العداوة الباغية بين الرجلين.
 ولولا علم سيف الدولة بذلك لما استباح أبو الطيب لنفسه ان يكتب هذه القصيدة الى سيف الدولة
 على كثرة الاشارات فيها الى امره وامر خولة والحب الذي ينهما: فمن ذلك غير ما ذكرناه مما
 يدل على الحب الذي ينهما دلالة واضحة لا تخفى على مثل سيف الدولة قوله

« ومن مضت غير موروث خلائقها وان مضت يدها موروثه النسب »

الايات الثلاثة، فقد ذكر أبو الطيب اخلاق خولة، ثم ذكر ما كانت عليه من علو النفس
 والهمة منذ نشأتها، ثم ذكر ابتسامها، وهذه كافية في الدلالة على معرفته خولة معرفةً صحيحةً
 عن خبرة و لقاء. وايضاً قوله

« ولا ذكرت جبيلاً من صنائعها إلا بكيت ولاودّ بلا سبب »

وهذا دليل على ما كانت تسبغ عليه خولة من صنائعها وفواضها مما يستجلب له البكاء حين
 يذكرها، وما نظن ان صنائع خولة عنده كانت تبلغ مشار صنائع سيف الدولة. ولكن حب
 أبي الطيب هو الذي جعل صنائعها من قابه بهذه المنزلة. ثم تدبر قوله « ولاودّ بلا سبب »،
 وفي رواية أخرى « بلا ودّ ولا سبب » وكان هذه الرواية يراد بها نفي أمر بعينه، كان
 الوشاة يكثرون القول فيه عند سيف الدولة مع علمه بالامر الذي ينهما، من ان صنائع خولة التي
 كانت تتخذها عند أبي الطيب لم تكن من أجل هذا الودّ، وإنما كانت من كرم نفسها وطيب
 عنصرها. ويكون المقصود بهذه الرواية غير سيف الدولة ممن كان يتزبد في القول ويتكذب
 عليه بما هو منه برائة. ولينفي التهم بذلك عن هذه التي كان يحبها ويمنحها قابه
 واذا شئت الزيادة فاقراً قوله

فليت طالعة الشمس غائبة

وتدبر البيت وما فيها من العاطفة . . . واقراً

وهل سمعت سلاماً لي ألم بها
ثم انظر الى هذا الالتفات الى الماضي الذي جعلناه من المذهب في الكشف عن أسرار أبي الطيب
إذ ذكر ما كان منه حين رثى أخت سيف الدولة الصغرى—من ذكر خولة هذه وذلك إذ يقول
قاسمك المنون شخصين جوراً
فعاد يقول في هذه

«قد كان قاسمك الشخصين دهرهما وعاش دُرُّهما المفديُّ بالذهب»
«وعاد في طاب المتروك تاركه، إنا لنغفل، والايام في الطلب»
وتدبر الصلة بين هذا وذاك، والحسرة المتميزة في قوله «إنا لنغفل»،
و «ما كان أقصر وقتاً كان بينهما»

وندع هذا الآن ونتقل بك في مواضع من الديوان على غير ترتيب، ل ترى أثر هذا
الحب في شعر أبي الطيب وفي حياته، وما أصابه وهو في ظل سيف الدولة من جراء هذا
الحب. وكان حق هذا الموضع من هذا الباب أن تتبّع لك حياة أبي الطيب سنة سنة، ونكشف
لك عن تدرّج هذا الحب في شعره وقصائده حتى تنتهي الى الغاية ولكن وقف المتنبي في
مجلس سيف الدولة ينشده قصيدته التي اولها

واحرّ قلباه ممن قلبه شيم ومن بجسمي وحالي عنده سقم
وقد زعموا ان سبب هذه القصيدة كان على ما قالوا «جرى له خطاب مع قوم
متشاعرين وظن الحيف عليه والتحمل» الى غير ذلك. وقد أتى المتنبي في هذه القصيدة بكل

عجيبية من القول في الكبرياء والحب لسيف الدولة والوعيد له كقوله

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأنني خير من تسعى به قدم

كم تطالبون لنا عيياً فيمجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم

وقوله في حب سيف الدولة

يا من يعز علينا ان نفارقهم وجدانا كل شيء بعدكم عدم

وقوله في انذاره

لئن تركن ضميراً عن ميامنا ليحدثن لمن ودعهم ندم

اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ان لا تارقهم فالراجلون هم

قالوا فلما انصرف ابو الطيب من مجلس سيف الدولة وقف له رجالة في طريقه ليقتلوه،
فلما رأى ابو الطيب ورأى السلاح تحت ثيابهم، سل سيفه وجاءهم حتى اخترقهم فلم يقدموا عليه،

ونمي ذلك الى ابي العشائر فأرسل عشرة من خاصته فوقفوا بباب سيف الدولة ، وجاء رسوله الى ابي الطيب . فسار اليهم حتى قرب منهم ، فضرب احدهم يده الى عنان فرسه ، فسل ابو الطيب سيفه ، فوثب الرجل امامه ، وتقدمت فرسه الخيل ، وعبرت قنطرة كانت بين يديه ، واجترأهم الى الصحراء ، فأصاب احدهم نحر فرسه بسهم فانتزع ابو الطيب السهم ورعى به ، واستقلت الفرس وتباعد بهم ليقطعهم عن مدد كان لهم ، ثم كر عليهم ، بعد ان فنى النشاب فلما يتسوا منه قال له احدهم في آخر الليلة نحن غلمان ابي العشائر فقال قصيدته التي مضت « ومنسب عندي الى من أحبّه » . ثم عاد ابو الطيب الى المدينة مستخفياً فأقام عند صديق له والمراسلة بينه وبين سيف الدولة ، وسيف الدولة ينكر ان يكون قد فعل به ذلك او امر به وكان ذلك في سنة ٣٤١ فلما رضي عنه سيف الدولة قال له قصيدة اولها

اجاب دمعي وما الداعي سوى طلل
هو ظل يسفح بين العذر والعذل
ظلت بين اصحابي أكفكفه
وظل يسفح بين العذر والعذل
أشكو النوى ولهم من عبرتي عجب
كذلك كنت وما أشكو سوى الكليل

ثم انتقل من هذا المعنى الى معنى غيره فقال

وما صباة مشتاق على أمل
من اللقاء كمشاق بلا أمل

وكأنه بهذا الانتقال يهون على سيف الدولة الامر ويذكر له أن هذا الحب الذي بينه وبين خولة كائن على غير امل . وأنه لا يطمع في ان يظفر بادراك امله من الزواج بها . ثم يدل على ذلك بما كان من الحادثة التي كاد يقتل فيها ، والتي تولى امرها ابو العشائر (وهو من قوم خولة) ، ويذكر لسيف الدولة ان اهل خولة ان يدعو ان يكون بينه وبينها صلة كما بلغه الوشاة فاتقل من معنى البيت الى قوله

« متى ترز قوم من تهوى زيارتها لا يتحفوك بغير البيض والاسل »

وهذه صفة ما لقي ابو الطيب في ذلك اليوم الذي رويناه لك ، فانظر الى هذا الانتقال الذي يدل دلالة واضحة على ما في ضمير الرجل ، وما كان من سبب تلك الحادثة التي كادت تودي بحياته ، ثم انظر الترفق في قوله « لا يتحفوك بغير البيض والاسل » وذلك لما بينه وبين ابي العشائر من المودة والحب ، فهو يجعل اداة القتل (نحفة) ، وقد قال لابي العشائر في هذه الحادثة نفسها اياتاً تدل على حبه له ، وتقرب اليك بيان هذا المعنى ، وقد مضى ذكرها ، ويقول له في آخرها

« فان كان يبغني قنأها ، يك قانلاً بكفبه ، فالقتل الشريف شريف »

وفي تلك السنة نفسها (٣٤١) يقول ابو الطيب ما نقلناه في رأس هذا الباب

« لعينيك ، ما يلتقي الفؤاد وما لقي وللحب، ما لم يبق مني وما بقي »

فعلى ما نذهب اليه من شدة تأثير الحوادث في ابي الطيب ونفسه ، واستخراجه معاني شعره من تلك الحوادث ، وهججه دائماً على ذكر الحوادث القريبة ، تجدد في هذه القصائد ما يشير الى هذه الواقعة وما لقي فيها من الكيد . والظاهر أن هذه الحفوة التي كانت في سنة ٣٤١ امتدت الى اوائل سنة ٣٤٢ ، وكان من جرائها ان انقطع ابو الطيب مدة عن مدح سيف الدولة فاستبطاه وتشكر له ، فركب سيف الدولة يوماً في رجاله ، وقدم عليه ابو الطيب راكباً مهراً ، فلما سلم عليه ازور عنه وأعرض فقال ابو الطيب

أرى ذلك القرب صار ازورارا وصار طويل السلام اختصارا
ركبتني اليوم في خجلة أموت مراراً واحيا مرارا
أسأرك اللحظ مستحيماً وأزجر في الخيل مهري سيرارا
واعلم أي إذا ما اعتذرت إليك ، أراد اعتذاري اعتذارا
كفرت مكارمك الباهرا ت ، ان كان ذلك مني اختيارا

ثم يذكر له العلة في ذلك الانتطاع عن مدحه فيقول

(ولكن سمى الشعر — الأ القليل — هم حتى النوم الأ غرارا)
(وما أنا أسقمت جسمي به ولا أنا أضرمت في القلب ناراً)
(فلا تلزم مني ذنوب الزمان الي أساء وإيتاي ضارا)

وهذا الهم الذي يسقم الجسم ويضرم ناراً في القلب ، ولا يملك له الانسان رداً ، لا يكون الا هذا الحب العنيف الذي تقطع دونه الأ مال ، ولا يكون هذا الهم الا ذلك ، فان ابا الطيب كان متمكناً بكل شيء في ظل سيف الدولة فقد كان صاحب اقطاع ومال كثير قد أسبغه عليه سيف الدولة وحسبك هذا من شعره وهو في جوار سيف الدولة ، ثم انظر الى أثر هذا الحب في شعره بعد فراق سيف الدولة ، فانه أدل وأبلغ في الكشف عن سرّ قلبه . ولا بأس في ان نسر ذلك ذلك على ما وقع في ترتيب ديوانه

فن آثار هذا الحب في شعر ابي الطيب ، ما وقع في القصيدة الاولى التي أنشدها كافوراً في جمادى الآخرة سنة ٣٤٦ حين قدم عليه بالفسطاط . وقد رأيت قبل أن نال ما تعرض لعاطفة ابي الطيب في شعره الى ان اتصل بسيف الدولة ، فإذا انت عدت الى شعره في ذلك العهد الاول لم تجد فيه الا قسوة وشدة وغفلاً ليس لشعر ، ولما لان الرجل او ترقق الا متكلفاً للنزل . وكان قد فارق قبل سيف الدولة رجالاً احبهم وصحبهم وبأذهم مكنون صدره من الود ، ولم يظهر في شيء من شعره بعد فراقهم اثر لهذا الفراق الا قليلاً قليلاً . ولكنه حين فارق سيف الدولة

ودخل مصر ظهرت في شعره رقة لا عهد له بها ، ولا تكون العلة في هذه الرقة التي ظهرت فيه بعد ان جاوز الاربعين ، واستجكم واستمر مريره ، واستوت طبيعته على طريقة من القوة والتشدد والاستمساك — من أجل فراقه سيف الدولة وحسب ، فان ذلك الفراق بين (الرجلين) لا يعمل في تغيير الطبيعة المتأصلة كل هذا العمل . وليس لشيء من العمل في تغيير الطباع وتبديلها مثل ما للحب في القدرة على ذلك . وكان أبو الطيب حين فارق سيف الدولة ، بتلفت قلبه الى تلك التي خلفها من ورائه ، وخلف عندها قلبه وعواطفه ، فأنار ذلك في قلبه ذكرى وآلاماً ، جعلت الدنيا تضيق بها نفسه وتضجر منها ، فكان أول ما لقي كافوراً لقيه بالبيت الذي عدّه الادباء والنقاد من سوء أدب المتنبى ومن جفائه وغلظته ، وليس الامر على ذلك ، فان الرجل لم يكن جافياً ولا غليظاً ولا سيئ الادب ، ولا ضيف البيان ، ولكنه كان كما حدثناك مرهف الحس ، تغلبه العاطفة على أمره فلا يملك لبيانه تصريفاً ، وتصرف عاطفته هذا البيان كما شاءت والعاطفة لا تعرف أميراً ولا كبيراً ، ولا تفرق بين لقاء الملوك ولقاء الصالحين ، فلذلك رمى في وجه كافور بهذا

كفَى بك داء أن ترى الموت شافياً وحَسْبُ المنايا أن يكنَّ أمانياً
تمنيتها لما تمنيت أن ترى صديقاً فأعيا أو عدواً مداحياً
ثم يمضي أبو الطيب على طريقته حتى يرق رقة ، لو انت قلبت ديوانه كله لم تجد لها شيئاً ولا مثيلاً ، وذلك قوله في خطاب قلبه ، ذلك القلب الذي حطم فيه فراق خولة ، وهد بنيان رجولته وقوته
(حسبتك قلبي ، قبل حبك من نأى ،^(١)
(وأعلم أن البين يشكك بعمده ،
(فإن دموع العين غدُر بربها
إذا الجود لم يرزق خلاصاً من الأذى
وللنفس أخلاق تدل على الفتى
(أقول اشتياقاً أيها القلب ، ربما
(خلقت ألوفاً ، لو رجعت إلى الصبي
وقد كان غداً راء ، فكن أنت وأفياً)
فلمست فؤادي إن رأيتك شاكياً)
إذا كنَّ إثر الغادين جوارياً)
فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقياً
أكان سخاء ما أتى أم تساخياً
رأيتك رصني الود من ليس صافياً)
لفارقت شبي موجه القلب باكياً)

فأقرأ الايات وتدبرها ، وانظر في خطابه قلبه — على غير عادته — خطاباً رقيقاً متهدداً ذا زفريات ، وانظر اضطراب امره بين قلبه وفكره ، وبين عاطفته ورجولته ، يقول لقلبه : « لست فؤادي ان رأيتك شاكياً » ثم يعود فيقول « خلقت ألوفاً . . . » فليس في الايات حبه لسيف الدولة وحسب بل فيه نفحات من لوعة الحب الذي يستولى على القلب : حب المرأة التي

(١) يريد بهذه الكناية (سيف الدولة)

يهجرها الرجل وهو يعلم يقيناً انه لا يهجرها وإنما يهاجر قلبه الذي بين جنبيه ويماعده ويراغمه . هذا وقد ظهر نفس هذا الأثر في كثير من شعر المتنبي ، ظهر في حكمته ظهوراً يئناً وذلك كقوله

ليت الحوادث باعني الذي أخذت مني ، بحلمي الذي أعطت وتجربتي
فما الحدائمه من حلمٍ بمانعةٍ قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

وهذا القول ليس من مذهب المتنبي في كلامه الاوّل الى فراقه سيف الدولة ، ومثل ذلك قوله

أودُّ من الايام ما لا تودُّه وأشكو اليها (يَسْتَبِنَا) وهي جندهُ
(يباعدن حِيناً يجتمعن ووصله فكيف بحبٍ يجتمعن وصدّه !؟)
(أبي خَلِقُ الدنيا حَيِّياً تُدِيعه فما طلبي منها حَيِّياً تردّه)

ثم تلفت المتنبي الى ما كان من فراقه خولة ومهاجرتها مراغماً لقلبه ، متكلفاً الصبر والجلد فقال في عقب ذلك

(وأسرع مفعول فعات ، تغيّراً تكلف شيء في طباعك ضده)

وكان ابو الطيب يظن ان في الفراق ما ينسيه خولة ويمحو من قلبه آثارها ، وقد فارق ، وعلم ان ذلك لن يكون ، وان ما كان من اندفاعه ومراغمته عند اول الفراق إنما كان أمراً يخالف طبيعة حبه التي وصفها في شعره قبل وهو عند سيف الدولة بقوله

إلأم طماعية العاذل ولا رأي في الحب للعائل
(يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل)

هذا واذا انت اخذت في دراسة شعره في المدح والحكمة في هذه الفترة ، وجدت آثار هذا الحب الذي انقطعت منه آمال اللقاء والنظر والابتناسمة والتلطف ، وما رمى في قلب ابي الطيب من الكمد والحسرة والاسف والحين ، فأصبح كلامه وبيانه من تلك العواطف اليائسة التي انطوى عليها قلبه ، واضطرب بها ضميره وفكره ^(١) ، وبذلك يميز شعره في هذا العهد عن شعره فيما سبقه وتبان عنه تبايناً عظيماً

ويقول ابو الطيب يذكر فراقه سيف الدولة ومقدمه على كافر

فراق... ، ومن فارقت غير مذمّم
وما منزل اللذات عندي بمنزل
سجينة نفس لا تزال مليحة
(رحات... فكم بالك بأحضان شادن

وأأم... ، ومن يمت خير ميسم
إذا لم أجدل عنده وأكرم
من الضمير ، مرهيباً بها كل مخرم
علي!! وكم بالك بأحضان ضيغم!!^(٢)

(١) سيكون بيان ذلك تفصيلاً في بيت بيت وأصيدة وأصيدة في موضعه من كتابنا عن ابي الطيب ، ونستدر عن ذلك هنا ، لما ترى من تشعب الموضوع وسعته ، وما يقتضي من الوقت

(٢) الشادن ولد الغزال ، يريد به المرأة الغريبة الحسنة ، والضيغم الاسد

(ومارئة القُرطِ المليحِ مكانهُ ، بأجزعَ من ربِّ الحسامِ المصمِّمِ)
 (فلو كان ما بي من حيبٍ مقنَّعٍ - عذرتُ ، ولكن من حيبٍ معممٍ)
 (رعى، واتقى رمي، ومن دون ما اتقى، هوَى كاسرٌ كفي ، وقوسي، وأسهمي)

فهو بالبيت الاول قد عين من أراد بهذه القصيدة . فالذي فارقه هو سيف الدولة ، والذي قصدهُ ويمه هو كافور وعلى ذلك اتفق الشراح جميعاً ، فلما أتى البيت الرابع قال « رحلت » يعني رحلته عن حلب، ثم ذكر بعده ما كان من جراء هذا الفراق وأبان عن الذي كان سبباً فيه، وقابل في ذلك بين اثنين رجل وامرأة . فذكر باكية تبكي على فراقه بعيني غزال ، وبالكيا يبكي بعيني أسد ، وجازعة لفراقه زينتها قرطها الذي في أذنها ، وجازعاً زينته حسامه ، وقد اتفق الشراح ايضاً — ولا شك فيما قصده ابو الطيب — على انه قصد سيف الدولة بقوله « ضيغم » وقوله « رب الحسام المصمم » . والمقابلة بين سيف الدولة وهذه المرأة دليل على صلتها بسيف الدولة وأبي الطيب ، ومعرفة سيف الدولة بهذه الصلة ، ولا نشك بعد ما رأيت انه عنى بالبائية الجازعة لفراقه « خولة » اخت سيف الدولة ، ثم قال بعد « ولو كان ما بي من حيب مقنَّع عذرتُ » وصبرت على ما يصيبني منه لحي اياه ، والاذى من المرأة المحبوبة ينزل من قلب المحب منزلة الرضا، فهو لا يحمل على فراق ولا بين . ولكن الذي حملني على الفراق كون هذا الاذى انما اصابني « من حيب معمم » هو سيف الدولة . ثم صرح في البيت الاخير ميناً عن هواه فقال ان سيف الدولة رماه بسهمه (يريد الاذى الذي اصابه منه) ، واتقى بدرعه ان يرميه ابو الطيب بسهم مثله، وهذا الاتقاء من سيف الدولة عمل لا محل له ، إذ كان يعلم يقيناً ان ابا الطيب لن يرميه جزاء له كما رماه ، لما في قلبه من حب خولة اخته وهو اها الذي يحبس يده ويكسر كفه ، ويحطم قوسه ، ويدق سهامه

هذا . . . وقد رووا ان ابا الطيب اتصل به وهو بمصر ان قوماً نعوه في مجلس سيف الدولة بحلب فقال قصيدة يذكر ذلك ولم ينشدها كافوراً ، وكان مما جاء في أولها قوله

بم التعلل...؟! لا أهل، ولا وطن، ولا نديم، ولا كأس، ولا سكن
 أريد من زمي ذا أت ييلغني ما ليس ييلغني من نفسه الزمن!!
 لا تلق دهرك إلا غير مكترث ما دام يصحب فيه روحك البدن
 فما يُديم سرور ما سُررت به ولا يردُ عليك الفاتت الحزن
 (مما أضرَّ بأهل الشق أنهم هووا وما عرفوا الدنيا، وما فطنوا)
 (تفنى عيونهم دمعاً وأنفسهم في إثر كل قبيح وجهه حسن)
 تحملوا... حملتكم كل ناحية، فكل بين علي اليوم مؤتمن

(ما في هوا دجكم من مهجتي عوض^١ إن مت شوقاً، ولا فيها لها ثمن^٢)
 يا من نيت^٣ على بعد^٤ بمجلسه^٥ كل^٦ بما زعم الناعون مرتين^٧
 كم قد قنات^٨، وكم قد ميت^٩ عندكم!! ثم انتفضت فزال القبر والكفن
 وفي هذه الايات عندنا قول كثير نوجزه ونمدد منه أطرافاً تنفادي الإطالة...، ففي
 الايات الاولى تأخذ عينك أثر الاحزان التي كانت في قلب الرجل متمثلة مصورة في شعره .
 وتدبر عبارته عن آلامه بقوله « بيم التعلل »...!! وهذا السكون الذي يعقب استنهامه وتعجبه ،
 فهو بيان في غير لفظ ، ثم يعود الى القول فيقول « لا أهل^{١٠} ولا وطن ، ولا نديم ، ولا كأس
 ولا سكن^{١١} » . فقد كان بمصر وليس بها أحد يسكن اليه الا ولده محسد ، وهو مهاجر لا وطن
 له ، وهو بمصر غريب لا صديق له ولا نديم ، وقد سئمت نفسه كل شيء حتى الكأس من الحمر
 لا تسايه ولا تحركه ، ثم تم ذلك بلوعة قلبه إذ فقد سكنه وحيبه الذي يسكن اليه ويأوي . ثم
 مضى يتقل في المعنى حتى انتقل من تجلده تارة ومن احزانه اخرى الى الداء الذي يسلب قلبه
 ويسقمه فقال منتقلاً على عاداته التي يتبناها قبل

مما أضرت^{١٢} بأهل العشق أنهم^{١٣} هووا ، وما عرفوا الدنيا ولا فطنوا

إوهو بيان عن نفسه وما يحز فيها من آلام (خولة) ، وما لقيه بعدها من
 الاضطراب بين رجولته التي تأتي ان تخضع أو تضعف ، وبين عواطفه التي تأتي الا ان تخضع
 لخولة ، وتبعب بذكرها وهواها وآلام حبا. وكان من جراء هذا الاضطراب أن أنكر (الرجل)
 قلبه ، وقسا عليه وتغنى به ، ودم له هذه التي قد تولته بها ، وهي التي أضرت به وأشقت
 وعذبت ، سفهاً وجهلاً منه اذ اراد ما لا يكون ، ولا تأتي به الاقدار ، ولا ترضى به التقاليد
 الاجتماعية في هذه الدنيا ، كما ذكر في البيت الماضي ، فقال في عقب ذلك معانداً ومراً عما لما في قلبه
 « تفنى عيونهم دمعاً ، وأنفسهم في إثر كل قبيح وجهه حسن »

يرحمك الله يا أبا الطيب . . . ثم انطلق يعاند قلبه ، ويذم له خولة ، ولا ذنب لها الا ما
 تكلفه هو بالفراق ، وإرادة نسيانها ، « وتأتي الطباع على الناقل » أن يكون ذلك . ثم انظر
 خطابه بعد لسيف الدولة بقوله

يا من نيت^{١٤} على بعد^{١٥} — بمجلسه^{١٦} كل^{١٧} بما زعم الناعون مرتين^{١٨}

فوربك إني لأخال أبا الطيب قد قال هذا البيت وهو يبكي ، فإن في الشطر الاخير عبارات
 من دمه لا تزال تجول فيه وتترقق . فكل ذلك آثار يئنة على انتقال طبيعة أبي الطيب من
 تكبرها وعتوها وزمئتها الى حالة نفسية طارئة قد قذت فيه آلامها وأهوالها . فهو يعاني منها
 ما يعاني ، ويضطرب لها ويهز ويتلذع ، حتى كان شعره بعد فراق سيف الدولة كثير الشكوى ،

مخالطاً بالحزن والحسرة والألم، وقد تنبه الى ذلك أبو الطيب نفسه فقال في قصيدة من مدائمه لكافور
 لحى الله ذي الدنيا مناخاً لراكب ! فكل بعيد المهم فيها معذب
 (ألا ليت شعري ، هل أقول قصيدة فلا أشكي فيها ولا أتعب ؟ !)
 وبني ما يذود الشعر عني أقله ولكن قلبي ، يا ابنة القوم ، قلب)
 وهذا الذي به مما يذود عنه الشعر ويعنقه من أن يقوله ، هو الذي ذكره أولاً فيما تقدم
 ولكن حمى الشعر — إلا القاييل — هم حمى النوم إلا غراراً
 وما أنا أسقت جسمي به ولا أنا أضمرت في القلب ناراً
 وهو حب (خولة) الذي ملأ قلب الرجل وأخذه وقرّده به دون فكره وإرادته

..... فلما ماتت خولة رحماً الله في سنة ٣٥٢ بعد خروجه من مصر ، تغيرت طبيعة
 أبي الطيب واسودت الدنيا في عينه ، وامتلاً قلبه حزناً ، وتقطعت نفسه عليها حسرات ، فكان
 شعره بعد من هذه المادة ، وأول ذلك ما كان من شعره في القصيدة التي رثاها بها اذ يقول لسيف الدولة

فلا تلك الليالي !! إن أيديها إذا ضربن كسرن السبع بالغرب
 ولا يعين عدواً أنت قاهره فانهم يصدن الصقر بالحرب
 (وإن سررن بمحبوب فجعن به وقد أنتنك في الحالين بالعجب)
 (وربما احتسب الانسان غايتها وفاجأته بأمر غير محتسب)
 وما قضى أحد منها لباته ولا انتهى أرب إلا الى أرب
 تخالف الناس حتى لا اتفارق لهم الأعلى شجب ، والخلف في الشجب
 فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب
 ومن تفكر في الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب

وأعد قراءة الايات الثلاثة الاخيرة وتدبر نفس ابي الطيب فيها ، فهو يكاد ينقطع ويسقط
 من العجز والتعب والفكر في الذي أصابه بموت حبيبته خولة . فاذا اردت ان تعرف تمام حالة
 ابي الطيب هذه ، وامتداد فكره فيها فاقرأ قصيدته التي قالها حين توفيت عمه عضد الدولة بن بويه
 في سنة ٣٥٤ والتي يقول فيها

نحن بنو الموت ، فما بالنا نه أف ما لا بُدَّ من شربه !!

لو فكر العاشق في منتهى حسن الذي يسببه لم يسببه
 وبقي كثير من الاشارات الى هذا الذي في قلبه ، طويناه حتى يأتي أجله ، والله المستعان

يارجاء العيون في كل أرض
 لم يكن - غير أن أراك - رجائي
 ولقد أفتت المفاوز خيلي ،
 قبل أن نلتقي ، وزادي ومائي
 فارم - بي حيث شئت مني ، فأني
 أسد القلب آدمي الرؤاء
 وفؤادي من الملوك ، وان كا
 ن لساني يُرعى من الشعراء

قد ذكر الرؤاة في موضع القول من فراق أبي الطيب حضرة سيف الدولة أساباً موجية لهذا الفراق ، كالذي يروون من أنه كان بحضرة سيف الدولة، وفي المجلس أبو الطيب اللغوي، وابن خالويه النحوي ، وجرت مسألة في اللغة بين أبي الطيب اللغوي وابن خالويه ، فتكلم أبو الطيب المتنبي ، وضمف قول ابن خالويه ، فأخرج ابن خالويه (من كنه مفتاحاً من حديد) يشير به إلى المتنبي ، فقال له المتنبي : ويحك ! اسكت ، فانك أعجمي ، وأصلك خوزي ، فمالك والعربية ! فضرب ابن خالويه وجه المتنبي بذلك المفتاح فأسال دمه على وجهه وثيابه . فغضب المتنبي من ذلك ولاسيما إذ لم ينتصر له سيف الدولة ، قولاً ولا فعلاً ، فكان ذلك أحد أسباب مفارقتة لسيف الدولة . وكالذي يروون من كيد أبي فراس له عند سيف الدولة يمثل قوله له : « إن هذا المتشدد (يعني المتنبي) كثير الإِدلال عليك ، وانت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد . ويمكن أن تفرق مئتي دينار على عشرين شاعراً يأتيون بما هو خير من شعره ، فتأثر سيف الدولة من هذا الكلام وعمل فيه » فأعرض عن أبي الطيب لذلك فهذه الروايات وغيرها — كما حدثناك قبل^(١) — هي من الاحاديث التي تتناقها مجالس الادباء ، ولا يراد بها التحقيق ، ولا ينظر فيها إلى صدق الرواية وسياق التاريخ وما إلى ذلك ، ولكننا نستفيد منها على علاقتها ، ونأخذ منها وتدع ، ولا نطيل القول هنا بفقدتها وتجزئتها ، فلذلك أحله وموضعه ان شاء الله

والرأي عندنا ان فراق أبي الطيب لسيف الدولة مشكلة معقدة بطول تفسيرها وتبيانها على وجه معقول لا يتناقض ولا يختاف. ومختصره ان هذا الفراق كان لاسباب قد اقتضاها حب أبي الطيب خولة أخت سيف الدولة. وتبي أبو الطيب في جوار صاحبه وحييته يتلذع بآلام قلبه وفكره تسعة أعوام مجرّمة، وهو على عدة من سيف الدولة ان يحقق آمال فكره السياسية، وأمانى قلبه وعواطفه بزواج خولة، ثم أدركه اليأس وظن أن في الفراق راحة له ونسياناً، وهو ما أشار إليه في قوله — على ما فسرناه به (١)

« وأسرع مفعولٍ فعلت تغيّراً تكلف شيء في طباعك ضده »
وقد حمته على ذلك ما كان يلقاه من الكيد والسعاية من قبل (قوم) خولة، كأبي فراس وأبي العشائر وغيرها، وما فعلوه من تحريض الاديباء عليه كابن خالويه، واغراء الشعراء بغيظه ومنافسته والنيل منه حتى ضاق بهم فاستعدى عليهم سيف الدولة بمثل قوله

أزل حسد الحساد عني بكتبهم فأنت الذي صيرتهم لي حسداً
(إذا شدّ زندي حسن رأيك فيهم ضربت بسيف يقطع الهام مغمداً)
(وما أنا إلا سمهري حمله فزيّن معروضاً وراع مسدداً)
وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
فساربه — من لايسير — مشهراً وغنى به — من لا يغني — مفرداً
(أجزني إذا أنشيدت شعراً، فانما بشعري أتاك المادحون مردداً)
(ودع كل صوت غير صوتي، فاني أنا الطائر المحكي والآخر الصدى)

وقوله أيضاً في ذلك

أني كل يوم تحت ضيبي شوبير ضعيف بقاويتي قصير بطاول

وقد بين في هذه الايات ايضاً عن وشايات وسعايات كان يكاد بها لدى سيف الدولة من الطعن في نسبه، والشهير به في خلقه وضميره
أنا السابق الهادي الى ما أقوله
(وما لكلام الناس فيما يرييني
أعادى على ما يوجب الحب للفتى
سوى وجع الحساد داوٍ، فانه
إذ القول قبل القائلين مَقول
أصول، ولا للقاتليه أصول)
وأهدأ والافكار في تجول
إذا حلّ في قلب فليس يجول

ولا تطعمن من حاسد في مودة وإن كنت تبديها له وتبيل^١
 وأنا لنتقى الحادثات بأنفس كثير الرزايا عندهن قليل
 يهون علينا أن تصاب جسمونا وتسلم أعراضنا لنا وعقول^٢
 وقد كان يتولى امر هذا الكيد كله أبو فراس الحمداني، وعندنا ان المنافسة في الشعر لم
 تكن هي السبب، وإنما كانت (خولة) السبب الأكبر الذي جاب عليه كيد أبي فراس، ثم أبي
 العشائر — مع أنه هو الذي قدمه الى سيف الدولة وقرّبه اليه على ما يقولون: وقد بلغ من
 ذلك أن أغرى أبو العشائر غلمانة بقتله، وقد رأيت قبل أن أبا الطيب على ذلك لم ينقص حبه
 لأبي العشائر ولا ضعف. وهذا لأن الأمر لم يكن منافسة في شعر أو غيره، وإنما كان غيرة
 من أبي العشائر على بعض حرمة، وأبو الطيب كما حدثناك في موضع كان يضع (الرجولة)
 وتوابها في المنزلة الأولى، ومحجب من عدوه أن يستمسك بعروتها، فلذلك لم يحقد على أبي
 العشائر حين أخذته الغيرة على حرمة، بل ازداد تعطفاً عليه وتلطفاً له، على تكبره وتعاليه
 وعتوه، حتى قال له

(ونفسي له — نفسي الفداء لنفسه — ولكن بعض المالكين غيف)
 فان كان يبني قتلها، يك قاتلاً بكفّيه، فالقتل الشريف شريف

وبهذا يصبح لفراق أبي الطيب لسيف الدولة معنى يُعقل ويعتمد عليه ويمتدُّ به، ثم تنسق
 حالته النفسية الظاهرة في شعره، وتتساقق معاني ديوانه متدرجة على أساس من نفسه وآلامها
 وآمالها وأشواقها، وما أصابها من الكيد والعدوان، وما منيت به من حرقة الحب، ولوعة الحرمان
 خرج أبو الطيب من حلب حيث كان سيف الدولة قاصداً دمشق، وقد احتال لذلك حتى تم
 له الفراق قبل ان تدركه مكيدة أبي فراس وأصحابه وذلك في اواسط سنة ٣٤٦. وكان يحمل
 بين جنبه قلباً ممزقاً قد اعتورته السهام او كما قال

رماني الدهر بالارزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
 فصرت اذا أصابني سهام تكسرت النصال على النصال
 وهان... فما أبالي بالرزايا لاني ما انتفعت بأبأبالي

فهو قد أصيب في آماله السياسية، وأصيب في هوى قلبه، وأصيب في محبة سيف الدولة، وما
 كان يضمر له من الاخلاص والتوقير والود، فانطوى على ما به، محزوناً ضجراً ملولاً، يتبرّم
 بالدنيا ويضيق بها وبأهلها ذرعاً. فلما وافى دمشق ودخاها، كان بها رجل يهودي من قبل كافور،
 كان أبو الطيب يستنقل ظله على قلبه، وكان قد لقيه قبل في سنة ٣٢٧ حين نزل على صاحبه أبي

علي (هرون بن عبد العزيز الاوراجي) الكاتب ، فسوّلت نفس هذا اليهودي لارادته ورغبته ان يحمل ابا الطيب على ان يمدحه بعد ان مدح أمير الامراء سيف الدولة ، وتقذّر ابو الطيب هذا اليهودي وغثيت به نفسه ، فسكّنها بالاعراض عنه وازدرائه والهاون به ، فغضب اليهودي (ابن ملك) غضبة يهودية ، حتى اذا ما كان من كافور ما كان ، من مكاتبته في طلب ابي الطيب ان يقدم عليه ، فعلم ابن ملك ، وكتب الى كافور ان ابا الطيب قال : « لا أقصد العبد ، وان دخلت مصر فما قصدي الا ابن سيّده ». ثم ضاقت دمشق بأبي الطيب ، فخرج منها يريد صاحبه الامير ابا محمد الحسن بن عبيد الله بن طنج بالرملة الذي مدحه في سنة ٣٣٦ كما قدمنا ، فاستقبله وانزله منزلاً كريماً وحمل اليه الهدايا النفيسة ، وخلع عليه الخلع الفاخرة ، وحمّاه على فرس بموكب ثقيل ، وقلده سيفاً محلياً ، جزاء لما كان مدحه به اولاً ووفاء بالصحة . فكان كافور يقول اذ ذاك لاصحابه « أترونه يبلغ الرملة ولا يأتينا !! ». وبلغ ذلك ابا الطيب ، وأن كافوراً يمجّد عليه في نفسه ، ان يقصد عماله (كابن طنج) ولا يقصده ، وأتت ابن طنج كتب كافور في طلب ابي الطيب ، وكان ابن طنج فيما نرى رجلاً بصيراً داهية مترفعاً حلّو اللسان مطاع الرغبة ، فأخذ يرآود ابا الطيب ، وأبو الطيب يتعسر عليه ويضيق بطلبه ، لما تحمل نفسه من الضجر والتبرم ، وبعد لأي ما ظفر به الامير ابن طنج وحمّاه على المسير الى كافور . فلما قدم عليه امر له بمنزل ووكّل به جماعة ، واظهر التهمة له ، وطالبه بمدحه فلم يمدحه ، فخلع عليه الخلع حتى أخرج به بكرمه ، فلم يمجّد ابو الطيب الذي يقول

« ومن وجد الاحسان قيّداً قيّداً »

بداً من ان يحمل نفسه على مدح هذا الأسود الخصي ، عله يصيب عنده ما فاته عند غيره من الفحول البيض . وعزى نفسه بذلك ، ولكنها أبت عليه ان تكون خالصة لكافور ، فرمت في وجه كافور بأبياتها لا أبيات ابي الطيب

كفي بك داء أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن يكن أمانيا
تمنيها لما تمنيت ان ترى صديقاً فأعيا ، او عدواً مداحيا

واستقبال كافور بهذين البيتين هجاء دونه كل هجاء فيه اقتذاع وفحش وسخرية وهمك . وبقي ابو الطيب بعد ذلك بمصر بمحتمل لامره ، ولا يزال ينفث في كل شعر ذات صدره من الآلام والامال ، والتقى على شعره ظلا من الحزن والفجيمة والحسرة واليأس . ولكنه كان مع ذلك يجتهد في ان يظفر من كافور بولاية من الولايات يقوم عليها ليحرب نفسه بعد ان أخفق في عقد أماله على غيره . وكان ابو الطيب حين خرج من حلب ، خرج ومعه الخالديان (أبو عثمان سعيد بن هاشم وأخاه محمد) . وكانا يريدانه على أن يصحبهما الى العراق ، فيمدح الوزير ابا محمد المهلب ،

فأبى عليهما وخالفهما، فذلك حيث يقول أبو الطيب يذكر ما كان من أمره وأمرهما، ويعرض
بحاجة نفسه لكافور

وفي النفس حاجاتٌ وفيك فطائفةٌ سكوني بيانٌ عندها وخطابُ
وما أنا بالباغي عن الحبِّ رشوةً، ضيف هوَى يسغى عليه ثواب
(وما شئت إلا أن أدلَّ عواذلي على أن رأيت في هواك صواب)
(وأعلم فوماً خالفوني، فشرقتوا وغرَّبت، أبي قد ظفرت وخابوا)^(١)

(إذا نلت منك الودَّ، فالمال هينٌ، وكلُّ الذي فوق التراب ترابٌ)
وما كنت — لولا أنت — إلا مهاجراً له كلُّ يومٍ بلدةٌ وصحابٌ)

ولم يكن أبو الطيب يؤمِّل من كافور ماله أو عطايه أو هداياه، فقد كان غنياً بما أعطاه سيف الدولة،
أو ما ادخره من عطائه وإقطاعه الذي كان له بالشام،^(٢) بل كان يريد أن يلي بعض بلاد الصعيد،
أو صيداء كما ذكروا، وذلك ليحقق ما استطاع آماله السياسية التي تتراعى إلى غاياتها التي قدمناها
قبل. وقد زعموا أن كافوراً قال له حين ذكر حاجته: « أنت في حال الفقر وسوء الحال وعدم
المعين، سمت نفسك إلى النبوة، فان أصبت ولايةً وصارك أتباعٌ فمن يطيقك ». وهذا من
كلام الرواة وحسب... والذي زاه رأياً أن كافوراً كان يعلم يقيناً أن أبا الطيب لا يضر
له حباً ولا كرامة، بل كان يزدرية في نفسه، وحسبه ما لطمه به في أول لقاء كما مرَّ بك،
وحسبه ما كان يذكر في مدحه له من الحنين إلى سيف الدولة وندمه على فراقه كقوله

أرى لي بقربي منك عيناً قريرة وإن كان قريباً بالبعاد يشاب
وأبين تعريضاً وأبلغ إفصاحاً عن حقارة هذا الأسود في نفس أبي الطيب ما يقول له في أول مدح
أغالبُ فيك الشوق، والشوقُ أغلبُ وأعجبُ من ذا الهجر، والوصلُ أعجبُ
والضير في قوله (فيك) يرجع إلى سيف الدولة، ويريد بالهجر مفارقه سيف الدولة،
وبالوصل مقدمه على كافور، ثم يزيد فيقول بعد

أما (تغلظ) الأيام فيَّ بأن أرى (بفيضاً) دنائي، أو (حياءً) تُقرَّبُ
ولله سيرى، ما أقلَّ تهيئةً عشيةً شرقيَّ الحدالِ وغربُ
عشية أحق الناس بي (من جفونه) وأهدى (الطريقين) التي أنجبُ

(١) يعني بالشرقي الذهاب صاحبه إلى العراق قصدين المهلب، والتغرب مقدمه هو على مصر لمدح كافورا

(٢) يدكرون أن سيف الدولة تقدم إلى (دوان البر) بأخراج الحال فيما وصل به أبو الطيب المتني

نفرجت بحمسة وثلاثين ألف دينار في مدة (أربع سنين)

فانظر الى نفس ابي الطيب في شعره ، ودقة يانه بقوله (أما تفلط الايام) وهذا التصريح الذي وضناه بين الاقواس يريد به سيف الدولة وكافوراً ، أفطن أن هذا كان مما يخفى على (الاستاذ) كافور ، وكان من علماء عصره وأدبائهم . وهل كان يخفى على كافور ما سخر أبو الطيب به في شعره من ذكر سواده والتعريض به ، وجعله من مادة مدحه له ، والاتيان في ذلك بكل غريبة ونادرة ، مما يدل على تمكن الاصول البيانية في لسان أبي الطيب وقلبه . انظر الى قوله وهو يعني كافوراً بينا الدار التي أقامها بإزاء الجامع الاعلى على البركة

تزلت إذ تزلتها الدار في أحسن منها ، من السنن والسناء

وهذا لا بأس به ، ولكن تدبر الهكم العجيب في هذه الايات ، وذكر المستحيلات التي لا تقع ولا تكون ولا تتوهم إذ جمعه (شمساً منيرة) ولكنها سوداء !!

تفضح الشمس — كلما ذررت الشمس — بشمس منيرة (سوداء)

إن في ثوبك — الذي المجد فيه — لضياء يزرني بكل ضياء

وهذا الضياء هو سواده

إما (الجلد) ملبس ، وايضاض النفس خير من ايضاض القباء^(١)

كرم في شجاعة ، وذكالة في بهاء ، وقدرة في وفاة

من ليض الملك أن تبدل اللون ن (بلون الاستاذ ، والسحناء)

ثم يجعله بعد ذلك (رجاء العيون في كل ارض) ، وذلك لانه عجيبة من عجائب الدهر . وتدبر كل شعر الرجل في مدح كافور نجد أمثال ذلك يتناذراً على نفسه ، وتنبه لالفاظ الرجل فانها هي التي كان يطوى تحتها معاني تهكمه بكافور كقوله « يار جاء العيون » ، وتنبه إلى قلبه المعاني ، ولفها عن وجوهها كقوله مثلاً

وما كنت ممن أدرك الملك بالمني ولكن بأيام أشبن النواصيا

(عداك تراها في البلاد مساعياً وأنت تراها في السماء مراقياً)

وهذا البيت الاخير تعريض بسقوط همة كافور ، وليس بمدح . وكان حق المعنى ان يكون

(عداك تراها في السماء مراقياً وأنت تراها في البلاد مساعياً)

وذلك أن الاعداء يستظفون ما كان من مملكة البلاد ، وبعدونه أمراً عظيماً كالرقي إلى

السماء — وذلك لحسدهم وعداوتهم التي تربو في صدورهم فترمي في الواقع بالوهم فيتعاطف في العيون —

ولكن كافوراً بعد هتمته ، لا يراها أمراً عظيماً بل هي مساع في الارض لا جهد فيها إلا كجهد

(١) تدبر قوله (الجلد) فهو هنا من أفتح الهجاء باللفظ قبل المعنى ، وكذلك قوله « لون الاستاذ والسحناء »

المتني . . . فهذا هو المعنى الذي قابله ابو الطيب ببيانه القوي ، ليعرضه مدحاً . وهو ذمٌ بليغٌ وهجاءٌ نافذٌ

فكان كافور يحيد فهم ذلك وينفذ الى اسراره ، ويصّر به إن لم يكن قد ادركه ، فقد كان ابو الطيب وهو بمصر ماتي بالرزايا ، مقصوداً بالعداوة من اقوام بينهم كانوا يمدون للدعوة الفاطمية ، وكانوا على صلة بكافور وثيقة ، يدون له المحبة والاخلاص ، وهم يعملون على إهلاكه . وكان كافور يتي ذلك بدهائه وحياته وخبرته السياسية فكان يهادي المعز لدين الله الفاطمي صاحب المغرب ويظهر ميله اليه ، وهو مع ذلك يذعن بالطاعة لبني العباس ويداري ويخدع هؤلاء وهؤلاء . وايضاً ما كان من عداوة الوزير أبي الفضل ابن حنزابه (جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات) ، وكان علماً فاضلاً له درس يلقيه وهو في وزارته ، وكان المتني لم يمدحه ولا عبأ به فلذلك عاداه ، وكاد له كيداً بالغا حتى ان المتني ذكره بمدخر وجه من مصرفقال

وماذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكاء
بها (نبطي) من أهل السواد يدرس أنساب أهل الفلا

والتبطي هو هذا الوزير ، وكان علماً بالانساب قائماً عليها ، ألف كتاباً في أسماء الرجال والانساب ، وقصدته العلماء لذلك ، كالحافظ المحدث ابي الحسن الدارقطني ، قدم عليه من العراق واقام عنده

واقام ابو الطيب بمصر على كرهه الى ان ورد ابو شجاع فاتك غلام الاخشيد (محمد ابن طنج) من القيوم فلقية المتني بالميدان على رقبته من كافور . وكان فاتك عند مقدمه قد أهدى إليه هدايا قيمتها ألف دينار فانشده قصيدته التي اولها

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسمع النطق ان لم تُسمع الحال

وقال له فيها يذكر ما كان منه

(وما شكرت لان المال فرحني سيان عندي إكثار وإقلال)
لكن رأيت قبيحاً أن يجاد لنا وأتانا بقضاء الحق بحال
لطفت رأيك في برّي وتكرمتي، إن الكريم على العلياء بحال
وقد أطال ثنائي طول لابسه إن الثناء على التنبال تنبال

يشير بالتنبال الى كافور ، . . . ثم يرفر المتني زفرته من جوف قابله

لولا المشقة ساد الناس كلهم ، . . . الجود يفقر : والإقدام قتال
وأما يابغ الانسان طاقته . . . ماكل ماشية بالرحل شمال
إنالني زمن ترك القبيح به من أكثر الناس إحسان وإجمال

ذكر الفتي عمره الثاني . . . ، وحاجته . . . ما قاته . . . ، وفضول العيش أشغال
وكذلك كان أبو الطيب قد ينس من بقاءه في مصر ، وبزم بلال وأصحاب المال ، وعزم على
الرحلة من مصر ، فأعد له العدة ، واعتمد على الهرب بحياته ودهائه قبل أن يدركه كافور الذي
أرصد له الرقباء وبث عايبه العيون . واتهم هذا الداهية الخبير البصير الفرصة في العيد يوم عرفة
من سنة ٣٥٠ — وكان رسم كافور أن يستقبل العيد بيوم (هو يوم الوقفة الآن) ، وتعد
فيه الخلع والحملانات والهدايا وأنواع المبار لرابطة جنده ، وراتبة جيشه ، وصيحة العيد تفرق
وثاني اليوم يذكر له من قبل ، ومن رد واستزاد — فاهتبل المتنبي غفلة كافور واشتغاله بالعيد ،
ودفن رماحه برأ ، وسار لياته ، وحمل بناله وجماله ، وهو لا يألو سيراً وسراً . وقطع في
هذه الليلة مسافة أيام حتى وقع في تيه بني إسرائيل ، الى أن جازه على الحلل والاحياء
والمفاوز المجاهيل ، والمناهل الاواجن فلما بلغ كافوراً الخبر بذل في طلبه ذخائر الرغائب ،
وكتب الى عماله في سائر أعماله ولكن يقول المتنبي

فربّما شفيت غليل صدري بسيرة أو قنافة أو حسام -
وضاقت خبطة فخلصت منها خلاص الحمر من نسج الفسدام



فلما أتحنا ، ركزنا الرما
 ح بين مكارمنا والعلی
 وبتنا نقبل أسافنا
 ونسحها من دماء العدی
 لتعالم بمصر ، ومن بالعراق ،
 ومن بالعواصم — أني الفی
 وأنی إوفیت ، وأنی أیت ،
 وأنی عتوت علی من عتا
 وماكل من قال قولاً وفی ،
 ولا كل من سیم خسفاً أبی

خرج أبو الطيب من مصر ، وقد اجتواها ، وبغضت اليه هذه الحياة الفاسدة التي بها وبغيرها
 من البلاد العربية ، والتي وصفها في قصيدته حين مرض بالحمى وهو بمصر فقال

(ولما صار ودُّ الناس خُباً جزيت على ابتسامِ بابتسامِ)

(وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلمي أنه بمض الأنامِ)

يحبُّ العاقلون على التصافي ، وحبُّ الجاهلين على الوسامِ

(وآف من أخي لأبي وأمي إذا ما لم أجده من الكرامِ)

أرى الاجداد تغلبها كثيراً على الاولاد أخلاق اللثامِ

وتنازعت قلب أبي الطيب كل أسباب همه ويأسه ، همُّ الحب ويأسه من اللقاء ، وهمُّ السياسة
 ويأسه من إدراك المطلب وتحقيق الآمال ، واثبت كل ذلك في قصيدته التي قلها يوم خروجه

من مصر ، فتدبرها وفصلها على ما رسمنا فيما مضى يقول

عيدٌ بأية حالٍ عدت يا عيدُ بما مضى أم لا مرفيك تجديدُ

أما (الاحبة) فالبيداء دونهم (فابت دونك يداً دونها بيد)

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي شيئاً تبيته عينٌ ولا جيدُ

يا ساقبي! أخرجني في كؤوسكما
أصخرة أنا؟! مالي لا تحركني
إذا أردت كمت اللون صافية
ماذا لقيت من الدنيا!!... وأعجبه
أمسيت أروح مثر خازناً وبداء..
أنا الغني، .. وأموالي المواعيد

ثم يخاطب أبو الطيب إلى ذم مصر وأهلها، ووصفهم بالكذب والمأطلة، وما كان من ولاية
كافور الأسود الحصي عليها، وما كان يجري من المكر فيها وفي سياستها ثم يهجو كافوراً بأفخس
الهجاء، ثم يذكرهم أنفسهم وفراق سيف الدولة وذلك قوله.

أولى اللثام كدويرٍ بمعدرةٍ في كل لؤم، وبعض العذر تفيد
وذاك، أن (الفحول البيض) عاجزة عن الجميل، فكيف (الحصية السود)!!

ونحن نقدم العذر لابي الطيب فيما ذم به مصر، وما ذكر من أخلاقها، فقد كان الرجل
منكوباً في نفسه وآماله، وقلبه وهواه، وزاده القوم كيداً، وأثبت عليه هذا الأسود كافور
عداوة باغية، وهو الذي أقدمه على مصر بطلبه، وقد أعذر أبو الطيب بمدحه إياه أيّاً كان،
بعد أن كان في جوار أمير العرب سيف الدولة. هذا... وليس يمنعنا من شهادة الحق —
ولو على أنفسنا — ما يأتي به بعض الناس من الغضب الباغى (للقومية)، وقد ذكر أبو
الطيب عيوباً لا تزال متأصلة في مصر، ولا خير في الغضب من ذكرها، بل الخير كل الخير في
معرفةا والتنبه لها والعمل على إصلاحها. والحقيقة التي لا تجحد أن أبا الطيب قد نفذ بصيرته إلى
ما كان يسلم مصر ويقتها من الخلق الفاسد، وقد كشف عنه في قصائده التي قالها في هجاء كافور
ومدح فائق ورتناه. وليس أبو الطيب وحده هو الذي عرف ذلك وأدركه بل قد عرف ذلك
كثير من أهل عصره، وإذا أنت قرأت التاريخ الذي بين أيدينا، وقفت على ذلك وعلمت أن
الرجل كان بصيراً نافذاً إلى ضوائر الناس يجلوها ويكشف عنها. ولا بأس هنا من أن نذكر لك
أياناً قد قالها القاضي التوخي الكبير حين قدم هو أيضاً مصر وخرج منها كارهاً يقول

تركنا أرض مصر لكلّ قدمٍ له باعٌ يقصر عن ذراعٍ
نفوسٌ لا تابق بها المعالي وأخلاقٌ تضيق عن المساعي
أثمت بها...، ومن عن الليالي مقام الأسد في كهف الضباع
أقول: وقد نأوا، بعداً وسحقاً لشر الخلق في شر البقاع
وكم خلفت من كرم ممين برصها، ومن عرض مضاع
وأجسام مسمّنة شباع وأحساب مضمّرة جياع

وَنَقَصَ فِي أَكْبَرِهَا حَضِيضٍ وَجَهْلٌ فِي أَصَاغِرِهَا مَشَاعٍ
لَقَدْ نَامَتْ سِرِيرَتِكُمْ وَكَانَتْ فَضِيحَتِكُمْ قِنَاعاً لِلْقِنَاعِ
جَعَلْتُمْ ذَنْبِنَا أَنَا سَمْعًا... وَمَا الْآذَانُ إِلَّا لِلسَّمْعِ

وهذا ليس مما يفضب منه ، فإن في التاريخ من امثال ذلك مالا يدفع ، وقد كانت في مصر لذلك العهد، وفي غير مصر، اخلاق فاسدة هي التي عصفت بالمجد العربي وأضاعته بين ذئاب الأعاجم وغيرهم حتى صرنا إلى ما نحن فيه الآن . فهذا الغضب التاريخي لا محل له ولاوجه ، إلا القصور في معرفة التاريخ . هذا وليس بمنكر أن تكون هناك فضائل أخرى تلتطف هذه العيوب وتخفف منها فتسنى في جانبها ، ونحفي صورتها في ظلها

... سار ابو الطيب يطوي الغلوات بماله ورجاله ورماحه وخيله ، هارباً من كافور وما أتبعه من الطلب ، وقطع في سيره الفلاة ما بين مصر وطورسيناء خائفاً يترقب ، وترأت له ايامه كلها بأهوالها وغفلاتها ، وحسناتها وسيئاتها ، واضطربت نفسه وعلت امواجها ، وأدركته رجولته وقتوته ، حين لفحته هبات الهجير وقد نصب لها حُرّاً وجهه ، وتسم من سماؤها التي اعتادها في اول ايامه قبل أن يستتم إلى بعض الدعة ، ويركن إلى غفلات الراحة ، وكذلك غلب ما كان به من اليأس والضجر ، ومد ذراعيه يستمسك بالحياة ، يبني الظفر وتحقيق الامل . ومن هنا قال في قصيدته التي ذكر فيها رحلته عند وروده إلى الكوفة يصف النوق التي نجأ على ظهرها

ولكنهنّ (جبال الحياة) ، و (كيد العداة) ، و (ميمط الأذى)
ضربت بها التيه ضرب القمار ، إما لهذا وإما لذا
إذا فرغت قدمها الحياض ، ويض السيوف ، وسمر القنار

وقلنا لها ابن ارض العراق فقالت — ونحن بترابن — : ها
ولم يكن ابو الطيب في مخرجه هذا يريد مكاناً بعينه يقصده ، بل كان متردداً بين ان يقصد المدينة ويقيم بها ، او يقطع في رحلته الفلاة إلى نجد ، او ينحدر إلى العراق . ولعله كان يتلقف الاخبار وهو في طريقه حتى يرى رأيه في قصده ، ويتقي شر الكيد الذي كان يكاد به طول عمره من جراء السياسة ، ومن أجل تفحصه على أصحاب الدسائس مهانواً بهم ، والظاهر (١)

(١) قد حاولنا أن نهدى في ظلام التاريخ إلى وجه من الرأي فلا قرر الآن شيئاً ، فإن ذلك يقتضي التنقيب في تاريخ العلويين خاصة في ذلك العهد ، وما كان لهم وما كان منهم . والكتب التي بين أيدينا من التاريخ ناقصة ، ومفترقة . فذاتنا لنا شيء من السند التاريخي فحينئذ تقدم على القطع برأي من أمر مدخله الكوفة . هذا على أن في أيدينا أشياء ولكنها لا تكفي في الدلالة على الوجه الصحيح

من شعر أبي الطيب أنه - لا مر ما - اعتمد الرحلة الى الكوفة ودخولها . وقد رأيت قبل في خبر موت جدته أنه حين أراد دخول الكوفة لبرائها ، منعه العلويون - فيما ذهبنا اليه - وحملوه على مفارقة جوارها الى بغداد ، فكان من جراء ذلك ما استملن - في قصيدته التي يرثي بها جدته - من الحدة والتهور والثورة ، والتعريض بما أريد به من الظلم والظيم ، فكان مما قال

لئن لذت يوم الشامتين يومها لقد ولدت مني (لا تفهم رغما)
تفرّب لا مستعظماً غير نفسه ولا قابلاً الا لحالقه حكماً
ولكنني مستنصرٌ بذبابه ومرتكبٌ في كل حال به الغشما
وجاعله يوم اللقاء تحييتي وإلاّ فلست (السيد البطل القرما)
(إذا فلّ عزمي عن مدى خوف بعمه)
ولاني لمن قوم كأن نفوسهم بها أقب أن تسكن اللحم والعظما
(كذا أنا يادنيا ، إذا شئت فاذهبي ،
ولا عبرت بي ساعة لا تعزني)
ولا صحبتني مهجةٌ تقبل الظلما

وقد قلنا ثم انه أراد بالشامتين الذين كان لا نوفمبرهم (رغما) - العلويين ، وانه أنذر وأوعد وهدد يريد ثم بذلك ، لما أزلوه به من الكيد له حتى خفيت نسبته إلى الشجرة العلوية المباركة . ولم يزل أبو الطيب يسر ذلك في نفسه ، وهو في كل مرة يلقى من العلويين كيداً كثيراً ، كما رأيت من إرصادهم لقتله بكفر عاقب

فالآن ، يتمكن أبو الطيب - بعد استمرار عزمته ست عشرة سنة (من سنة ٣٣٥ إلى سنة ٣٥١) - من دخول الكوفة ، بعد أن حيل بينه وبينها في موت جدته ، وقد لتي في هذه السنوات من المصائب والأرزاء ما فتّ حيناً في عضده ، وما رمى في قلبه بالعزم والقوة حيناً آخر . يدخل الكوفة وقد رغمت أنوف من منعه عن دخولها أولاً ، ومن فارق الكوفة وتفرّب غير قابل لما أرادوه عليه من ظلمهم له . . . فيقول

فلما أئحنا ركزنا الرماح ، بين (مكارمنا) والعلی
فانظر إلى قوله (مكارمنا والعلی) ، أنكون (مكارمه والعلی) هذه هي السقاء وما إليها؟ إذ تكذب عليه القوم فزعموا أن أباه كان (سقاء بالكوفة على بعير له) . والعجب أن يذكر أبو الطيب هذه المكارم والعلی وهو مقيم بالكوفة ، التي كان بها من يعرفه من لداته الذين كان معهم في المكتب وهو صغير . إن يكن ما زعموا . . . فتباً (لابن السقاء) هذا من شيخ لا يستحي من الله ولا من الناس !! هذا ، وفي الآيات التي تلي هذا البيت قححة من قححات الصدق ، وصورة من قوة العزيمة ، وكرم النصر ، وعزة نفس تميّز في ألفاظها ، لا قبل لكذاب ولادعي

بأن يجعلها تترأى في كلامه واضحة يَبَيِّنَةُ سَمْحَةَ مستعانة يقول
 وبتنا نتمبّل أسافنا ونمسحها من دماء العدي
 نتعلم مصر، ومن بالعراق، ومن بالمواصم، أي الفتى
 (وأني وفيت، وأني أيت، وأني عتوت على من عتا)
 (وما كل من قال قولاً وفي ولا كل من سيم خسفاً أبي)
 (ومن يك قابٌ كقابي له يشقُّ إلى العزّ قاب التوى)
 (ولا بدّ للقلب من آلةٍ ورأيي يصدع صمّ الصفا)
 وكل طريق أناه الفتى على قدر الرجل فيه الخطى

وفي قوله « وأني وفيت » اليتان اشارات يهتد إلى ما مضى في كلامنا عن نسبه وغيره ،
 لا نطيل باعادتها هنا مرة أخرى . وكذلك أرغم أبو الطيب أنوف أعدائه جميعاً ، وأراهم أن
 عزمه لا يزال ماضياً متفحماً لا يردُّ على بعد الشقة وتطاول الايام ، وانه قرب اليه ما كانوا يباعدونه
 عنه بتهمهم وسخرتهم به إذ قالوا « ما أنت في كل بلدة ! ، وما تبغني ؟ » . . . وقد صدق إذ قال
 إذا فل عزمي عن مدى خوف بعده فأبعد شيء ، يمكن لم يجد عزما

لم يرد في خبر أبي الطيب ومدخله الكوفة في شهر ربيع الاول من سنة ٣٥١ هـ يمكن ان
 يتوجه به التاريخ في هذه الفترة الى وجه بعينه . والذي في رواية الرواة انه توجه بعدها الى
 مدينة السلام (بغداد) ولكن من قبل رحلته حدث بالكوفة حدث حضره المتني ، وذلك
 ان رجلاً خارجياً كان قد ثار بالكوفة ، وكان من بني كلاب ، واجتمعت اليه فئة من مقاتلة الخوارج
 فانهض اليهم أبو الفوارس دلير بن لشكروز ، وانصرف هذا الخارجي قبل وصول دلير
 إلى الكوفة فدحه أبو الطيب ، وأنشده وهو في الميدان ، فحمله على فرس بمركب ذهب . ولسنا
 نعرف سبباً لمدح أبي الطيب هذا الرجل (دلير) ، ولم يرد في كتب التاريخ التي بأيدينا ذكر
 هذا الحادث ، ولا ذكر الخارجي الذي ثار بالكوفة في سنته تلك . وهذا مما يجعلنا نأخذ الحذر
 في القطع برأيي ، والظاهر أن لهذا الرجل (دلير) علاقة بالمشاكل العلوية التي كانت لذلك العهد
 بالكوفة ، وانه كان ممن يميلون الى الجانب الذي فيه سيف الدولة وأبو الطيب ، فان نفس أبي
 الطيب كما رأيت كانت نفس الرجل المنتصر الظافر الذي خرج من هوج المواصف سالماً غالباً
 كما مرّ بك في قوله

فلما أنحنّا ركزنا الرماحَ بين مكارنا والعلی

أقام أبو الطيب بالكوفة أشهراً ثم خرج من سنته تلك إلى بغداد فزُل على صاحب له هو علي بن حمزة البصري^(١)، وأقام عنده في داره. ويُن من زُول أبي الطيب على هذا الفتى دون سواه من رجال الدولة في ذلك العهد، أنه قصد بذلك أن يبدي بفعله ازدراءه لهم، واستهانته بهم. ولعله كان مما أراد أيضاً أن يكون على مقربة من سياسة الدولة، ليخبر الرجال الذين كانوا يوقدون نار الفتنة إذ ذاك، وليرؤوا ما عندهم. وهذا يسن مما قدمناه قبل^(٢) من المراسلة التي كانت بينه وبين سيف الدولة. ويُن أيضاً أنه كان متعلماً عند أهل السياسة في ذلك العهد أن أبو الطيب كان مقدمه من أجل ذلك، فقد ذكر الحاتمي (صاحب الرسالة الحاتمية) أن معز الدولة بن بويه الديلمي (سأه أن يرد على حضرته رجل صدر عن حضرة عدوه) يعني سيف الدولة. ثم إن أبو الطيب لم يقف أمره عند ذلك بل قد رغب إليه جماعة من أصحاب الوزير المهلب أن يمدح الوزير، فأبى عليهم أبو الطيب وجههم بأسوأ الرد. وكان السبب في سوء ردهم أن أبو الطيب كما علمت لم يكن يرضى أبداً عن هؤلاء الاعاجم الذين مزقوا الدولة العربية وتقاسموها بينهم — ونعني منهم هنا بني بويه — وكان المهلب وزير معز الدولة، وكان مشايخاً لهم في كثير، وعلى أن مشايخة الوزير المهلب لبني بويه كانت — فيما نرى — ارتفاقاً للرزق فإن أبو الطيب لم يعبأ به، بل أغضى عنه تهاوناً وازدراءً. فأحفظ ذلك الوزير المهلب فأسد عليه الأدباء والشعراء وأغرامهم به ليغيظوه ويكيدوا له، ويغلظوا له القول في مجلسه. فكان ما رأيت قبل من هجائهم إياه وزعمهم أن أباه كان سقاءً بالكوفة كما ورد في الشعر الذي قدمناه في أول الأبواب. ولا يفوتك هنا أن تعلم أن التوخي الذي روى قصة نسبه كان بالعراق لذلك العهد، وإيضاً أن ابن أم شيبان الهاشمي، وأبا الحسن العلوي كانا كذلك ببغداد. وقد رأيت في الباب الأول كلامنا عن هؤلاء وما ادعوه من أن أباه كان سقاءً، فاجتماع هؤلاء ببغداد، ومقدم أبي الطيب عليها من أجل السياسة، وهو عدو بني بويه، إذ كان من أصحاب سيف الدولة، ورجلاً من الذين اتخذهم لسره وآرائه السياسية، ثم ما كان من امتناعه عن مدح الخليفة العباسي، ومعز الدولة الديلمي (العلوي الفاطمي) المذهب، وازدراؤه لوزير معز الدولة (أبي محمد المهلب)، ثم ما كان من عداوة الشعراء والأدباء له باغراء المهلب وغيره، نقول: إن هذا كله مما يجعلك تستيقن فساد الروايات التي يرونها الرواة عن أمر المنبي وحياته، وخاصة ما كان ظاهر التحامل، يسن الضغينة... عفا الله عنهم!! لقد رموا الرجل بكل نقيصة، ووضعوا لكل ما كان يتمدح به في شعره قصة تخالف ذلك: رأوا المنبي يتمدح بالكرم ويمدح عايه فوضعوا القصص في بخله وشرائه على المال، ورأوه يمجّد الرجولة والشجاعة ويصف بهما نفسه، فوضعوا

(١) انظر التلخيص في ص ٢٤ (٢) من ص ١٢٥ — ١٢٧

الأكاذيب في حكايات جُبْنه وخوره إلى غير ذلك من الأحاديث التي لا تصلح

لتحقيق ولا ترجمة

وبقي أبو الطيب ببغداد مستهيناً بكل كيد وحقد، وأخذ يقرأ ديوانه على بعض أصحابه بدار علي بن حمزة البصري. ثم فرغ من أمره ورجع إلى الكوفة في أواسط سنة ٣٥٢ وبقي بها، ولم يقل شعراً بلفنا، إلى أن بدأت سنة ٣٥٤ فارتحل إلى بغداد وكان الوزير المهلب قد مات والظاهر من أمر أبي الطيب أنه حين بلغه وهو بالكوفة في سنة ٣٥٢ موت خولة أخت سيف الدولة، تمزقت أحلامه ولم يبق له قلب يمده بالقوة والتدافع والثورة، كالذي كان له من قبل، واستيأس من أمره إلا قليلاً. فلما جاءه كتاب سيف الدولة في ذي الحجة من سنة ٣٥٣ يذكر العوائق التي تمنعه عن فتح العراق، ويبين له ما هو فيه من الكرب والضيق والعسر على ما قدمنا في شرح قوله (١)

«فهمت الكتاب، أرب الكتب فسمعا لأمر أمير العرب»

أحيط بأبي الطيب، وأسلمت نفسه قيادها لأحزان قلبه، فلم يحمل نفسه على الرحلة إلى سيف الدولة لثلاث يذكره المكان وأهله، بمكان قلبه والساكين، نغني خولة، فأراد أن ينسى همه بقصد أرض غير الشام التي يتلفت قلبه إليها في حنين وأنين وبكاء. كان أبو الفضل بن العميد (٢) وهو بالري يخرج كل عام خرجين إلى أرجان فبلغه مقدم المتنبي إلى بغداد فراسله، وعزم عليه في الحضور إليه بأرجان. وقد زعموا أن ابن العميد (كان يسمي بأخبار أبي الطيب) وكفة اشتهاره في الاقطار، وترفعه عن مدح الوزراء، فسمع انه خرج من مدينة السلام متوجهاً الى بلاد فارس، وكان يخاف ان لا يمدحه، ويعامله معاملة المهلب — فيتكره من ذكره، ويعرض عن سماع شعره). والصحيح من هذا ان ابن العميد كان يخاف ان لا يعاب به المتنبي فراسله وأسنع عليه من فواضله. ففضي أبو الطيب في سيره من بغداد الى أرجان بصحبه تلميذه علي بن حمزة البصري. قال علي هذا: «فلما أشرف عليها (أبو الطيب) وجدها (يعني أرجان) ضيقة البقعة والدور والمسكن: فضرب يده على صدره وقال: تركت ملوك الارض وهم يتعبدون بي، وقصدت رب هذه المدرة...؟! فما يكون منه!! ثم وقف بظاهر المدينة وأرسل غلاماً له على راحلته إلى ابن العميد فدخل عليه وقال: مولاي أبو الطيب المتنبي خارج البلد — وكان وقت القيولة، وهو مضطجع في دسه — فتار من

(١) ص ١٢٧ (٢) هو محمد بن الحسين بن محمد الكاتب وزير ركن الدولة الحسن بن بويه الديلمي، وكان عالماً أديباً فصيحاً ذا بيان، وكان من أئمة الترس، وقد سمي بالجامع الثاني، وكان من دهاة السياسة وتديبير الممالك

مضجعه ، واستنبتة ، ثم أمر حاجبه باستقباله ، فركب واستركب من لقيه في الطريق ، ففصل
عن البلد بمجمع كثير فنلقوه وقضوا حقه وأدخلوه البلد . فدخل على أبي الفضل فقام له من
الذست قياماً مستويماً ، وطرح له كرسي عليه مخدة ديباج ، وقال أبو الفضل : كنت مشتاقاً إليك
يا أبا الطيب...» وكان دخول أبي الطيب أرتجان ولقاؤه ابن العميد في شهر صفر سنة ٣٥٤

كان ابن العميد من رجال عصره في السياسة وتدبير الملك ، ومن شيوخهم في العلم والفلسفة
وما اليهما ، ومن أفذاذ البلغاء والادباء ، وكان أمة وحده . فلا عجب أن يحتفل له بيان أبي الطيب
احترافاً عظيماً في أول اللقاء فيمدحه بقصيدته المشهورة « بادِ هواك صبرت أم لم تصبراً »
والتي يقول فيها يصف ابن العميد

من مبلغ الاعراب أني بعدها جالست رسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكاً متبدياً متحصراً
ولقيت كل الفاضلين كأنما ردت الإله قفوسهم والاعصرا

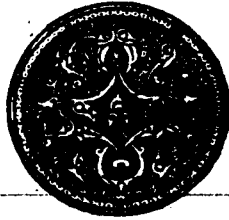
وأكرمه ابن العميد واحتفل له ، فبقي عنده المتنبي شهرين أو أشف قليلاً . وكان المتنبي ،
وهو في جوار ابن العميد ، لا يزال يعاوده هم قلبه ويغلبه اضطراب نفسه ، فكان ذلك في شعره ،
ولكنه كان يماسك على الضعف ، ولا يسطى المقادة إلا مقهوراً . وقد وقع ذلك في قصيدته التي مدح
بها ابن العميد ، وفطن ابن العميد إلى هذا الاضطراب . روي أنه لما أنشده

بادِ هواك ، صبرت أم لم تصبراً وبكك ، إن لم يجبر دمك أو جرى
كم غر صبرك وابتسامك صاحباً لما رآك ، وفي الحشا ما لا يرى !!

فقال له ابن العميد : يا أبا الطيب ، أتقول « بادِ هواك » ثم تقول بعده « كم غر صبرك » ؟ ما أسرع
ما نقضت ما ابتدأت به !! فكان جواب أبي الطيب : « تلك حال ، وهذه حال » وهذا هو ما نقول
به ... فان أبا الطيب كان يذكر خولة أحياناً فلا يخفي هوى ، ولا يرُدُّ دمعاً ، وتطلق عواطفه
من عقال رجولته ، فإذا ما ارتدت إليه قوته وأرادته ، رد ذلك رجولته وأبدى الصبر ،
وأظهر الابتسام والرضى . وهذه حالة من أحوال الحب الطاغية المسيطر ذي السلطان والقلبة .
وظهورها في شعر أبي الطيب في بيتين متعاقبين ينقض معنى أحدهما معنى الآخر كما قال ابن العميد —
دليل على أن الرجل كان أخيداً في أسر الهوى لا يملك نفسه ، ولا يجد في تناقض معاني البيتين
شيئاً . وذلك لأن هذا التناقض الذي نراه في معاني شعره يكون عنده اتساقاً في معاني عواطفه
وجبه ، وتصيراً أليفاً صادقاً عن إحساسه وضميره وحاجة نفسه .. فهذا قوله : « تلك حال ، وهذه حال »
وانظر ... فان الرجل حين ودع ابن العميد قال

ومن لي يوم مثل يوم كرهتهُ قربتُ به عند الوداع من البعد
 (وألاً يَخْصُ الفقدُ شيئاً، .. لانني فقدتُ، فلم أفقدْ دموعي ولا وجدي)
 تَمَنَّيَ يَلْذُوُ المسْتَهَامُ بذكرِهِ وان كان لا يُبغني فتيلاً ولا يجدي
 وغيظُ على الايام ، كالنار في الحشا، ولكنه غيظُ الاسير على القيدِ

وهذه الاشارة التي في البيت الثاني بقوله (لانني فقدت ..) هي الى صاحبة خولة التي ماتت
 في سنة ٣٥٢، فلم ينسها بل بقي مضطرباً مغلوباً على امره لا يستطيع الصبر تارة فتغلبه دموعه،
 ويتحاملُ أخرى بصره فينطوي على وجده ولوعته، ... والنار التي في حشاه



مغاني الشعب طيباً في المغاني
 بمنزلة الريح من الزمان
 ولكنّ الفتي العربيّ فيها
 غريب الوجه واليد واللسان
 ملاعبُ جنّةٍ ، لو سار فيها
 سليمانُ لسار بترجّمان
 إذا غنى الحمامُ الورقُ فيها
 أجابته أغانيّ القيان
 ومن بالشعب أحوجُ من حمامٍ
 — إذا غنّى وناح — إلى البيان
 وقد يتقارب الوصفانِ جدّاً
 وموصوفاهما متباعدان

ورد على أبي الطيب — وهو عند ابن العميد — كتاب من عضد الدولة بشيراز يستزيره
 ويطلب منه المسير اليه ، ولم تكن لأبي الطيب رغبةٌ بحمله ، فلم يخفَ إلى استدعائه . فكلّمه
 ابن العميد في ذلك فقال له : مالي وللدليم ؟ فقال له : عضد الدولة أفضل مني ، ويصلك بأضعاف
 ما وصلتُك به . فقال ابو الطيب : اني ملقّى من هؤلاء الملوك ، أقصد الواحد بعد الواحد
 وأملكهم شيئاً يبقى بقاء التيرين ، ويعطوني عرضاً فانياً ولي ضجراتٌ واختيارات ، فيعوقوني
 عن مرادي ، فأحتاج إلى مفارقتهم على أقبح الوجوه !! فكانت ابن العميد عضد الدولة بهذا الحديث ،
 فورد الجوابُ بأنه مملّكٌ مراده في المقام والظنن . فسار المتنبّي من أرتجان ، فلما كان على
 أربعة فراسخ من شيراز ، استقبه عضد الدولة بأبي عمر الصبّاغ ، فلما تلاقيا وتسايرا ، استشدهُ .
 فقال المتنبّي : الناس يتناشدون ، فاسمعه . فاخبره أبو عمر انه رسم له ذلك من المجلس العالي . ثم
 دخل البلد فأنزله داراً مفروشة ، وأنشد أبا عمر قصيدته التي قالها في الكوفة والتي قال فيها
 فلما أنحننا ركزنا الرماحَ بين مكارمنا والعلى

وبتنا نقبل أسيافنا ونمسحها من دماء العدى
لتعلم مصر ، ومن بالعراق ، ومن بالعواصم ،... أنسى الفتى
(وأنسى وفيت ، وأنى أبيت ، وأنى عتوت على من عتأ)

فرجع أبو عمر الصباغ إلى عضد الدولة فأخبره بما جرى ، وأنشده هذه الايات فقال عضد
الدولة : هوناً يتهددنا المتني !!

ويشأن مما روينا لك أن أبا الطيب كان لا يزال يحقر الأعاجم ويفضهم لما أصابوا به قومهم من
البلاء ، وكان استعصاؤه على ابن العميد وجداله معه في الرحلة الى عضد الدولة ، من أجل مذهبه
السياسي ، ومن أجل أن هؤلاء ، بني بويه ، كانوا اعداءً صاحبه سيف الدولة ، ومن أجل أنهم
كانوا من شيعة العلويين الفاطميين الذي لا يرضى عنهم أبو الطيب ولا سيف الدولة ،
ومن أجل أنه يعلم أن مديحه فيهم سيقى لهم ذكراً خالداً في شعره ، وهم له أعداء . ولكن
الرجل — كما علمت قبل — كان مضطرباً قد داخسه اليأس واستبد به ، فسار وهو يقول

وأيّاً شئت يا طرقي فكوني أذاةً ، أو نجاةً ، أو هلاكاً

فما دخل شيراز واستقبله أبو عمر الصباغ ، واستنشده كأنه يخبر شعره ، لم يصبر المتني
فرماه بقوله : الناس يتشادون ، فاسمعه . إذ كان شعره قد سار مسير النيرين الشمس والقمر ،
فلم اعرف أن ذلك الطلب بأمر من عضد الدولة ، غضب لنفسه ولعريته ولشعره ، فاختار من قصائده
قصيدة فيها ذكر ظفروه بمراده ، وقبّاه على الحصوم من الملوك والأمراء ، وهجاء كافور الذي
كان عنده قبل أن ينزل على عضد الدولة لتكون هذه القصيدة تهديداً ووعيداً وإنذاراً ،
ومقابلة لاساءة عضد الدولة بأساءة مثلاً . ولذلك لما سمع عضد الدولة

« وأنى وفيت ، وأنى أبيت ، وأنى عتوت على من عتأ »

عرف مراد المتني فقال : هوناً يتهددنا المتني !!
ويشأن أن هذا اللقاء الأول ، وضع بين أبي الطيب وعضد الدولة أسباب الحذر
والاحتراس ، فكان أحدهما يتسلق الآخر خوف البغي والمدوان . ولا شك أن عضد
الدولة كان يعلم من أمر هذا الداهية السياسي أبي الطيب كثيراً ، وكان يرصد عليه العيون والرقباء
على أن أمر أبي الطيب كان يتناقله فأنه حين حضر سباط عضد الدولة بعد أيام من مقدمه عليه
أنشده قصيدته التي أولها

مفاني الشعب طيباً في المعاني بمنزلة الربيع من الزمان

ولكن الفتي العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة، لو سار فيها سايمان لسار بترجان
فهذا هجاء يئن لارض فارس وأهلها . فقد زعم أن سليمان عليه السلام — الذي عليم منطق
الجن والطيور والحشرات والبهائم — لو دخل أرضهم لاحتاج إلى ترجمان، فأخرجهم بذلك
من منزلة من ذكرنا وجعلهم دونهم . وأنه — من هوانهم على الله ، وقلةهم في الارض — لم يعلم
الله سليمان لسانهم ، وليس يخفى هذا على عضد الدولة . ولم يكتب ابو الطيب بذلك بل
أتبع هذا قوله بعد

إذا غنى الحمام الورق فيها أجابته أغاني القيان
(ومن بالشعب، أحوج من حمام — اذا غنى وناح — إلى البيان)

فتم المعنى وأبأن مقصده من الايات الاولى، إذ جعلهم أقل منزلة من الطير في البيان
والافصاح. ولم يكتب أيضاً بهذا بل اراد ان يعلم عضد الدولة ، ان هذه البلاد ليست مكانه
الذي يرتاح اليه ، وليست بالارض التي تحرص عليه او يحرص عليها ، وانه غريب عنهم ، وان
مدحه لم ليس شيئاً ، وانه عربي ليس بأعجمي يميل اليهم او يكون له شأن بينهم، فقال
ولكن (الفتي العربي) فيها (غريب الوجه واليد واللسان)

فكل ما قال أبو الطيب في مدح هذا الديلمي (عضد الدولة) ليس من قلبه ولا من نفسه .
وشعره بين الدلالة على ان الرجل كان يقول متكلفاً بعد ان أخرج بمقدمه عليه . وقد فطن عضد
الدولة الى كل هذا — فقد كان أديباً شاعراً جيداً القريحة — وقال :

« إن المتنبي كان جيد شعره بالترب » (يعني غرب فارس) وبشير بذلك إلى عدوه سيف الدولة
خاصة . وبلغت المتنبي مقالة عضد الدولة فقال : « الشعر على قدر البقاع » ... وهذا تصريح بليغ ،
ولاشك أن عضد الدولة أخبر بقول المتنبي هذا

ولم يكن كل ذلك مما يمنع هذا الملك المدير عضد الدولة الديلمي — الذي وصل بدهائه
وسياسته وحسن تديره أن كان أول من خوطب بالملك في الاسلام وأول من خطب له على
المنابر بعد الخليفة — من ان يكسو ابا الطيب من نعمته ، ويفرقه بئداء وكرمه . فانهم يروون
أنه حين أنشده « مغاني الشعب ... » حمل اليه من انواع الطيب في الاردية والامنان، من بين
الكافور والعنبر والمسك والعود ، وقاد اليه فرسه الملقب بالمجروح — وكان قد اشترى له بخمسين
ألف شاة — وبدرية دراهمها عدلية، ورداء حشوه ديباج رومي مفصل، وعمامة قومت بخمسمائة
دينار، ونصلاً هندياً مرصع التجداد والحنن بالذهب

هذا ... وقد كان الجمال الطبيعي — الذي مسح الله به بلاد فارس — مما اراح نفس أبي الطيب

وأزاح همها قليلاً، فكان شعره الذي مدح به عضد الدولة مقارناً ليس فيه اضطراب بين،
أو أثر ظاهر من داء قلبه. إلا في أبيات فلائل. ولم يظهر في شعره ذلك، لأن مدة إقامته هناك
كانت قليلة، فانه بقي بشيراز على الأرجح من أواخر ربيع الثاني إلى أول شعبان من سنة ٣٥٤
ولكن ظهر لهم أبي الطيب واستعان، وعادت إليه ذكرى خولة وموتها، وذكر آماله
ومغامراته وجرأته حين توفيت عمه عضد الدولة فرثاها بقصيدة ليس فيها شيء إلا هذه الأبيات

لا بُدَّ للإنسان من ضجعةٍ لا تَقْلِبُ المُضْجَعِ عن جنبه
ينسى بها ما كان من عُجْبِه وما أذاق الموت من كربه
نحن بنو الموتى . . . ، فما بالناس نفاقُ ما لا بدَّ من شربه !!
تَسْخَلُ أيدينا بأرواحنا على زمان هي من كسبه !!
فهذه الأرواح من جِوَّة وهذه الأجسام من ربه !!
(لوفكر العاشق في منتهى حُسن الذي يسبه لم يسبه)
لم يُرَ قرن الشمس في شرقه فشكَّت النفس في غربه
يموت راعي الضأن في جهله ميتة جالينوس في طبه
وربما زاد على عمره وزاد في الأمن على سيره
وغاية المفرط في سلّمه كفاية المفرط في حربه
فلا قضى حاجته طالبٌ فؤاده يخفق من ربه

ففي هذه الأبيات لتفكر أبي الطيب في الموت، بعد الذي لقي من فقد خولة. كما يبناء في مواضع



لا بدءاً للإنسان من ضجعة
لا تقلب المضجع عن جنبه
نحن بنو الموتى، فما بالناس
نعافُ ما لا بدءاً من شربه!!
يموتُ راعي الضأن في جهله
ميتة جالينوس في طبه
وربما زاد على عمره
وزاد في الأمن على سيربه
وغاية المفراط في سلمه
كفاية المفراط في حربته
فلا قضي حاجته طالب
فؤاده يخفق من رغبته

أشرنا قبل إلى أن الرجلين (أبا الطيب وعضد الدولة) كانا يتخادعان، وأنهما كانا في الباطن عدوين لا يأمن أحدهما جانب صاحبه ولا غدرته ولا سوء المتقلب. وبين لك عن هذا أن أبا الطيب مع إكرام عضد الدولة له — كما رأيت — لم يستطع القرار بأرض فارس أكثر من ثلاثة أشهر، ولولا ما أشرنا إليه لاستطاب أبو الطيب المكان الذي وجد فيه غاية الأكرام، والمال الكثير المبدول، والعطايا السابغة الكريمة. وهو مع ذلك دليل على أن أبا الطيب ليس ممن الطمع والحرص على المال بالمنزلة التي يذكرونه بها، ويتابعهم عليها كثير من الذين نصبوا أنفسهم للكتابة عن الرجل والترجمة له من المحدثين

وقضية هذه العداوة بين أبي الطيب وبنو بويه الديلميين قضية معقدة طويلة، ولها في التاريخ الاسلامي والعربي أسباب ممتدة. ونحن نختصرها هنا ونجملها في وجهين قريبين:
فالأول منها: ما عرف عن أبي الطيب من بغضاء الاعاجم على ما فصلناه في مواضع
والآخر: هو المسألة السياسية المتصلة بالخلافة العباسية، والدعوة العلوية، والدعوة الفاطمية..

وهذه هي أكبر مشاكل التاريخ الاسلامي، وخاصة في هذا العصر الذي كان المتني أحد رجاله الافذاذ كان العلويون يريدون اخراج سلطان الخلافة من يد الباسيين الى ايديهم ، وقد تمكنوا بالدعوة التي قام بها الدعاة العلويون ان يحزموا أمرهم ، ويجمعوا اليهم رؤوس الدولة فيكونون من شيعتهم ، وكان من شيعة العلويين — ممن نذكرهم هنا — بنو بويه الديلميون ، وبنو حمدان العرب التغليون. ثم غلبت على بني بويه الدعوة الفاطمية فصاروا من العاميين عليا في المشرق ، واستمضى على هذه الدعوة بنو حمدان . وكانت سياسة بني بويه علوية أعجمية ، وكانت سياسة بني حمدان علوية عربية. فاشتعلت البغضاء بينهما ، ثم زاد العداوة وضراًها وضراًها ما كان من استجابة بني بويه للدعوة الفاطمية ، واستمضاء بني حمدان عليها ، ومناواتهم إياها في الشام والموصل . وكان بنو بويه يعلمون أن بني حمدان قد أدركوا خفايا السياسة الدبلوماسية الاعجمية المظاهرة للدعوة الفاطمية، وانهم يعملون على تقضيها . وكان دليل ذلك عندهم مناصرة بني حمدان للخلافة العباسية ، مع انهم من رؤس شيعة العلويين مذهباً وعملاً ، وقد علم بنو بويه ان هذه المناصرة إنما يراد بها إزاحة بني بويه عن مواضعهم من العراق وإبعادهم عن مقر الخلافة

فلما كان ما كان من أمر سيف الدولة وظهور سلطانه بالشام ، ووقوفهم على نيته في اتخاذ العدة واستجلاب العدد، وتهيئة أمره لفتح العراق — على ما ذكرناه — استحرت العداوة بين هؤلاء وهؤلاء ، وخاصة سيف الدولة، وهو رأس بني حمدان، وأصلبهم عوداً ، وأشدهم مراساً ، وأقدرهم رأياً ، وأحزمهم دهاءً ، وأبعدهم نظراً ، وأمضاهم عزيمَةً وهمًّا . وكان من آثار ذلك ما أشرنا إليه قبل في سبب حروب الروم وسيف الدولة .

وكان أبو الطيب كما علمت من المقرئين لدى سيف الدولة ، ولم يكن بنو بويه ليخطئوا معرفة الرجل ومذهبه في السياسة ، وان هذا المذهب هو مذهب سيف الدولة ، فلذلك حذره عضد الدولة على ما رأيت ، وبقي له (عدوياً مداحياً). وقد كان أبو الطيب — فيما ذهبنا اليه — علوياً منكوباً في نسبه ، فليس بمستكر ان يراد به — من قبل العلويين — ما أريد به من قبل وهو بطبرية سنة ٣٣٦ حين أُرصد له العلويين ^{الغلبانيين} عبيدهم السودان ليقتلوه ، فيكون من ذلك ان يسمى هؤلاء العلويون لدى عضد الدولة في ايداء الرجل والتيل منه . وأيضاً ما كان الدعاة الفاطميون يريدونه به لما يعلمون من أمره أولاً ، ولإنكاره نسبهم ، وقوله إنهم من نسل اليهود كما قدمنا ^(١) في خبر نبوته إذ قال

« فلا تسمعن من الكاشحين ولا تعبان (بمجل اليهود) »

يريد (بمجل اليهود) احد الدعاة الفاطميين . ولعل الذي جعل الفاطميين يكيدون له ، سعاية

الاسود الخصي كافور ، فانه كان قد بذل أموالا في طلب المتبي حين مخرجه من مصر قبل مجائه له ، فلا عجب أن يبذل أكثر من ذلك بعد ان يبلغه الهجاء المفضح المفرع ، وما فيه من السخرية والتمثيل به كقوله

(وأسود .. مشنره نصفه) يقال له : أنت بدر الدحجى

وأبلغ من ذلك تحريضه أهل مصر على قتله والفتك به كقوله

ألا فتى يورد الهندي هامته كما تزول شكوك الناس والشهم
فانه حجة يؤذي القلوب بها من دينه الدهر والتعطيل والقديم
ما أقدر الله أن يخزي خليقته ولا يصدق قوماً في الذي زعموا

وقد كان كافور — كما قدمنا — على صلة بالفاطميين والعباسيين معاً ، ومخادعهم ويداجيهم معاً ، فليس بعيداً أن يكون هو الذي حمل الفاطميين الذين بالعراق على الارصاد لأبي الطيب ، وأن يكون بذل مالا كثيراً للاستقام منه

والظاهر أن عضد الدولة كان قد علم بكل ذلك الذي يكاد به أبو الطيب ، ففضل أن يرفع يده عن دمه ، فأغرى بعض أتباعه بأن يوقع في نفس أبي الطيب شيئاً من الخوف والرعب ، فيختأ أبو الطيب للرحلة عن شيزار ، ويتعمد عن دياره لياتي حنفة في مكان آخر . ولذلك (أستاذنه المتبي في المسير عن شيراز ليقتضي حوائج في نفسه ثم يعود إليه) . وكان هذا من أبي الطيب ضرباً من ضروب دهائه ومخادعته ، فلما عزم الرحلة ، كان من دهاء عضد الدولة أن زاده كرامة ليوقع في نفسه أنه مصدقه (فأمر أن تخلع عليه الخلع الخاصة ، وتماد صاته بالمال الكثير) . وبقيننا أن أبا الطيب حين وجد ذلك — من إكرام عضد الدولة له — وكان قد بلغه طرف من أخبار الكيد الذي يكاد به ، عرّف ما يريدُه عضد الدولة ، وما يراد به ، ولذلك أشار في آخر قصيدة مدحه بها — وهو مفارق له في أول شعبان سنة ٣٥٤ — إشارات كثيرة ، منها قوله

ومن يظن (نثر الحب جوداً) وينصب تحت ما نثر الشباكا

وهذا المثل هو مثل لما رآه قبل من أمر عضد الدولة . ثم انظر إلى يأس أبي الطيب وقد علم أنه قد أحيط به ، وأنه مقتول لا محالة ... إذ يقول
« وأبأ شئت ياطر في ، فكوني أذاة أو نجاة أو هلاكاً »

.....
« وما أنا غير سهم في هوا ، يعود ، ولم يجد فيه امتساکاً »
فلما فصل أبو الطيب من شيراز ووصل إلى دير العاقول — وهي ضيعة بالعراق — اجتمعت عليه

بنو أسدٍ وبنو ضبّة، فقتلوه وقتلوا غلمانه وقتلوا ولده محمداً. وقد قدمنا لك (١) أن سيف الدولة كان قد أوقع بمروبن حابس من بني أسدٍ، وبني ضبّة، وبني رباح من بني تميم، وذلك في سنة ٣٢١، وقد مجّاه أبو الطيب في مدحه لسيف الدولة في تلك السنة. وكان ذلك المدح وهذا الهجاء سبباً في أن أحفظ عليه هؤلاء القوم من بني أسدٍ وبني ضبّة. . . قال أبو الطيب لسيف الدولة

مهلاً ألاً لله ما صنع الفنا في «عمر وحاب» و«ضبّة» الاغنام
يريد عمرو بن حابس من بني أسدٍ

لما تحكمت الأسنّة فيهم جارت، وهنّ يجرن في الاحكام
فتركنهم خال البيوت كما غضبت رؤوسهم على الاجسام
أحجار ناس فوق أرض من دم ونجوم ييض في سماء قنّام
وذراع كلّ كلب أبي فلان كنية حالت، فصاحبها أبو الأيتام

واعلم أنّ بني أسدٍ وبني ضبّة هؤلاء كانوا من شيعة العلويين، والظاهر أنّهم كانوا قد انحازوا إلى الامام محمدوعين، وصاروا بعد من شيعة بني بويه الفاطميين. وليس يعد أن يكون كافور هو الذي أمدّم بالمال ليقتلوا الرجل، وتوسط له في ذلك أصحابه من أهل العراق العباسيين أو الفاطميين

هذا هو مختصر القول في مقتل أبي الطيب في ٢٧ رمضان من سنة ٣٥٤. أما ما يروونه من النسخ في حكاية مقتله بسبب القصيدة (٢) التي أولها

ما أنصف القوم ضبّة وأمه الطرطبة
وأما قلت ما قلت رحمة لا عبه

إلى آخر الفحش القبيح الذي ورد بها، فانا في نقده ونقضه وجوه لانطيل القول بها هنا، ولها موضعها إن شاء الله من كتابنا. وأيضاً فقد ورد أن سبب قتله «أنه لما ورد على عضد الدولة ومدحه، وصله بثلاثة آلاف دينار وثلاثة أفراس مسرجة محلاة بالذهب، ثم دس له من يسأله: أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة؟ فقال أبو الطيب: «إن سيف الدولة كان يعطي طبعا وعضد الدولة يعطي تطبعا». فبلغ ذلك إليه، فنضب. فلما انصرف من أرضه، جهّز إليه قوماً من بني ضبّة فقتلوه — بعد أن قاتل قتالاً شديداً ثم انهزم، فقال له غلامه ابن قولك الحيل والليل واليداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم